شقُّ الجَبل

رواية

شقُّ الجَبل

رواية

تأليف :

طنطاوي عبد الحميد طنطاوي

مراجعة لغوية:

سيد عثمان

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

رقم الإيداع: 2017/16368

الترقيم الدولي: 978-977-820-039-3

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235611772 -0235688678

هاتف محمول: 01005248794-01000405450-01001872290

بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com - info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

شقُّ الجَبل

طنطاوي عبد الحميد طنطاوي

رواية

إهداء

إلى أجمل باقات الزهور في حياتي

كنزي

رودينا

ياسين

وآخر الزهور

مصطفى محمد طنطاوي

-١-

قصرٌ ومقبرةٌ ومنزلٌ

من المركب الذي يفرد شراعه، عندما تنظر لقرية شق الجبل وأنت قادم من الناحية الغربية للنيل من مدينة المنيا، زراعات قليلة تتداخل مع الجبل، حتى خضرة الأراضي الزراعية المحدودة والممتدة بمحازاة البلد، تبرز من بينها نتوءات صخرية وحجرية، تتعانق الخضرة الموسمية بأشجار النخيل بالجبل، كل البلد تراها وقد غلب عليها اللون الأسود، أغلبها كان مشيدًا بالطوب اللبن، وبعضها بحجارة غير مستوية وقليلٌ من الملاط بينها، مجرد بيوتات صغيرة وإن اختلف عنها جميعًا منزلٌ ضخمٌ أُطلِق عليه قديمًا قصر الباشا، ليس قصرًا بالمعنى المفهوم للإقامة فيه في الحياة الدنيا، قالوا إنه قصر الآخرة، فالباشا الكبير بناه وفي نيته أن يجعله مدفنًا خاصًّا به وبزوجته، يقولون: إنه كان ينتمي للطائفة الإسماعيلية التي يعشق أغلبُ معتنقيها جمال المدافن وتجميلها، ومثال حاضر لذلك مقبرة الأغا خان بمحافظة أسوان، لكن الباشا وضع في حسبانه أن يكون مقامًا مريحًا لزوار مقبرته ومدفنه، حوائطه الخارجية من الحجر الأملس، طابقان فقط لا يزيد الأول، والثاني غير مكتمل، في الدور السفلي قاعتان متداخلتان تفضيان لأربع حجرات، اثنتان على كل جانب، اثنتان منها شبه مفروشتين بأثاث كامل لحجرتي نوم، تكتظ واحدة منهما بقطع خشبية متنوعة مرسومة ومحفور فوق جوانبها صور متنوعة لطيور مختلفة، سرير خشبي ضخم، حافتاه الأمامية والخلفية من الخشب الزَّان المفرغ بطريقة هندسية رائعة على شكل أغصان لأشجار، كرسي استرخاء مثل كراسي البحر ما زالت بعض آثار تنجيد القطيفة القديمة، مشاجب خشبية عمودية ذات أفرع متعددة، ومشاجب فوق الجدار من خلفها مرآة ضخمة مؤطرة بخشب

ذهبي، لكن ألوانها باهتة إلا أجزاء قليلة ظاهرة، رغم الجدران الشاحبة إلا أن آثار الجمال على كل المكان باقية ولكن في حياء مستتر.

والحجرة الثانية بنفس الصورة ولكن سريرها موضوع فوق قاعدة كبيرة وكأنها مصطبة مربعة الشكل، والسرير من الأسرَّة ذات الأعمدة النحاسية الضخمة، وخزانة ملابس مجهزة داخل الجدار نفسه، الحجرتان الأخريان مملوءتان بأثاث قديم عبارة عن مقاعد وكنب ومناضد متنوعة، نوافذ المنزل كلها ذات قواعد منحنية مقوسة من أعلى، كل النوافذ بصبغة واحدة مطعمة بقطع صغيرة مركبة ومعشقة بين الخشب والزجاج الملون، مرسوم عليها أشكال هندسية أو صور لنباتات وزهور، مصابيح نحاسية ضخمة في القاعتين ترتفع وتنخفض بسلاسل رقيقة تنزلق في بكرة علوية، تسحب من الطرف الحر فتهبط الثريا الضخمة أو العكس، ساعة إشعال المصابيح أو اطفائها، ما زالت بقايا المصابيح الزيتية القديمة في مكانها، تنتشر في الردهتين حوامل خشبية لمصابيح أخرى مختلفة الأشكال والألوان، أثاث خشبي موزع بطريقة عشوائية محلى بزخارف الأرابيسك، مقاعد بأشكال متنوعة مطعمة جوانبها وخلفيتها بمهارة ورقي وذوق رفيع، مباخر نحاسية معلقة قي الجوانب بألوانها المائلة للبرونزي شبيهة في أشكالها بالأبراج، مناضد منتشرة من خشب الصنوبر، منها ما هو مطلي وآخر بدون دهان، تختلف ارتفاعات المناضد الموجودة؛ فبعضها مرتفع على الأطراف وفي الجوانب، وآخر منخفض موازٍ للمقاعد، بعضها مطعم بصدف وخشب أبنوس أسود وخشب ملون، الأبواب سواء الخارجية أو الداخلية من الخشب السميك تعلوه النقوش المحفورة، محفور بدقة لطيور وزهور وأغلبها كأنها مغطاة بصفائح من البرونز، ينفرج أحد الأبواب فيؤدي لما يشبه قاعة طعام ملحقة بمطبخ، يتوسطها مائدة بسيطة وحولها عدد من الكراسي، على الأرفف متعددة الأشكال صواني فضية أو نحاسية دائرية، تتزين أجزاء من الحوائط بألواح من القيشاني تتجمع وتتشابك مع بعضها فتصنع صورًا لأشجار وعصافير وأشكال لفاكهة ويتوسطها شكل طاووس

ما زالت ألوانه تخطف الأبصار، أغلب الجدران متآكلة وآثارظاهرة جلية لمحاولات ترميم فاشلة فوقها بأيدٍ لا تجيد، طُسوت وأباريق نحاسية متنوعة يميل لونها للأحمر الذهبي، أغلب الأرضيات من الرخام، الدور العلوي يقتصرعلى حجرتين إحداهما عبارة عن مكتبة غيرمكتملة، مكتب ضخم بكرسيِّه الضخم الوثيروبعض المقاعد أمامه، بقايا لجرامافون فوق خزانة صغيرة ذات أبواب زجاجية ويبدو بداخلها بعض من أسطوانات عفا عليها الزمن، قليل من كتب تتنوع ما بين التاريخ والسيروغيرها، الجدران مكتظة بصور شخصية مرسومة باليد، رائعة التكوين والألوان مؤطرة بأطرذهبية متنوعة أغلبها لمطربشين وسيدات بملابسهن السوداء وغطاء رءوسهن، صورة وحيدة لسيدة متبرجة ويكاد فيها أن يظهر مفرق نهديها، عارية الذراعين طليقة شعرالرأس، وبادٍ أنها تلون شفتيها بأحمرشفاه ... يقولون إنها ابنة الباشا، وبعضهم قال إنها زوجته، يبدو أن المكان ينظف في فترات متباعدة، فغالبًا تظهربقايا الأتربة فوق الأثاث، والد أحمد الناظرنفسه طلب أن يكون المكان بمثابة الأمانة فنقل أمنيته لأولاده، فظل المكان على حاله غالبًا، لكن بدت عوامل الزمن والقِدم واضحة عليه، الوحيد الذي يكسرقاعدة وضع القصرالمدفن هو دكتور إبراهيم، فمنذ كان في المرحلة الثانوية وهو يحب المبيت والإعاشة فيه، فهو لا يطيق الإقامة في البيت الكبيرالذي شيده الناظر، غالبًا تكون إقامته في القصر، يوم يعرفون بقدومه يتأهبون لتنظيفه بالكامل، إقامته لا تدوم إلا أيامًا معدودات، فهو دائمًا يشعربالأنفة من إقامته بالبلدة، منذ ما يقارب من عشرة أعوام مضت لم تطأ قدمه أرض البلدة، في خلفية القصرالصغيرفضاء لا تتعدى مساحته المائتي مترالمربعة، لا يوجد بها سوى بعض شجيرات الليمون، قال الناظرإن هذا هو المكان الذي كان يعده الباشا ليشيد فيه مقبرته التي لم تُبن، أما البناية التي تلتصق بالقصرالمدفن فهي بيت أحمد الناظرالذي بُني على النمط الريفي المعتاد، دوارٌ ضخم خارجي للرجال ومندرة للضيوف وحجرتان لنوم الرجال أوالضيوف، هذا جزء شبه منفصل عن باقي المنزل،

والمتبقي حجرات أهل المنزل والنساء، ملحق به من الخلف فناءٌ كبير يحتوي على العديد من الكوانين وفرن الخبيز وحظائر متنوعة للبهائم والطيور، لا يشترك بيت الناظر والقصر القديم سوى في شيء واحد هو طلمبة رفع المياه، فقد تم استغلالها لصالح بيت الناظر، تم تركيب أنابيب المياه من الخزان الكبير فوق القصر إلى منزل الناظر، يقوم أكثر من فرد بتشغيل الطلمبة بذراعها المزدوج لمدة تقترب من ثلاث ساعات يوميًّا وأحيانًا تزيد، أكبر ساحة في البلد هي الساحة الأمامية لبيت الناظر، في تلك الساحة شجرتان معمرتان عمرهما بعمر البلد؛ شجرة جميز ضخمة وشجرة لبخ كبيرة، في تلك الساحة يلعب الأطفال وتقام الأفراح وملاذ لكل تجمع محبب أو غير ذلك، البناية كلها بالقصر المدفن أو البيت معروفة اليوم بين الناس ببيت الناظر، لا تستبين العين البيوت جيدًا فقد حوطتها وحاصرتها أشجار النخيل غالبًا، وبعض من أشجار الكافور واللبخ الضخمة وتشاركها العلو والارتفاع مئذنة المسجد القديمة، أما الكنيسة فقد أخذت ما يقارب شبه منزل، فلا جرس مرفوع عاليًا، حتى دقات الناقوس محدودة فتعداد النصارى كان لا يتجاوز عشرين بيتًا، وكلها تنتمي لأسرة المقدسين، كانت أغلب بيوت البلد تضاء بلمبات الجاز المعتادة، منها لمبات ذات عويل، ساعة تشتعل، لهبُها طويلٌ تعقبه آثار دخان، وأخرى ذات إطار زجاجي، فوانيس قليلة تقتل عتمة الليل بضوئها الشاحب معلقة على رءوس الشوارع أو الأزقة، أغلب البيوت كالجحور، قليلة فيها منافذ الضوء كثيرة العتمة، الرطوبة ممتزجة بروائح غير مستساغة لا يستشعرها المقيم الساكن، ولكنها تلفح وجه القادم من الخارج، غالبًا يسد أنفه أو يستحي فيتحمل وكأنها آثار عفن أو ما شابه ذلك، وقليلة البيوت التي تربي البهائم فيلحق بالبيت زريبة خاصة، أما حظائر وأعشاش الدجاج وبناني الحمام الطينية وسراديب الأرانب المحفورة في الأرض فتكاد تتواجد في كل البيوت، لا صمت تغرق فيه البيوت، أصوات لبشر أو حيوانات وطيور، ربما حشرات غريبة أو ثعابين تطل برءوسها، غموض ودبيب لا ينتهي، مرثيات ونساء سلواهن الندب في

بكائيات محفوظة، ورجال يغلب على حياتهم الكسل، لكنهم حاذقون في لف سجائرهم في تلك الأوراق الرقيقة جدًّا الناعمة، تبغ دخانهم من أسوأ الأنواع حتى في رائحته، لكنهم يقبلون عليها في شغف وحب، جدران بالية ينفذ من شقوقها برد الشتاء بسهولة، قد تمتص بعضًا من حرارة ووهج شمس الصيف لكن يتسلل الهواء ساخنًا، للدور العلوي والسطوح سلم طيني أو سلالم خشبية متحركة من مكان لآخر حسب الحاجة إليها، وكل القرية وما بها تنام في حضن الجبل وكأنه يأسرها من كافة الجوانب ما عدا جانب النيل، على مسافة قريبة من البيوت تنتشر المقابر والمدافن، ليس جديدًا أن تكون الجهة الشرقية من النيل مكانًا للمدافن، فمنذ عهد الفراعنة جرت العادة بذلك، ومرجعية هذا الاختيار تعود لجفاف التربة، والجو يساعد على أن تبقى الجثة دون تحلل كامل، بعكس الناحية الغربية من النيل التي كان يغرقها ماء الفيضان وتربتها الطينية المتشربة بالماء والمزروعة طوال المواسم، فتلك التربة تساعد على تحلل الجثث سريعًا، والمصري القديم كان حريصًا أن تظل الجثة بحالها خاصة بعد تحنيطها وفق قواعد تاهت اليوم، فكانوا يخافون أن تتوه الروح ولا تجد الجسد لبدء عملية الحساب في الآخرة فيضيع عليها الخلود، وبمضي السنين وتعاقب الأديان ما زال الجبل وما يجاوره من أراضٍ جافة هو المكان المفضل للدفن، تتنوع المدافن مقابر خاصة بأهل المدينة، مبنية بالحجر وبصورة جيدة وعناية عمرانية، فترتفع شواهدها وقبابها ذات الألوان المطموسة غالبًا وقد يقترب اللون من لون رمال الصحراء الصفراء، أغلب تلك المدافن ذات مداخل وحجرات تتسع للإقامة ومن الداخل تتراص القبور بمصاطبها، يرصعون جدران المقابر بآيات قرآنية، أحيانًا كثيرة فوق الفتحة المغلقة قطعة رخامية مكتوب فوقها اسم صاحب المقبرة، قد يكون هناك أكثر من اسم ولكن هناك ارتباط وثيق بين أصحاب الأسماء، ينتمون لبعضهم بأواصر قربى من الدرجة الأولى، وعلى الجانب الآخر مقابر قرى ونجوع وعِزب الناحية الغربية للنيل، وهي أقل معمارًا من مدافن المدينة فقليل منها له

شواهد، أغلبها مبني من الطوب الرملي المخلوط بالطين وقش القمح أو البرسيم، وتنقسم المقابر لثلاثة أقسام من الشمال للقرى والنجوع، من اليمين لأبناء المدينة، مع كلا الجانبين مقابر للمسيحيين تأخذ جزءًا خاصًّا بها في كلا الجانبين، تتدرج المدافن علوًّا مع ارتفاع الجبل، بعضها قد يصل حتى قاعدة بداية الصخور الضخمة، قمم متنوعة للجبال فترى وكأنها نتوءات صخرية مدببة بارزة لا يستطيع إنسان تسلقها، مسارات ودروب بين الصخور مع دورانات قليلة لمن يصعد للجبل مباشرة، كثيرون يعشقون الصعود حتى القمة المخيفة المرعبة، فالشق من أعلى من ينظر لأسفله يأخذه دوار غريب، وفي الشقوق الغريبة الحالكة الظلام من أسفل حتى تصل للشق الأضخم والأكبر، لا يطرقها إلا معتاد هذه المسالك، جحور ضخمة في الصخور لخفافيش، وكل ما تتخيله من أفاعٍ، هذا الشق الضخم كان أهم مصدر للرزق للقرية وأهلها، فمن المدينة أو من القرى على الجانب الآخر، تأتي النساء وخاصة العاقر التي لم تنجب رغم زواجها منذ فترة، وعليها أن تختار أي الطريقين تود أن تسلكه، فإما من الأسفل وفي طريق أكثر رعبًا، وغالبًا تدور وقائع لحوادث مريبة بين الرجال والنساء، وتنتشر شائعات بأن الشباب وفتيات المدينة يُقبلن على هذا المكان، فكانت قرارات «الناظر» ألا نترك الحبل على الغارب لكل من هب ودب، فاقتصر هذا الطريق على مجموعة معينة ومعروفة، يقومون بحراسته وخاصة أيام الأعياد، منهم بطبيعة الحال «نادر» الابن الثاني للناظر والمشهود له بالتهور والاندفاع هو وصحبته، أما الحل الغالب لمن في نيتها أن تأخذ البركة ويصيبها الرعب والخوف فتحبل فما عليها إلا أن تصعد الجبل وتنظر من أعلى وتقفز ما بين الصخرتين، الصخرتان بعيدتان عن الجرف العميق أسفل الجبل، لكن من ينظر كثيرًا يصيبه الرعب، يصاحب في الغالب أي زائر واحد من أهل القرية، ممن أوكل إليهم هذا العمل من قِبل الناظر، ما يتقاضاه النصف له والنصف يعطيه للناظر، الناظر يقوم بكافة المصاريف ويتحمل أعباءً كثيرة، من يخالف أو يكذب معروف أنه سيبتعد عن هذا العمل

ويُستعان بغيره، مجرد أن تقفز السيدة ما بين الصخرتين، يقرأ لها أحد المقرئين بعض آيات من القرآن كما يدَّعون، لكنها غير ذلك تمامًا، فهي همهمات لا تُدرك معانيها توارثها ممن سبقوه، تدفع السيدة بطيب خاطر، فعندما تُصاب بالرعب غالبًا تكون استعداداتها للحمل أكبر، رغم أنهم يقولون لمن ركب رأسه الخوف «اتقطعت خليفته»، فغريب هذا الأمروكيف يُفسر ذلك، لا مانع من تقبل أي مغالطات أو أكاذيب تجلب لقمة العيش للبلد، فمن كانت خليفته مقطوعة من الأصل فإذا خاف وركب رأسه الرعب، تنعكس الحالة ويمكن أن نقول في هذه الحالة «رجعت خليفته»، ألا يقولون في علم الرياضيات والمنطق أن نفي النفي إثبات، ربما تحت هذه المنظومة يُفسَّر الفعل، فغالبًا ما تحاول الحماة أو الكنة أن تدفع بابنتها أو زوجة ابنها لفعل تتخوف منه، تصيبها الرجفة وتنمو داخلها الاستعدادات للحمل، فمثلًا يحضرون لمن لم تنجب جمجمة إنسان، وعلى من تطلب الحمل أن تقفز من فوق الجمجمة سبع مرات ذهابًا وإيابًا، مع إطلاق البخور المطلوب وفق رؤية الشيخ المبروك، وأيضًا في حالات مشابهة يمكن الاستعانة بثعبان مقتول للتوو ما زالت أجزاء جسمه تتحرك في رعشاتها الأخيرة وعليها أن تقفز عليه سبع مرات، دجل وشعوذة ومواريث ما أنزل الله بها من سلطان في نظر البعض، وآخرون يؤكدون صدقها وصدق مفعولها، لكنها كما يقولون لقمة العيش، الشيخ يسمع كل ما يدور ويعرف أين الحقيقة من الكذب، يجاري القوم فله نصيب محفوظ أيضًا، ما أن يطرق آذان الأولاد الدعاء المعتاد المطول والمجود:

لا إله إلا الله ... الملك ... الحق ... المبين

محمد رسول الله ... الصادق الوعد الأمين

يا دايم أنت الدايم ... ولا دايم غير الله

الأطفال وهم يخبون في جلاليبهم ذات الخطوط الطولية وطواقيهم تغطي رءوسهم من نفس نوع أقمشة الجلاليب، وشكلها، أغلب جلاليبهم خبت

ألوانها وغالبًا يغلب على ألوانها اللون الغامق حتى تتحمل الأتربة ولا تظهر عليها الأوساخ، يسارعون في فرح مصحوب بمشاحنات بينهم، كلهم من تلاميذ الشيخ رضوان.

الشيخ رضوان تتعدد مكاسبه من نواح شتى، فللأولاد يُحفِّظ القرآن، وأهم السور التي يحفظها الطفل سورة ياسين، فللسورة فضل وقراءتها خير للميت، في طقوس دفن الموتى يُسرع الأولاد ويتراصون بجوار جدران المدافن، يتربع الطفل منهم ويقرأ سورة ياسين التي تعصمُ الميت من عذاب القبر، يترك حجر جلبابه مفتوحًا وعلى مودعي الميت أن يترحموا عليه، فالهبة مطلوبة وخاصة من أقرباء وأحباب الميت، أما مكانها فحِجر جلباب الشيخ الصغير الذي يقرأ سورة ياسين، غالبًا يوجد أكثر من فتى صغير يقرأ وأصواتهم منغمة جميلة كما علمهم الشيخ، لا يُطالب الشيخ الفتيان بنصيب فهو يأخذ منذ البداية، وعلى الفتى أن يلتزم بقواعد القراءة كما يجب، ولا يمد يده ابتغاء الصدقة، هكذا يعرفهم الشيخ، وهل هناك من يتجرأ ويُكذب الشيخ فيما يقوله، فهو الحافظ لكتاب الله والمُعلِّم، فإن تحدث صدق، وإن وعد فوعده حق، لكنه أمام الناظر يصمت فقد تربيَا معًا، وكل كبيرة وصغيرة عنه يعرفها، فمصائب الشيخ لا تعد ولا تحصى، الناظر لا يُجاهر بها إلا في ساعات لهوهما فحسب، أو جلسات الذكريات والوحيد الذي يكون بينهما طه سبع الليل، أو كما يطلقون عليه طه الصامت، لكن طه لا يتكلم، غالبًا يضحك فحسب، ويقوم على خدمتهما فهو ظل الناظر، حتى المراكب التي تنقل العابرين من الشطِّ الغربي للشرقي معروف قائدوها، فكل المراكبية لهم مهام معينة متفق عليها بينهم والناظر، أما الأجر جراء عملية النقل فمختلف، فأبناء المدينة يدفعون النقود مباشرة، أما أهل القرى فلا يدفعون مباشرة وإنما بصورة موسمية، فبعد كل محصول مما تطرحه الأرض، على عمدة القرية أو شيخها أو كبيرها، أن يجمع معاونيه من كل الفلاحين قدرًا معينًا ومحددًا من المحصول، يختلف وفقًا لاختلاف إمكانية الشخص نفسه وما يمتلكه، ليس على الناظر السؤال

فيأتيه نصيبه حتى موضع قدمه، يفسرونها بأنها إتاوة مفروضة عليهم، هم يأتون بقريبهم الميت ويتركونه ويذهبون ليقتسموا ميراثه، نحن هنا بجواره الليل قبل النهار، فعليهم أن يدفعوا وبالزيادة وأن ينصاعوا لمطالبنا، تتجمع كل المحاصيل مع اختلاف أنواعها ويتم تصنيفها، مجموعة من الكبار على رأسهم الشيخ رضوان الشريك في كل فعل وعمل، ويتم التوزيع على كل البيوت وكلٌّ له نصيب وفق أعماله التي يؤديها، كانت مصادر الرزق لا تخرج خارج نطاق أفعال محدودة، بناية المدافن والقبور، استقبال الزائرين بمختلف انتماءاتهم، فللمدينة طقوس متبعة وهي لا تختلف كثيرًا عن أبناء الريف، وكلا الفريقين يمكن أن يأتي ويعيش معيشة كاملة لأكثر من أسبوع هنا في المدافن، منهم من يذبح ويوزع الصدقات والهبات.

عندما ترسو المراكب يسارعون لاستقبال وديعة الله المتوفى ويساعدون أهله، أما في الأعياد فيحب الكثير من الناس أن يقضونه بين رفات موتاهم، فيحضرون بأعداد كبيرة وقديمًا يقولون إنهم كانوا ينتظرون هذا الموسم، فاللحوم كانت شحيحة، فيحفظون كل ما يجود به الزوار من لحوم في صفائح ممتلئة بالدهن لو كان الجو شتاء، أما في الصيف فإنهم يقددونه فوق صخور الجبل الملتهبة في هذا الوقت، فتصير قطع اللحم مجمدة ويمكن الاستفادة منها لمدة تزيد عن شهرين أو ثلاثة، ويمكن أن تكون الرحمة الموزعة على روح الميت جافة بطبيعتها، فتأتي في سلال ممتلئة بفطائر الخبز أو الفاكهة أو الكحك والقراقيش، للحمير أيضًا دور في استقبال الزائرين، من شاطئ النيل وحتى الوصول للمدافن.

حياة تقترب من البؤس، شقاء يطل عليهم من شقوق الجدران الطينية المتآكلة، رغم أن العصافير واليمام تعشش في تلك الشقوق تتواجد أيضًا الثعابين، تستطيع الطيور أن تهاجر لشواشي النخيل وأغصان الأشجار، تستسلم لسكنها، ولكنها تقاوم من يهاجمها.

ساعة العصاري وقبيل الغروب، تجد أكثر الرجال فوق المصاطب

أمام بيوتهم جالسين وقد أسندوا ظهورهم للحوائط، قليلًا ما يصمتون، يجترون ذكرياتهم عندما تنتهي حكاياتهم المعتادة، وإن صمتوا يخرجهم من غفوة كادت تذهب بهم في سبات لحظي رد السلام على سائر، وقد تستأثر بهم ساعة مرح مأساوي فينتبهون فيجلدون بعضهم بسياط السخرية في مباريات لا تنتهي من كوميديا سوداء، مظاهر بؤس جلية تؤكدها الكلمات البائسة المضطربة، يتهامسون فيتذكرون طريق «الملاية» هي الطريق التي ترتادها يوميًّا كل نساء وبنات القرية، يتذكرون كيف كانوا ينتظرون ذهابهن وإيابهن، يقتفون آثارهن بعيونهم ولكن في نظرات مختلسة، لا يفصحون عمَّا يفعلون، من كانت أمنيته الزواج فعليه أن يتخير عروسه من العابرات لهذا الطريق، جميعهن يرتدن هذا الطريق باستثناء عدد محدود من نساء الكبراء، يمضين وكأنهن يتباهين بقدراتهن على نصب جرارهن الفخارية فوق رءوسهن وهي مملوءة بالماء، غالبًا القدور والبلاليص هي وسيلة حفظ الماء المؤقت من الصهاريج وحتى البيوت، في المنزل يتم صبها وحفظها في الأزيرة والقلل الفخارية الصغيرة، صهريج المياه هو الحسنة الوحيدة التي أقامتها الحكومة وبالمثل المدرسة الابتدائية، أما أغلب الخدمات فعلى طالبيها العبور للمدينة العامرة على الشاطئ الثاني للنهر، عادات تكاد تمحى من ذاكرة الناس.

من القواسم المشتركة التي يجتمع عليها كل الناس بل أغلبهم، احتساء الشاي ساخنًا يميل للسواد؛ يتم غلي مائه كثيرًا، يدورونه في أفواههم رشفات كعملية تبريد معتادة قبل بلعه للداخل، إذا استمرت السهرة دامت دورات أكواب الشاي المختلفة الأشكال من مكان لآخر، غالبًا يفضلون الأكواب من الصاج المقوى نظرًا لأنهم يأخذونها معهم وهم يروون أو يزرعون أو يشيدون مقابر جديدة، يعتبر احتساء الشاي هو المتعة التي يجتمع عليها الجميع.

يتحدث الناظر مع طه من جديد عن لوعة قلبه كون ابنه البكري إبراهيم

غير موجود بجواره وأنه لا يحب الحياة في البلدة:

- كم تمنيت أن يكون إبراهيم بجواري ... أن يكون سندي في تلك الحياة ... تخيل نفسك بدون سلاح.

- أين؟

- في المدافن أو في طريق المطاريد.

- من يُقدم على ذلك مجنون ... من يتقدم خطوة، يحسب حساب الكلاب السعرانة بتنهش جتة أي بني آدم.

- تخيل نفسك بدون سلاح.

- مستحيل.

- إبراهيم ... ولدي البكري ... حلمت يكون سلاحي وقت عوزة، لكن مجرد حلم، الحقيقة طلع سلاح خايب، يوم ما اعتمد على ابني إبراهيم، كأني بني آدم رافع في إيده بندقية ماسورتها مشروخة قدام عدوه.

- أنت البركة يا سيد الناس ... ابنك راجل كبير في الجامعة وله شنة ورنة، يأتي ليجلس بجوارك ... كلنا طوع إشارة من إيدك ... وأولادك رجالة من ضهر راجل ... سلمها لله.

- أتمنى أن تسكن أوجاع قلبي.

يقاطعه طه بصورة غريبة، هو نفسه يستغرب الحدث فطه دائمًا مقلٌّ في الحديث بل غالبًا لا ينطق بكلمة فيقول:

- علمتنا ... وذكرت دائمًا:

«ألا بذكر الله تطمئن القلوب»

لا تتوقف الأسئلة المتفجرة في رأسه، يسكن لحظيًا وهو يتأمل طه ويصنع ابتسامة يداري بها هزيمته أمام كلمة طه البسيطة العميقة في معناها ...

غالبًا يرددها واليوم يذكره بها، يصمت أمام طوفان الأسئلة التي تتردد.

المطاريد شاغله الأكبر، في النهار يحومون كالغربان من بعيد لبعيد، ينقضون على الطيور والفراخ الصغيرة من الدجاج أو البط أو الأوز، ليلهم نهارونهارهم ليل، في الليل يتحولون لخفافيش تترصد أي فريسة ... وكأنهم مخلوقات غريبة لا تنتمي للبشرية، كأن قلوبهم لا تخفق مثل قلوب البشر، وجوه جامدة يتصنعون ويرسمون ضحكات، ملامح باهتة وعيونهم للموت أقرب منها للحياة، يتوخى الحذر منهم ويحذر الجميع.

عندما يتذكر السنوات السالفة وشعوره بالحصار الغريب المفروض عليه، تعامل يومها بكل حزم وكان صبورًا، فلم يتسرع في ردود أفعال، كان عليه أن يحافظ على تمثاله المنصوب في عيون الناس، يشد قبضته على بندقيته ويبعث إصبعه بزنادها وفي غاية الحذق يطلق قذيفة فيذكر كبيرهم بأنه ما زال رابضًا ومرابطًا وعارفًا بكل ما يدور حوله، طلقاته تحذير، الجميع رهن إشارته، فكان يُسرج فرسه ويكون حريصًا على ربط حزام بطنه بنفسه، فمن يقع من فوق ظهر فرسه لن تقوم له قائمة، لكن ليست كل الأحداث يستطيع البوح بها، فكل الأفواه كانت في حاجة للخبز، يقرأ ويسمع الأسئلة التي تطل من العيون والشفاه اليابسة، تتعلق به الأيدي أن ينتشلها من غرق الفقر، لا يفتر حماسه، هم قدره وهو لم يعتد الهروب من مسئولية تلقى على عاتقه، كان عليه أن يحتال بكل الطرق الممكنة، عليه أيضًا تسديد فاتورة المنصب الذي اعتلاه في قلوبهم وعقولهم، لا يرتضون به بديلًا فليس هناك من يتحمل أحماله، وهو يهمه أن يظل ويبقى في منصبه ومكانته، ذكرياته تتتابع، فيجلس فوق حجر ويرسم خطوطًا بعصا من عيدان القطن الجافة على سطح الأرضية المبللة بماء النهر، كيف كان يمضي في الطريق بحرص زائد، يتأمل تلك الخطوط التي يحتمل أن تكون مواقع للمعارك الممكنة حينها، كيف كان يضع في حسبانه أن لا تتعارض وتصطدم مع طرق مطاريد الجبل، يستظهر القوة ويرفع السلاح للترهيب، كان مدركًا لنوعيتهم،

يقول لنفسه فحسب ليس الخوف عيبًا، هم موتى وهاربون من العدالة ولا تشغلهم الحياة، وهو يبغي الحياة للأولاد، يتحاشى ويبتعد عن الصدام ويرفع بندقيته أمامهم، ومن يفعل الخطأ يركبه الخوف.

***

يشعر وكأن حياة كل الناس في البلد معلقة برقبته، سعادته مرهونة برفع كرب عن إنسان، شجرة العائلة الكبيرة يعرفها جيدًا، فليس هناك غريب في كل البلد، كل الأوراق التي في حوزته تعطيه حقًّا كاملًا في ملكية كل أراضي البلدة، حتى البيوت وكأنه ينتظر بفارغ الصبر أن تُفتح خرائط الأحلام، جال بعينيه يبحث عن البلد البكر التي يغرس فيها أمانيه وآماله، لا مكان يستجير به سوى هذا البلد موطنه، موطن آبائه وأجداده، فمن يترك أرضه أو يغمض له جفن عندما تهاجمها الذئاب يستحق القتل، لكن هو يعلم قدراته وقدرات من حوله، لا يهرب ولا يفكر في ترك الساحة لمغتصب، هو يملك وهم شركاء حياته، هم يحتمون به وهو أيضًا مدرك بأنهم حصنه وقوته، المطاريد لم يشهروا سلاحًا حتى اللحظة ولكن في الغد مؤكد سيفعلون، ظل يبحث وينقب حتى حلَّت العتمة، تحسس طريقه، وجد معه صحبته المعتادة، الغالبية من أهل القرية يأكلهم الفقر والخوف، أصبحوا تائهين مترددين مبعثرين وعيونهم معلقة به، صرخ فيهم وهو يتذكر شيخه ومن أخذ العهد منه، كلماته وهم في صف الذاكرين السابحين المسبحين، تخترق أذنيه بقوة:

«اتركوا أرواحكم وذوبوا عشقًا ولا تفقدوا الطريق، لا تجعلوا أجسادكم تحترق في لهفة الشوق للمحبوب، ارقصوا ... دوروا بقوة وبشدة ولكن ليمسك كل منكم بيد الآخر ... كلكم عبيد الله ... أولاده ... خلفاؤه ... أحبابه... سترعاكم عنايته».

من مات دون عرضه أو أرضه فهو شهيد.

استجابوا لصرخته وقالوا وهم يرفعون عقيرتهم بالصياح وأيديهم تشد بقوة على أسلحتهم:

«كلنا خلفك ... كلنا خلفك».

تأخذ بعضهم نشوة الجماعة فيفكون أسر قلوبهم وألسنتهم بكلمات تحفز هممهم وتقوي عزيمتهم فيقول أحدهم:

«ريح بالك يا كبيرنا ... كلهم مطاريد وحرامية ... أي واحد فيهم لا يساوي شعره في ديل جحش».

يشد آخر على خشبة بندقيته القديمة:

«أبو دراع لا له أصل ولا فصل ... بيخاف من ضله ... ما يفرقشي عن تيس مخصي ... منفوخ بلحم وقرون».

يضحكون من كلماته ...

عندما يجتمعون ثلاثتهم الناظر والشيخ رضوان وطه الصمت، الملقب كثيرًا بسبع الليل، فالحديث الدائر غالبًا عن حاجات البشر في البلد، فيطرح الناظر همومه بالناس، ويصمت طه كعادته، أما الشيخ فإنه يطالبه ألا يتعب رأسه كثيرًا فالهموم لن تنتهي قائلًا وهو يضحك ومحاولًا أن يبتعد بوجهه عن مقابلة وجه الناظر:

- كلٌّ منهم هائم في دنياه وشواغله التي لا تتعدى، المرأة والليل والمعسل ويوم تفرج عليه قطعة من الأفيون يلوكها بين أسنانه أو نفس من الحشيش تساعده في ...

لا يكمل عبارته ويحبس طه ضحكته، لكن غصبًا تتناثر ضحكته مجزأة مبعثرة ويلومه الناظر بقوله:

- يا شيخ اتق الله.

يتدخل طه في الحديث، فيتحدث عن الميت الذي قدموا به من إحدى قرى الناحية الثانية من النهر، كيف طار نعشه في الفراغ فوق رءوس الناس، صرخات الناس وأصواتهم قاربت أن تصحي الأموات من قبورهم ليشاركوهم في الفرح، تحول المأتم إلى مهرجان، ارتفعت الدعوات، تناثرت الحكايات عن المغفور له وكرماته حتى قبل مماته، يضحك طه بصوت مرتفع، يصمم الناظروالشيخ أن يُفصح عن سبب الضحك، بعد طول عناء وتصميم من الناظر اضطر طه أن يفصح عن السبب، فقد سمع من أحد المشيعين للجنازة وكان جارًا للمتوفى، بأن المتوفى كان قليل الذمة وعمره ما ركعها في الجامع ولا غير الجامع، ويكتم ضحكاته ثانية ويتجرع بعض الماء، يقذف بعبارته قبل أن يسرع بالدخول لداخل البيت:

«عمره ما لبس لباس في ...».

يضحكان بقوة ويستمران حتى يعود طه فيقول الناظر:

- عارف إيه يعني إن واحد ميت يطيروالناس تصرخ وتهلل وتقول عليه إنه ولي ولا شيخ ... قلة أدب وقلة دين.

وللشيخ رضوان تفسيرات أخرى فيسرع:

- أنت يا كبيرنا هتقفل باب رزق ربنا فتحه.

- جهل.

- جهل جوه منه خير ....

- أنت بتقول كلام عبيط يا شيخ ... إزاي؟؟؟

يشرح الشيخ رضوان باستفاضة ما يدور في رأسه، فالميت أو الشيخ أو الولي كما يدَّعون، ذلك الكاذب من طار نعشه في الفضاء، هم يدَّعون وما مطلوب منا سوى تأكيد ما يدَّعون، يهتفون علينا أن نهتف معهم، لسنا نحن ولكن ندفع الشباب والجهلاء والغوغاء أن يشاركوهم كذبتهم،

سيطالبون ببناء ومقام وضريح للشيخ الباتع صاحب البركات والكرامات، من سيبني؟ واحد واثنين وقد يقوم بالعمل عشرة من أبنائنا، باب خير فُتح أمامهم وعليهم استغلاله والاستفادة منه، سيأتون إلينا كزوار للشيخ الولي، سيقيمون مولدًا له ربما، ربما يقوم المجانين منهم بالذبح وتوزيع الرحمة ... أليس خيرًا يا مولانا الناظر؟؟؟

يفيض في الضحك وينظرون لبعضهم ويصمتون لبعض الوقت ثم ينفجرون بدورهم في الضحك تأييدًا لفكرة الشيخ رضوان.

تخرج كلمات الناظر في تريث:

- الناس غاوية وهم، يهربون من الحقيقة، يهربون بكذبة أو بحلم كاذب، كثير من البشر كان مرضهم وهمًا، فلا شفاء من هذا المرض سوى بالوهم والكذب ...

مبتسمًا يكمل الشيخ:

- ما الجُرم الذي نرتكبه؟ وما المانع أن نقول أو يقول أولادنا وشبابنا ... إنهم رأوه يرتدي جلبابًا أبيض ومعقودٌ فوق رأسه شالٌ ووشاحٌ أخضر اللون وحول رقبته عقود غريبة وكأنها تنير الطريق أمامه، يقولون إنه يزور كل الأموات في مقابرهم، رأوا جموعًا من البشر تسير خلفه في ظل هداه ونوره، وقادمون من أماكن شتَّى يميلون على يديه يقبلونها، في يده عصا ذات حلقات معدنية في نهايتها، يضرب مقدمتها في الأرض فتصدر صوتًا وكأنه ناقوس يدق، إشارة يتعمد فعلها ليسمعها الناس فيسارعون لينالوا من فيض رضاه وجمال محياه.

- الله ... الله ... جزاك الله خيرًا يا شيخنا.

- نكذب الكذبة ونصدقها.

تطرق الحديث إلى الطاحونة، الطاحونة أحد معالم البلدة ولا غنى عنها

لأهاليها، تكلف الناظر كثيرًا حتى تم بناؤها، النساء كن يذهبن للشاطئ الثاني ليطحنَّ حبوبهن، رغم الخرافات التي تنتشر حول تشييدها وبنائها، لم يهتم الناظر كثيرًا بتلك الأقاويل والتفاهات كما يطلق عليها الرجل، الساري من حكايات متداولة بين الناس أنه قبل أن يتم تشغيل الطاحونة، تلك الماكينة الضخمة بسيورها التي تلف بسرعة كبيرة وكأنها تأكل بعضها، يجب إراقة دم طفل أيًّا كان ولدًا أو بنتًا لا يتعدى عمره السنوات الخمس، هذا يساعد في قتل الجني الذي يركب تلك المعدات الثقيلة أو يرحل عنها، تتردد تلك الحكاية في أفواه البشر، يوم شرع الناظر في بنائها، لاكت الألسنُ حكايات كثيرة لم يفصحوا عنها علانية، رغم أنهم يدركون ويعرفون أن الناظر مستحيل أن يسمح بأن ينزف طفل صغير من أبناء البلد قطرة دم، لكنهم حرصوا على ألا يبتعد أطفالهم عن مرمى عيونهم، أن لا يسهروا خارج الدار كما كانوا يتركونهم في السابق يلعبون ويمرحون مع أقرانهم، تم إنشاء الأبنية الخاصة بالطاحونة، جاء من المدينة عمالٌ مهنتهم تركيبات وتشكيل مفرداتها وآلاتها الضخمة، الباب الأمامي بعده مباشرة ميزان يجلس خلفه أحد العمال، يقوم بالوزن وتحديد القيمة المطلوبة مقابل الطحن، يتولى الوقوف على القادوس ذلك الشكل المخروطي المعدني الضخم فردٌ آخر، يضرب بيديه داخل الحبوب فيحركها يسارًا ويمينًا حتى لا تسد فوهة القادوس الضيقة السفلية، له من أي سيدة قروش معدودة يسمونها الوهبة، من لا تدفع يغرف بيديه غرفة بقدر ما تحمل راحتاه ويلقيها في إناء خاص به بجوار القادوس، ومن أهم أعماله أن يحدد نوعية الحب الملقى في القادوس، فيختلف من ذرة إلى قمح أو حلبة، غالبًا إن كانت الذرة أو القمح يضاف إليهما الحلبة، فالحلبة تكسر اللون الأبيض عندما يخبز الطحين، يكون الخبز الناتج مائلًا للسمرة غير الداكنة وعندما يجف يقرمش ويميل للاحمرار، والحلبة من أهم الأشياء المضافة ويقولون بأنها مفيدة جدًّا للمعدة، ولا ينسى أن أي طحين يُضاف إليه قليل من الملح، فيهتف معلنًا ذلك لمن يستقبل الطحين من أسفل، يتلقى منه الخبز

فيسرع بتغيير المسافة ما بين الحجرين الضخمين اللذين يقومان بطحن الحبوب، ويتم هذا باستخدام مفتاح يدوي يحركه المستقبِل من أسفل، تتغير سرعات الحجرين اللذين يهرسان الحبوب، بعصا من جريد صغيرة تتولى السيدة صاحبة الدقيق تسليك الفتحة القادمة بالدقيق كل لحظة فتحرك عصاها يمينًا ويسارًا، عدد العاملين في الطاحونة ستة أفراد وقد يصل إلى سبعة، كل العاملين غرباء عن البلدة فينامون بها ويقوم بالحراسة بعض من أبناء القرية، في البداية تخوَّف الناس فلم يتجاسروا لطحن حبوبهم في الطاحونة، كسر القاعدة الناظر ويومها طحن ما يقارب أردبًا من الذرة الشامية ونصفَ أردب من القمح، وبدأت تدب الحركة وتتكاثر حتى إنها اليوم تعمل من الصباح وحتى قرب صلاة العشاء، كعادة الناظر فكر في كيفية إسناد العمل لبعض أفراد من القرية، كان يريد إجراء عملية إحلال وتبديل للأفراد ولمصلحة أبناء البلدة، تم له ما أراد ولم يتبق سوى فنيٍّ واحد يعمل مع المعدات الثقيلة في الحجرة الطويلة الضخمة، يكون الذهاب للطاحونة سلوى للسيدات، فرصة أن يتلاقين يتحدثن وكعادتهن لا تخلو أحاديثهن من الخوض في الأعراض أو ما يشبه ذلك، أفعال يأتيها العاملون لكنها لا تصل لمسامع الكبار أو الناظر، لا يخلو الأمر من مغازلات تتم كثيرًا بالعيون، ترفضها كثيرات وترتضي بها قليلات، مداولات في السعر والقيمة المطلوبة مقابل الطحين قد تسحب خلفها دعوات، من يقف على القادوس ووهبته تختلف من واحدة لأخرى، مساومات كثيرة تتم ما بين السيدات والفتيات ورجلي القادوس والميزان، الخوف يُصاحب الأفكار التي تهاجم أصحابها فيسجنونها طوعًا أو كرهًا، لكن هناك إشارات خفية وتلميحات، ملامسات ما بين كف وكف، تصنع احتكاكًا، نفور في أعضاء الجسد المخفية، مداعبات ولكن بلا تجاسر أو كسر للمعتاد، نظرات لخلخال يزين القدم وقد تتعمد المرأة خاصة إظهاره، فتيات اقترن لسن الزواج ولم يطرق بابهن عريس، يتحين الفرصة لكلمة تطفئ نيران الجسد المخفية ولو بالكلمة أو النظرة، ظمأ مرهون بشرع يخاف أيٌّ منهم كسره،

كثيرون يتدثرون بثياب التقوى ومثلهم على الجانب الآخر، لكن لم يستمر الحال على نفس المنوال فيكسر أحدهم الصمت، عامل الميزان المشهود له بحسن سيرته، لا تفوته الجماعة في صلاة، أبوه معروف بتقواه وأدبه وهذا ما دفع الناظر للاستعانة به كوزّان، تأتيه إشاراتها بغمزة من زوجة محرومة من زوج انتهت مظاهر رجولته خاصة ساعات الليل، تخترقه عيناها المكحولتين، تمسك يده وهي تساومه، تحلف بحياته التي عندها أغلى شيء في الدنيا، تتحدث بصوت هامس وكلماتها تتيه دلالًا وفُجرًا، يهتز الفتى المعتاد على الأفعال الصبيانية التي لا تخرج عن حيز القرص أو الضحكة، لا تدفع له أجر طحينها، من خلف ساتر لا يلمحها أحد ممن يملأون مدخل الطاحونة، تتصنع أنها تخرج نقودًا من جيبها الداخلي فترفع طرف ثوبها، تظهر قدميها المخضبتين بالحناء فيرتفع فيرى فيض نور أبيض لا يعكس وجه صاحبته الذي لوحته الشمس، يرتفع الثوب وترتفع معه درجة حرارته، تتقابل عيونهما، بصوت مرتفع يقول لعامل القادوس بإنه في الحجرة الخلفية، لا يسمعه، يغلق الدرج الذي يضع فيه النقود، يسرع للحجرة وهو يحاول أن يرفع جلبابه لأعلى حتى يخفي انتصاب عضوه، يسرع، دقائق وتتسلل وتلحقه في الحجرة الخلفية، كانت تلك البداية، ذاق الفتى رائحة وطعم النساء، استشعر برجولته التي تتفجر في وجودها، آهاتها وحرارة حرمانها ووهجها يدفعانها أن تفعل، الفعل يسحب الفتى بعيدًا في دنيا جديدة عليه، لا يكمن سرٌّ في البلدة المحدودة فتتناثر الأقوال، تتوارد حكايات عن عشق قائم، يصل الأمر لمسامع الشيخ، لا يركن الشيخ رضوان للصمت فيصف حالة المرأة وشبقها وفعلها، فيصفها بأنها ما زالت في ريعان الشباب ومتوهجة وزوجها كما يصفه:

«إيدك والأرض»

ماذا تفعل؟ عندما يصفه الناظر بأنه ينوي تغيير شرع الله، يرفع يديه مستسلمًا قائلًا:

- يا سيدي نطبق الشرع ... عليها يكون الرجم حتى الموت وعلى الفتى الجلد... لكن ... علينا بأن نأتي بأربعة شهود عدول يروون ويشهدون على الوضع القائم ... يصمت ويبتسم ... بالطبع لا يوجد ... علينا أن نستعد لفضائح متتالية ويمكن أن يؤدي لقتل أحد ...

يقلبون الأمر على كافة وجوهه، اجتمعوا أن يذهب طه من فوره للإتيان بالفتى، واجهًا الفتى، تغيَّر حاله، وشعر بقدر الذنب الذي جناه وكون الحكاية وصلت لمسامع الناظر، هناك خطر قائم أكده الناظر ... في اليوم التالي سافر الفتى لأقرباء له في القاهرة.

***

يحتالون بكل الطرق ليسايروا ركب الحياة ومتطلباتها، مدركين كينونتهم وحقيقتهم، فأغلبهم بلا عزوة ولا أرض، حتى بيوتهم سواء القديمة أو الجديدة لا يملك أي منهم صك ملكية خاصة بها، كلها ملكًا للناظر، استسلموا لحقائق الدنيا حولهم، وكأنهم في يوم الحر اللافح والصهد الذي يخرجه الجبل وينفثه جوفه فأقصى أمانيهم ثمرة خيار ترطب صدورهم، ربما يهربون للنيل فيلقون بأجسادهم إليه شكلًا، ولكنهم في الحقيقة يشكون ويرفعون شكواهم المعتادة في صمت ويتسابقون في مرح غريب، آه لو تطاول أحدهم سيجد أكثر من لسان ينزله مكانته وقدره.

يونس الابن الأصغر للناظر في طفولته يسمع حديث مجموعة من الشباب ناقمون على الدنيا.

وسط ضحكهم الذي يقارب البكاء، يقصون كيف يتراكضون ويتقافزون وهم صغار، الأسرع من يحصل على حسنة أكثر من زائري القبور أو ما يسمونه بالرحمة على روح الميت، كيف كانوا مثل القرود يقذفون إليهم بالحسنات أو حبات الفول السوداني، في قلوبهم حقد على المدينة وأهلها وحياتهم المرفهة هكذا يصورونها، ورغم أحزانهم التي تبدو من خلال

أقاصيصهم، إلا أن حياتهم غالبًا مثار سخريتهم ونوادرهم وضحكاتهم، يصفون أنفسهم بأنهم قرود داخل جبلاية القرود. يسألون ويطرحون أسئلتهم، متى يخرجون من أسوار بلدتهم؟ يقول أحدهم:

«كل أبواب الدنيا حولك مفتوحة، لكن مخنوق وحياتك كابوس كاتم أنفاسك، فك أسرك واهرب للمدينة، علينا أن لا نستمر في لعب دور القرود، علينا أن نقفز فوق حاجز الجبلاية».

هاجس غزو المدينة يعشش في ذهن الفتى الصغير يونس، سبح في أحلام هواها، ينتظر أن تسنح له الفرصة، ويوم تأتيه الفرصة يذهب في رعاية أبيه، مبانٍ فارهة وعشش على أطراف المدينة أيضًا، رجال يرتدون ملابس رائعة وآخرون يتسولون في الطرقات، يتعلق في يد والده وينظر ويتأمل، تتراص عربات الحنطور تنتظر من يستقلها، وسيلة المواصلات الأساسية، يسأل كالمعتاد، تأتيه الإجابة إنها كانت وسيلة مواصلات أصحاب الحظوة والشأن الرفيع، أما العربات الكارو فكانت صاحبة النصيب الأوفر والأكبر في التنقلات بين مختلف أرجاء المدينة، لا يصمت وربما يطرح سؤاله بصورة غير مباشرة لمن يكبرونه سنًّا وعلمًا، فالعربة الكارو البعض يقول إنها كلمة تركية تعني عربة يجرها حصان، هو يحسبها تطور للعربة الحربية الفرعونية، ينتشر قريبًا من مرسى المدينة «الموردة» يتواجد من الورش والمحلات الخاصة بتصليح وتركيب حدوة الخيل أو البغال والسروج والبرادع والألجمة، تجار للغلال والتبن أيضًا، لا ينسى أبدًا الفتى الضخم الذي يفرض سطوته على كل البشر على شط المدينة، الجميع يشترون ودَّه، كان فتى ذا وحمة وكأنها ثمرة توت حمراء قاتمة أسفل أذنه اليمنى، الغريب أنه كان يقدم دلائل الخضوع والولاء للناظر لحظة أن تقع عيناه عليه، تباين غريب وأسئلة تتداعى على عقله الغض الصغير ولكن تثير فيه دوافع، مجرد أن يلتحق بالمرحلة الإعدادية فيوميًّا يعبر النهر في الطريق إلى مدرسته.

تتأخر يومًا مدرسته في الخروج بسبب زيارة ضيف كبير، وعندما وصل

للموردة التي ترسو فيها كل مراكب وقوارب البلدة فيجدها خاوية، المراكب كلها في الناحية الثانية وراء جنازة، كان عليه الانتظار، توجه إلى المسجد الأقرب للشاطئ، في تردد لم يستمر كثيرًا على باب المسجد، كان مطيعًا وكما صدرت إليه أوامر أبيه ينفذها حرفيًّا:

«طريقك من البيت للمدرسة والعكس».

لم يكسر القاعدة الموضوعة، اليوم هو في حالة استثنائية، لا وجود للمراكب ومضطر للانتظار، في حاجة ملحة أن يقضي حاجته، توجه من فوره للمسجد، هو معتاد على الصلاة في المسجد القديم للقرية ولكن ليس دائمًا، هاله منظر المسجد القديم وكأنه يشاهده للمرة الأولى، لم يرع انتباهه من قبل، يبدو من الخارج وكأن حوائطه تميل للداخل وليست قائمة، مئذنته قديمة متهالكة، باحة كبيرة تقابله في دخوله مكشوفة بلا سقف، أعمدة من الحجر الجيري المغطى بطبقة من الرخام، الذي يظهر قدمها من تساقطه عنها، الأعمدة مختلفة الأشكال فمنها الأسطواني والمضلع، السقف من الألواح الخشبية والعروق وكلها مزخرفة بدقة متناهية وألوانها ما بين الأحمر والبني والأسود، أثار انتباهه أكثر الشكل العام للمنبر ودقة صناعته ويبدو عليه القدم والإهمال، هو ليس مهتمًّا بكل تلك الأشياء ولم يبحث عنها ولكنها راقت لعينيه، بعد أن قضى حاجته، تصنع بأنه قادم للصلاة فتوضأ وصلى، مضى ولكن لم تضع الصورة من مخيلته فقد نُقشت في رأسه، ما أثارها أكثر الأقاصيص التي تروى عن هذا المسجد، تتردد الحكايات كثيرًا أن شقوق الجبل ما هي إلا طريق طويل ممتد تحت النيل تصل ما بين شرق مدينة المنيا وبين غربها، وهي ممرات متشعبة منذ أيام الفراعنة ولم يستطع إنسان حتى اليوم أن يسير فيها، ويقولون إن هذا المسجد المسمى بمسجد «العمراوي» كما تسجله الأوقاف ويطلق عليه الأهالي مسجد «الوداع»، سبب التسمية الأولى فمعروف وأنه شُيِّد في عهد عمرو بن العاص، أما الوداع فقد اختلفوا حول سبب التسمية، أما سبب أن هذا المكان بالذات

ولماذا تم اختياره؟ تزعم الحكايات بأنه كان معبدًا فرعونيًّا وتحته أنفاق العبور للناحية الثانية للنيل التي تؤدي لشق الجبل مباشرة، تنام الحكايات في ذهن يونس ويسردها أكثر من إنسان، يثير فضوله أكثر بأن وقت البدأ في إنشاء كوبري النيل العلوي كان السبب الرئيسي في توقفه أن المسجد في المواجهة مباشرة للكوبري، كان على المهندسين القائمين على العمل هدم المسجد، ووافقت المحافظة والأوقاف، ساعة أن دقوا مجساتهم في جوف الأرض داخل المسجد أو خارجه أخذتهم دهشة غريبة، توقف العمل وتبادلوا الآراء والأفكار، لقد لاحظوا وجود فجوات وممرات غريبة تحت الأرض لا يُعرف لها بداية من نهاية، آتى خبراء أوروبيون وعلماء في الآثار، لم يستطع أحد أن يحدد هذه الأنفاق من أين تبدأ وإلى أين تنتهي، توقفوا.

يسمع يونس من طه الصامت:

«من شق من شقوق الجبل ممكن تعدي للبر التاني».

تعيش في عقله العبارة وتثير فضوله.

-٢-

مُبصرٌ في بلادِ العِميان

كما قال ابن الرومي ... كلٌّ يرى الناس بعين طبعه.

حاول القراءة، لم تُجدِ محاولاته، عقله تتقاتل فيه أفكاروأمانٍ وأحاديث لا صلة بينها، فتموج داخله أسئلة عن أحقيته في الوجود ... أهميته ... ثم ما الحياة التي يتمناها ومتطلباته وأمانيه؟ يرصد وتدور ذاكرته في فلك الأهل، قريته «شق الجبل» أبوه وأمه وإخوته، البشر ... حانق على وجودهم في الدنيا أصلًا فذهب في عتاب غريب على الدنيا، شَعَرَ بالضيق والضجر يتسرب إلى نفسه، أسرع يجهز لنفسه كأسًا من الخمر، وبين رشفات الخمروالتلذذ بإطلاق دخان سيجارته من فمه وأنفه، يتذكرها ... صورتها صوتها حتى مخارج ألفاظها كأنها مس كهربائي يعصف بسكونه فينتفض ويرتعش، فتتسارع نبضات القلب العاشق وتهيم في دنيا أنوثتها، يحاول أن يصوغ مفردات عشق جديدة، فيكذب على قلبه ويلعب عقله الدور جيدًا، يستسلم قلبه ويكاد يصدق، نعم «فجيهان» سليلة الحسب والنسب، امتداد أسري يترفع أمام امتداد أسرته الريفية، هي السلم الوحيد الذي يصل به لما تصبو إليه نفسه، هي الطريق ولكن كيف يمهد للوصول إليه، بدا عقله يضع الخطط وقلبه لا يملك سوى الإصغاء والموافقة.

الخوف راكب رأس البشر، ما دام ركب الخوف رأس الإنسان، فسيتوقف عقله عن التفكير، تشعربأنه يسكن عيونهم الشك وعدم اليقين، يفسرون كل الأفعال وفق خيالهم وكأنهم داخل غابة مملوءة بالثعابين والعقارب وكل الحيوانات المفترسة ... الرعب مُعشِّش ... الهواء من حولنا ممزوج بالكذب والنفاق، غموض وأشياء غريبة، حقائق مشوهة، لقد صرنا أشباحًا تحمل

ذاكرة هرِمة، معالمنا شاحبة ذابلة، ما زلنا شبابًا!!!! هذا عندما نحسب الزمن بشكل معكوس، علينا أن نحدد بشكل جدي ما ينبغي عمله ونحن نقترب من الموت ... أقصد من التمتع بالحياة، نفتح أدراج ذاكرتنا القديمة ونقلب الأوراق التي اصفرلونها بتعاقب السنين، ونرصد ما كانت آمالنا، الأفضل حرق الكتب القديمة وخاصة ما تشيربه إلى أصولنا المتواضعة، لكن حرق الكتب جريمة لا تُغتفر، لنخرج ما أخرجناه من أدراجنا، نتصفحه بعناية وننتقي الأحسن وما يضفي علينا المكانة الرفيعة، وكل نفس مرهونة بما يداخلها ... آه أنا مجهول النسب بالنسبة للموتى من حولي ... في حوار دائر وكأنه سيناريو يقرأه يتكلم ويرد على نفسه:

- الناس كل يوم بتضحك وضحكتها بترن ويسمعها اللي في آخر البلد ... حاجة غير طبيعية!!

- لازم تعرف إن نوبات الجنون تصاحبها ضحكات المجنون ... والخوف ممكن يتربط بالضحك، قالوا شر البلية ما يضحك ومع الخوف يُفرز الأدرينالين ويحدث إما الفرار أو الجمود والصمت والانتظار ...

بشر ما زالت تأسرهم حكايات الجن والعفاريت لا حصن لهم ولا قوة وكثيرًا ما يذهب العقل عنهم.

تطوف على رأسه الحكايات، يحاول أن يبدد سُحب اليأس، فهنا في باريس منذ عشرات السنين كيف استقبل الناس في مقهى جراند كافيه المشهد السينمائي لصورة القطار القادم صوبهم من الشاشة، فالخوف صفة إنسانية مشتركة لبني البشر، منهم من يستسلم ومنهم الرافض، وعمومًا كل ما هو غريب قد يدخل الخوف وكثيرًا يدخل الدهشة والجمال، فالدجل والشعوذة تصنع كثيرًا دهشة تأسر مشاهدها.

كيف ترى النملةُ الفيل؟ كيف تصفه لصغارها؟

يضحك لنفسه وتتجلى لحظة إيمانية لفظية فحسب، فيحدِّث نفسه

عن عظمة الخالق سبحانه أن يُسمِعَ سيدنا سليمان عليه السلام حديث النملة، يا ترى كيف تقيس النملة وبأي معايير الموجودات حولها؟

تطوف بذاكرته ذكريات أمانيه في سنين عمره الأولى، كيف كان يبحث عن الخروج عن هذا المجتمع المزري الجاهل، يسمع حكايات المطاريد وما يخفونه من كنوز تعادل كنوز علي بابا، هل يستطيع الحصول على خبيئتهم أو جزء منها والهروب بها، سيبحثون عنه سيختفي ولن يعثروا عليه سيهرب لأقصى مكان، راودته الفكرة كثيرًا، مصمم أن لا يشارك أحدًا في أفكاره أو أحلامه، يشعر أن الجميع فكرهم قاصر ولن يتفاعلوا معه ومع أحلامه، ساعات وفي نفسه كان يصف أباه بأنه يعيش وهمًا مسيطرًا عليه كونه كبير هؤلاء التعساء، يحاول أن يصنع لنفسه صورة البطل، يصفه بأنه يبحث عن بطولة كاذبة، لا يصرح بذلك ولكنه مؤمن بكلماته، الشيخ رضوان من علمه كيف يخط ويكتب، هذا الأزهري ومن يصفونه بالورع والتقوى أيضًا كاذب كبير يضحك على الناس ويحيي آمالهم بالموت ومن بعده الجنة، لا يعيشون لا يفكرون في الحياة، المطاريد هم أكثر الناس حرية في تلك الدنيا، هكذا كانت تصور له أفكاره وهو في سن الشباب الأولى، لا سبيل أمامه سوى سرقة كنز المطاريد.

انقطع ساعتها حبل تفكيره، توقف، نظر حوله وكأنه يلتمس الهروب، شَعَرَ في أوصاله برعشة خوف، نظر ثانية وتأمل هل تتحرك قمة الجبل ناحيته؟ شيئًا داخله يدفعه ويحفزه على السطو على ما يخفيه الخارجون عن القانون، المطاريد يهبطون للبلد ويأخذون، هو يشك أن أبيه يقاسمهم، كم يتمنى أن يكون له نصيب، هو ما زال صغيرًا، غريزة غريبة تدفعه، الشك دائمًا يلعب برأسه وكثيرًا ما يتصور نفسه هو الأفضل من الجميع، أبوه دائمًا يحول بينه وبين أحداث البلد والجبل، يتمنى أن يبتعد عن كل ما يدور في جنبات هذا الوادي، يدفعه أن يهتم بالعلم ومستقبله من خلال التعليم، لينال المكانة المرموقة التي يحلم بها الرجل، لكنه يتمنى أن يغوص ويحظى

بمكسب تصوره أفكاره الصبيانية بأنه سهل وممكن، نظر ثانية لقمة الجبل وكأنها تناديه وتطلبه، كم كان يهوى الذهاب بمفرده، نعم هو فعل طائش لكن رأسه تركبها أمانٍ غريبة، داخله تصميم غريب أن يلج لمكنون تلك الشقوق الضخمة التي يسردون الحكايات عنها، هذه الليلة لا قمر فيها، سحب سوداء حالت بين النجوم وبعض الضياء المرسل منها، فهي تلقي بصيصًا من الضوء، تستطيع العين المجردة المضي في الليل وأن تستكشف الطريق جيدًا مستعينة بتلك الأضواء، أطلق لأفكاره العنان فقادته قدماه، كأنه مُسيَّر لا إراديًّا بفعل فاعل، مجذوب بقوة جذب غريبة، استرعى انتباهه المفقود رائحة قادمة من جوف المغارة، أصاخ السمع، استثار حواسه أن تنتفض وتلتقط ما يدور حوله، هواء رطب وظلام حالك ودقات قلبه يسمعها ولكن لا يتراجع، صوت من جوف الكهف لا تفسر كلماته أو همهماته، بعد أمتار قليلة للداخل ثمة أضواء برتقالية تبرق تتشابه وولادة شمس يوم جديد أو مغيبها، رائحة دخان، هل الثعابين الضخمة التي تعيش في جوف الكهف تنفث النيران؟ هل تتشابه وحكايات التنين؟ يدفعه أمل الاستحواذ على كنز المطاريد، ألم يفعل علي بابا ذلك بكنز الأربعين حرامي؟ لم يدر بنفسه، هجوم مباغت وضربة قوية فوق الرأس ودفعة اهتز لها جسده وأطاحت به أرضًا، وذهب في سبات، عرف منهم بعدها أنهم عثروا عليه في فجر اليوم التالي ورأسه فوقها أثار دماء جافة.

بحثوا عنه في المقابر وعلى ضفاف النيل وبين المزارع، طوال الليل ومشاعل في أيدي أغلب أهالي البلد تتحرك في مختلف الأنحاء، في أيامها كان أحمد الناظر في أوج قوته وعنفوانه، لم تتحرك زوجته من البيت فهي تدرك أيًّا كان السبب حتى لو كان ابنها فُقد لا يقبل خروجها، تسلل أحمد الناظر بمفرده حتى وصل لنقطة محددة، الجميع يعرفونها ولكن يهابون الاقتراب منها وخاصة في المساء، فلم يتوجه إليها أي إنسان، إلا فرد واحد كان في انتظاره فقد وجد طه سبع الليل ينتظره، يومها اخترقَا المقابر حتى وصلَا لنهايتها، طريق غير مطروق إلا للقليل جدًّا من أهالي البلد لا يُعدُّون على

أصابع اليد الواحدة، كل منهما يرفع الأمان عن بندقيته ومستعد لأي شيء، وفي جيب الصديري لكل منهما مسدسٌ محشوٌّ بالرصاص وجاهزٌ متحسبًا لأي حدث، اعترض طريقهما أحد الأشباح التي استطاعَا رصدها في الطريق وغضًّا النظر عنها، توقف أحمد الناظر أمام الشبح ومن الخلف أسرع طه الصامت واضعًا فوهة بندقيته في رقبة الشبح المعترض، في نفس اللحظة صدرت ضحكة عالية وصوت جهوري صائحًا:

«أنت اجنيت يا ولد ... فيه بني آدم يعترض الناظر وسبع الليل» أفسح الطريق لهما، مد يده ليصافحه فلم تمتد يد أحمد الناظر إليه، كرر أبو دراع أكثر من مرة جملته، بأن يده ممدودة ولكن الناظر لم يعره اهتمامًا، رفض مصافحته، كانت كلماته قليلة لكنها تعني معاني كثيرة، كلماته كانت عنيفة وعميقة فبدت وكأنها نيران ينفثها في وجه أبو دراع، يشع من عينيه بريق خاطف غاضب رغم ظلمة الليل، ويد تتحرك وقابضة بقوة على البندقية الآلية متوافقة في حركتها مع نبرات حديثه العنيف، أمر أن يعود ابنه فورًا، حاول أبو دراع أن يقسم بأنه لا يعرف طريقًا لابنه، أوقفه ووضع فوهة البندقية في فمه، أقسم إن لم يعد ابنه مع تباشير الصباح فلن تطأ قدم أبو دراع أو رجاله هذه المنطقة وستكون النهاية لهم جميعًا، دار على عقبيه عائدًا، أبو دراع يمضي خلفه، يقول إنهم أبلغوه أن هناك فتى لا يعرفونه، كان في نيته أن يسطو على ممتلكات خاصة بهم، كان ينوي سرقتهم فضربه أحدهم.

عاد الناظر وبصحبته طه إلى الساحة الخلفية للمسجد القديم، سمع «عبدالدايم» خادم المسجد ومقيم شعائر الصلاة صوتهما وعرفهما على الفور، فأسرع بعد أن جلسَا يعد لهما الشاي ومتسائلًا عما حدث، راح يعد ويجهز أدوات الشاي بيديه ملتمسًا طريقه بلمس الأدوات، يعلم موضع كل قطعة ومكانها رغم أنه كفيف البصر، صنع أكثر من مرة الشاي، دخلوا المسجد وصلوا الفجر ثلاثتهم فحسب، عادوا للساحة الخلفية في حجرة

عبدالدايم حتى تباشير الصباح، الوحيد الذي يتحدث الشيخ عبدالدايم أما كلاهما فصامت، ارتفعت الصيحات والتهليلات وذهب طه وتأكد مما يحدث، فقد عثروا على ابن الناظر في داخل شق الجبل الأصغر.

تأكد بعد فترة لأحمد الناظر صحة حديث أبو دراع، ففي حوارات سريعة مع ابنه البكر عن سبب ذهابه للشق الأصغر في الليل، تذرع الفتى بحجج واهية، معروف عن الفتى عزوفه عن مخالطة أقرانه وقليلًا ما يجالس الكبار وقليل في حديثه، وإن تحدث فحديثه مشحون بتذمر وضيق غريب من تلك الحياة التي يحيونها ومفرداتها، ويوم جاءته الفرصة للدراسة في القاهرة، قليلًا ما كان يعود لشق الجبل أيامًا معدودة ويفر عائدًا.

لم يكن قلبه يومًا بكرًا، كأنه ولد متمردًا فكان صراخه يوم مولده أكثر من الأطفال العاديين، يتذكر كلمات أبيه:

- يا ولدي افتح قلبك على كل ناس بلدك.

لا يشغل باله بكل ما يقوله الأب، فيسبح في أمانيه الخاصة المتعلقة بالمكانة والثروة والجاه، يفكر كثيرًا في القصر الصغير الملحق به البيت، كان يهرب ليجلس فيه أغلب اليوم، منعه أبوه أكثر من مرة بل عنَّفه، يجاهر بأمانيه بينما الأب يرفض بشدة أفكاره، من جديد يحاول أن يأخذ مفاتيح القصر المدفن الخاص بالباشا القديم، يتذرع بحجج كثيرة منها حاجته لاستكمال دراسته لمكان أكثر هدوءًا، يرفض الأب وبشدة ويقول بأنه أمانة في رقبته وإن كان ليغض الطرف عندما يعلم بأنه داخل القصر، نعم هو اشترى الأرض لكن لم يشتر المدفن القصر، شيد أبوه المنزل بجواره وتلك أمانة، لم تهدأ مطالبه فكثيرًا ما كانت تمتد يده للمفاتيح الخاصة بالقصر القديم الصغير فيفتح الأبواب، يبحثون عنه لا يجدونه إلا في نهاية اليوم نائمًا هناك، كان لا يبالي بكلمات أبيه وتهديداته المتعاقبة، لم يجد الرجل مفرًّا فخبأ المفاتيح في مكان بعيد عن متناول يده، يتذكر ساعة صفاء وجلوس مع أبيه والبهجة والفرح تطل من عيني الأب نظرًا لنجاح ابنه في

السنة النهائية بالجامعة، وكم كانت بهجته العظمى بعد أن تبوَّأ مكانته الجامعية، ترك الناظر له حرية أي فعل يتمنى أن يفعله، فلم يحجُر على فكر أو يقف في طريق سيسير ولده فيه، حتى القصر الذي طالما منعه من المبيت فيه ترك له حرية التصرف فيه، كانت أماني الرجل أن يعيش هنا أو قريبًا منه ويأتي ولو كل فترة ولكنه فشل في إقناعه، كم يتمنى أن يفعل أي شيء يرضيه فيسأله الرجل:

- ماذا تطلب؟ مستعد لكل طلباتك.

- قصر ... أبني قصر ... ملك لي فقط.

امتص الرجل يومها كلماته وحاول أن يجاريه في الحديث:

- الأرض أمام عينيك فاختر قطعة أرض وعليك بتشييدها وفق هواك ورؤيتك وما تحتاجه أنا كفيل به.

يومها طال الحوار، شعر الناظر بأن ولده لا يستطيع أن يعيش بأفكاره هنا، ولده يتمنى أن يبحر بعيدًا عن روث البهائم والحمير وأصحاب الفكر المتخلف كما يطلق عليهم، ولكن بصورة غير مباشرة فهو يخاف أن ينقلب عليه الأب.

نفض الرجل جلبابه وهو يخرج، نظر إليه وقال:

- قصور كتير بينعق فيها البوم مهجورة، أفضل قصر تشيده داخل قلوب الناس.

تنهد بقوة وأسى بالغ وهو يتركه ويمضي.

يدفع بكأس جديد من الخمر في جوفه، يحدث نفسه بأن ما يقوله أبوه أو ما قاله كلمات عفا عليها الزمان، يضحك بقوة متسائلًا.

أين قلوب البشر التي تتحمل جدران قصر جديد؟

كلمات يختلط فيها الهزل بالجد، نعشق الحكايات الخرافية والكلمات المنمقة الكاذبة المنافقة، على كل إنسان أن يبحث عن نفسه وعن حياته، من يبغي الحياة حقيقة عليه أن ينقض كما النسر على فريسته، تلك هي الدنيا لا مكان فيها للضعفاء وعشاق كلمات الكسالى، من ينتظرون من يجود عليهم، وكأنه يسأل ويجيب نفسه، أغلب من هاموا بالثقافة والكتابة والأدب حقيقة هناك من مات منهم وهو مدين، ومن ظل على قيد الحياة يستجدي ليعيش، ملعونون أرباب الكلمة ومدعو الثقافة والفكر، نعم هناك قلة منهم تعيش في عز وحياة رغدة، أغلبهم يبيعون أقلامهم ويتعبدون في محراب رجال السلطة الأقوياء، ينثرون كلماتهم بالمديح في مواكبهم أو في الحديث عنهم، حالهم حال الشعراء قديمًا، مهنة كاذبة ملعونة، يجدد كأس خمره من جديد ويشرب، يلقي بجسده فوق مخدعه.

آه يا أوجاع حياتي، عليَّ أن أواصل الرحيل، غربتي قدر أم محاولة هروب من واقع مر؟ كنت أموت شوقًا متلهفًا الحصول على درجتي العلمية لأشعر بدفء الحياة، الغريب أنني ما زلت أشعر بالبرودة وبأنني قزم لا تصل قامته لقامة من حوله، حصلت على أكبر الدرجات العلمية وللأسف دكتور فقير في كل شيء، اخترعت طرقًا عديدة لأزيح عن نفسي الملل الذي غمرني وأغرقني، هل ولدت ملفوفًا بالأحزان؟ أمي ... جدتي ... كل نساء شق الجبل منذ أن تفتحت عيناي على الدنيا وأنا أشاهدهم في ملابسهم السوداء المحزونة بلا حزن، خيام سوداء متحركة، حتى في ساعات سعادتهن ينثرن فيها مرثيات بصوت رنته حزينة كئيبة حارقة، كأنهن يطفئن نار قلوبهن بالولولة والصراخ، أتامل النساء في باريس أو أي دولة أوروبية أو حتى في الأحياء الراقية في القاهرة أو أي مدينة كبيرة من مدن مصر كلهن غير نساء شق الجبل، تشبعت أعماقي بالحزن الذي يطل من أغلب العيون، منذ نعومة أظافري قاتلت كي أهرب من هذا السواد المقيم، عبرت النهر للمدينة تلميذًا نجيبًا يشيدون به، ويواصل أبي والشيخ رضوان الإشادة بي في أي تجمع يجمعهم، وكبرت وكبرت أمانيَّ ولكن السواد يركب قلبي، لم تُرضِ الحياة في المدينة

الصغيرة طموحاتي، هربت منها لأم الدنيا القاهرة، تهت في الزحام ودفنت في ركام البسطاء وساكني العشوائيات، ومع كل هذا لم يفتر حلمي أو عزيمتي، في البداية كدت استسلم لكنني قاومت، أحسست للحظة أنني مجرد طائر تافه تائه في خضم أسراب متلاحقة من غربان ونسور، أعرف بأنني لست محاربًا صلبًا ولكنني ساعٍ أن أركب رأس الناس، فأنا الأفضل دائمًا، أشعر بأنني المفكر الوحيد، من يستشف الغد ويدرك أبعاده، جديرٌ بِي مكانةٌ تفوق كل هؤلاء الأغبياء من حولي حتى من حصلوا على درجة الدكتوراه، الخوف يتملكني كثيرًا ولكنني لا أجهر به، كفأر أبحث عن مخبأ خوفًا من شراسة قطط الشوارع المفترسة، تخيلت أن القط نمر مفترس، عندما حل الظلام أخرج وأتجول دون هدف واضح محدد، طفت متأملًا أحقر الأماكن شكلًا ومضمونًا، سحبتني قدماي واخترقت حدود عشوائيات التعساء، رأيت أماكن جديدة، رأيت القصور والحدائق الملحقة بها، تأملت من يسكنوها وتتأكد أفكاري أنا الأفضل، هل هم بشر من طينة أخرى يتآلفون ويعيشون في بقعة بعيدة عن الغوغاء والدهماء، أموال وثروات ملك أيديهم، أشعر بأنني الأفضل أيضًا، لا أتنازل عما يشغل بالي، أشعر بالحسرة أكثر عندما أرى علامات الرضا التي تكسو وجوه الفقراء والمشردين، ضحكاتهم وهم يتقاسمون طعامهم أسفل الكباري أو في المناطق غير المأهولة، ألعنهم وألعن عدم جهرهم بفقرهم، ألعنهم وألعن حياتهم وأتمنى أن تحل بهم كارثة تأخذهم ولا يتبقى منهم أحد، أكرههم لا أتعاطف معهم، لو امتلكت لن أفكر يومًا في مساعدتهم إنهم يستحقون القتل، إنهم يضحكون أكثر من الأثرياء، ألعنهم من جديد، لماذا يضحكون؟ وسط هذا الكم من الفقر والقهر وحياة الهوان التي يعيشونها يتبادلون أنخاب السعادة في كئوس قذرة ويلهون ويمرحون، ملعونون، أُقصي هؤلاء البشر من مخيلتي في عصبية، هارب من مشاهد حياة هي للموت أقرب، هنا وفي تلك المدينة الكبيرة التي لا تحدُّها حدود تطالعني نفس الوجوه، البؤس مرسوم كوشم لا يُمحى فوق وجوههم، المصيبة يضحكون!!! كيف يأتيهم الضحك؟ كيف تنفرج شفاههم؟ تزيد

لعناتي لأتاكد أن هناك كثيرين يستحقون القتل والموت السريع في تلك الدنيا، جميعهم يلوذون بكلمة الصبر.

الصبر ... كم أتمنى للصبر أن ينتحر ...

أتمنى لو كان الأمر بيدي لأمرت بحذفها من قواميس اللغة ...

كنت مصممًا على الصعود بكل الطرق المتاحة وغير المتاحة فوق تلك المشاهد التي أراها، أن أرتقي ولو فوق جثث هؤلاء المستسلمين الجبناء، كل يوم تتسع دائرة أمانيَّ وخاصة عندما أعقد مقارنة بيني وبين من حولي، أتحين لحظة معينة، الصبر بالنسبة لي انتظار لفرصة تسنح لي، كما النسر سأنقض على الفريسة ولن أنتظر، أشعر كثيرًا أن أفكار نيتشه تخترقني، أنا الأفضل والأذكى والأقوى، زهو يتملكني، أشعر بقلة حيلتي فأنا لا أملك، آه لو أملك المال، أحارب اليأس ولا أتركه يتغلغل في عقلي، سأهرب من جاذبية هذا المجتمع المتخلف، سأكسر الأغلال والقيود، ساعتها سينتهي عصر الكآبة، سيغرد العصفور المحبوس حرًّا طليقًا، تنبسط أسارير الدنيا أمام عيني فأضحك لها وتفتح ذراعيها، لأندفع عليها أن تقترب مني أكثر، سأصعد للقمة، لن أرضى بحياة الهامش، كل من حولي أشعر بأنهم أرقام مهملة في ذاكرة الدنيا لن أكون مثلهم.

يطوي حبل حلمه حول ذراعيه حتى لا يتوه منه في زحام الحياة وضجيجها، يحلم بثياب حريرية مطرزة بخيوط الذهب، خدم وحشم وحياة كأمراء الأساطير يخط مسيرتها بأنامله فوق الأوراق البيضاء، لا يستطيع قراءتها سواه ولا يعرف مضامينها السرية غيره لو وقعت في يد من يتصفحها، يضحك ويتجرع كئوس الخمر ولا يرتوي.

خطوط تتشابك، في تلويها تعكس ألم العزلة وغصة الحلق، شعور بألم وضيق صدر، لا رفيق يشاركه درب أفكاره، وحيد في رؤيته، يستطلع المكان حوله، قذارة في كل أرجاء الحجرة، يمزق كل الأوراق التي خطها ويلقيها بلا

اهتمام في أي ركن، فكل أرضية الحجرة عبارة عن أعقاب سجائر منطفئة، ينظر حوله في أسى، عليه أن يكسر معالم تلك الحالة المملة التي تسيطر عليه، إلى من يلجأ؟ هو غير مقتنع بكل من يعرفهم، يصفهم بأصحاب آفاق ضحلة ورؤية لا تجتاز حيز الحجرة التي يجلسون فيها، صخب عالٍ في رأسه، يلقي في جوفه بعض الحبوب ربما تخرجه من الصداع، يلقي بجسده متمددًا فوق سريره.

يأتيه صوت الهاتف، يتحرك في صعوبة، مجرد أن يسمع صوتها تنفرج أساريره، ينسى ما يحدق برأسه من ألم، يوافق على ما تقول، إنها طريقه وسلمه للصعود للقمة، تدور حساباته في فلك محدد بطموحاته، عليه أن يلعب بعواطفها وقد استطاع في الفترات السابقة كلما تواجدَا بمفرديهما أن يبث في أذنيها كلمات هواه، عازم على استكمال المسيرة، فها هي قد استطاعت أخيرًا الحصول على درجة الليسانس بتقدير عالٍ يتيح لها استكمال المسيرة في الجامعة ودراساتها العليا، هو من كان السبب فيما وصلت إليه، سيقف معها للنهاية، عليها أن تعرف بأنه صاحب الفضل الأول عليها، سيجاهر ويتحدث إليها بلواعج قلبه، عازم أن يصيغ كلماته بأرق ما في الدنيا من مشاعر، يستطيع بها وبمعارف أهلها أن يبسط ويتوسع في دائرة علاقاته بطرق متعددة، أن يتكسب الكثير، ستُفتح له الأبواب قبل أن يطرقها، يطوف في جنبات القصر الذي تعيش فيه في تلك المدينة الجديدة، مدينة حديثة، جمالها يخطف الأبصار، بنايات ليست بالمرتفعة ولا بالمنخفضة بين بين، قصور وفيلات وعمارات، طرق متسعة بما فيه الكفاية أن تمرق السيارات بكل سهولة ويسر، خضرة على امتداد البصر، زهور مختلفة على طول جانبي الطريق، ميادين مزدانة بنافورات المياه والتماثيل المرمرية والرخامية تحيط بها، تناسق بديع بأشكال هندسية متباينة لكنها في تماثل وتوافق شكلي ولوني رائع، هل المكان يعكس عشق المقيمين فيه بالفن؟ أم محدثي النعمة والثراء الذين تسلقوا ووصلوا إلى أكثر مما يبغون؟ لا يهم أيًّا كانوا لا يقلل من الجمال المغدق على المدينة، حتى المتاجر متسعة ذات

أدوار متعددة وسلالم متحركة، لا يخلو المتجر من كل ما تشتهي وما تتمناه النفس، كل ما يفكر فيه الإنسان يجده بين يديه وفي متناوله، حتى دور السينما وقاعات تزحلج للكبار والصغار متنوعة ذات قبقاب ومنها جليدية يستخدم فيها الحذاء ذو القاعدة الصلبة، حتى شرفات المنازل والنوافذ تتألق بزهورها ورياحينها الفواحة.

لا ينسى أن الخادمة قادته في إحدى زياراته إلى حافة حمام السباحة، جلس تحت المظلة يتأملها وهي تطفو وتغطس وهو يفرك عينيه متأملًا أكثر، تأكد بأنها تعشقه وتوليه عناية خاصة، وإلا ما اقتادته الخادمة إلى هنا، تحييه بإشارات من يدها، وتغطس فيتأمل المؤخرة التي تطفو باللباس الأحمر المتوهج الصغير، تلتهب أحاسيسه وتعربد أمانيه، تقترب من الحافة وقريبًا من جلسته، يتقدم يركع على ركبتيه وهو يتأملها والماء يغرق وجهها وشعرها، تدفع شعرها الملتصق بوجهها للخلف، بللورات الماء اللؤلؤية تتناثر فوق وجهها، تهتز صورة أجزاء جسدها تحت الماء، كم تمني لحظتها أن تدعوه ليسبح معها، بالطبع لن يوافق ففي حالة الموافقة يمكن أن يفتضح أمره، هو يعوم بطريقة أولاد قرية شق الجبل، هي تعوم كالفراشة بلا صوت، جسدها ينساب بتلقائية رائعة، هو سيضرب بقدميه بطريقة قد تثير ضحكها، كم كان يُمني نفسه أن يتلقفها في الماء بين ذراعيه، تنتشي أمانيه وأحلامه، يطالب نفسه بالتريث وعدم التسرع في فعل قد يندم عليه، الأيام قادمة ويشعر بأن عصفوره قارب على دخول حديقته بمحض إرادته، ذكريات وآمال وخواطر تتوارد رغم الحديث الدائر في الهاتف، حوار طال في كلمات كأنه بها يحاول قطع الوقت الممل الذي يلفه، ضربت له موعدًا فوافق على الفور.

بدا غير مكترث بكل ما يراه حوله من جمال، استقبلته الخادمة غير المصرية بلهجتها العربية المتعثرة، تقدم خلفها وهو منفوخ كديك رومي، فتحت له باب حجرة الاستقبال وانحنت له وهو يدخل، أشعل سيجارته،

تنهد في صمت وركب ساقًا فوق أخرى، تقدمت الخادمة بالقهوة المضبوطة كما اعتادها، شكرها وهو يسبح في غمام سيجارته المتصاعد، مع الرشفة الأولى تأتيه صورة أبيه، يحاول دائمًا التهرب من مجرد رؤية صورته، في نظره ليس إلا رجلًا ذا سطوة وجبروت لا يستطيع أحد أن يقاومه، تطرق كلماته رأسه:

«كل حلم يستطيع الإنسان تحقيقه إذا كان صاحب عزيمة».

ينصب محكمة لأبيه ... هل حقق أبي شيئًا؟ إنه يدعي أنه صاحب مبادئ، غالبًا لا تفوته صلاة الجماعة، يغلف أعماله بالحق والخير، أي مبادئ تلك يا أبي؟ هو صاحب اليد الممتدة لأبناء الليل من مطاريد الجبل ...

ضحكة ممطوطة جميلة آتية من الداخل تخرجه من حيز فكره، تتقدم وابتسامتها فوق شفتيها ... انتصب واقفًا، تمنى أن ينحني ويلثم يدها، لا إراديًّا حاول أن يستبقي يدها في كفه فسحبتها وهي تبتسم، جلست على المقعد المجاور له، عندما يراها تستعر نيران الشهوة في جسده، يحب الاستماع إليها وهي تتحدث وكأنها سيمفونية تعزف، فصوتها يشبهه بصوت الملائكة، فيه دفء وعبق حياة، تبتسم وهو ينظر إليها وتسأله:

- هل تراني لأول مرة؟

ينتصب واقفًا، يتحرك وأمام مرآة ضخمة ملتصقة بالجدار يتوقف ويشعل سيجارة، تزداد ابتسامتها مع دهشتها كرد فعل مباشر، يطلب منها أن تأتي وتقف بجواره، تتعجب أكثر ولا تسأل، تتقدم بخطوات وئيدة، لا ينظر لوجهها مباشرة، يتأمل منظرها في المرآة، يدفع بيده شعرها المتناثر حول وجهها البلوري ويعود للنظر في المرآة ... بدلال تسأل:

- ماذا تريد؟

- دعيني أتأمل في تريث وهدوء.

- ماذا؟ أنا معك ... ضاحكة ... وجهًا لوجه أفضل.

- أُفضِّل أن أواجهك في المرآة ... أن يقابل ويباشر الإنسان أشعة الشمس نوع من الجنون، هي من تهب الحياة والنور ... كم أنت رائعة وجميلة وهادئة في الصورة المنعكسة، أما الحقيقة فأروع وأجمل وأنقى.

- دكتور ... حرام عليك.

تهم بالابتعاد يجذبها لحيز الانعكاس قريبًا منه.

- في المرآة أرى ملامح وجهك ووجهي متقابلين، أعقد مقارنة وأعلم أن نتائجها في غير صالحي، قربت أن تطل التجاعيد فوق وجهي وتناثرت بعض الشعيرات بلونها الأبيض في رأسي، أما جبهتك فمصقولة وناعمة ... عيناي قاربتَا أن تغورَا وعيناك نابضتان بالشباب والحيوية ... حتى الابتسامة أحاول أن أخفيها فقد تفصح عن أسناني، أما أسنانك ففي ابتسامتك تتناثر حبات اللؤلؤ فتنير الدنيا حولك.

- ولماذا المقارنة؟ يضحك وهو يقول:

- حتى لا أظلمك ... عمومًا أنا تجاوزت مرحلة المراهقة وأكاد أقترب من الأربعين.

كلماتها دليل إعجاب كما تقول فهو رمز للشباب، تصف عمق عينيه وما تجود به كلماته من عشق وهوى، ملامحه المصرية الرائعة التي تلهب المشاعر والأحاسيس ... يستمع ويذوب ولهًا وتيهًا بكلماتها، فكم يتمنى أن يمتص تلك الشفاه الوردية الرائعة.

مقارناته لا تنتهي، هو القادم من قرية شق الجبل بكل تخلفها وبعدها عن عالم المدنية تُعجب به حورية السماء وتناجيه ... يتذكر حكايات عروس النيل التي تظهر مرة واحدة في العام ومن السعيد الذي يراها، هو يكره تلك الأقاصيص والأساطير، لكنها تأتيه قسرًا عنه، ينفضها عن رأسه ويتأمل

معشوقته الفاتنة، يقول:

- هل أظل في انتظار غودو؟

لا تفهم ما يرمي إليه فيعيد العبارة، ولا مزيد من التعليق عليها، تبتسم وكأنها أدركت ما يرمي إليه ولكنها لم تعرف المرمى والمراد ... تروح ذاكرته لأيام شبابه الأولى ... كيف كان يظل طول الليل ساهرًا شاخصًا ببصره للجانب الآخر من النيل، يراقب أعمدة الإنارة وحركة أضواء السيارات حتى الساعات الأولى للصباح، يترقب وينتظر ما تسفر عنه أمانيه وأحلامه، تتوارد الخواطر وتسقط الأنوار ووميض ضوء وحلم يتحقق، فعبر للشاطئ الثاني، ركب القطار وسافر لأبعد مما تخيل، لم يبحر في النيل فحسب سافر عبر البحار والمحيطات، في المياه أو في الجو. يحاول أن يتقرب منها أكثر، تتعقب عيناه مشيتها، لا تترك جزءًا من جسدها إلا ونظرات الشهوة تعريه وتفضحه، في كلماتها دلال وهوى لكن في حذر، إن أمسك يدها سحبتها وابتسامة مرسومة فوق شفتيها بلا تعنيف، تتمنع، تقترب مرة وتبتعد أخرى، تضحك وهي تخبره بأنها كادت أن تنسى سبب الدعوة، لقد أنهت دراستها في الجامعة ولكن لن تنقطع علاقتها به، أمها ستقيم حفلة هنا في القصر أو ربما في أحد الفنادق العائمة، وعليها أن تأخذ رأيه فيمن تدعوهم، استطاعت أن تحصل منه على اختبارات نهاية العام في أكثر من مادة، كل ما حصل عليه مجرد طبع قبلة فوق وجنته، حاول أن يحتضنها، كأنها تشير عليه بأن هذا سلوك متهور لا يتناسب وقيمته، كثيرًا ما تقول إن الموعد لم يحن بعد، وتعشمه في غد قادم، تدفع له الثمن مظروفًا منتفخًا بالأوراق المالية يحاول أن يتمنع ولكنها تصر عليه فيقبل، الموضوع الأساسي الذي أرسلت بسببه في طلبه هو موضوع التمهيدي لرسالة الماجستير وما يقترحه عليها، طال الحديث وأفصح لها عن أكثر من موضوع وعليها أن تختار ولا تعول همًّا، يدور الحديث لناحية أخرى، يصمت أمام حديثها الذي تتعمد أن تقصه أمامه، تحكي عن بضعة ملايين من الدولارات التي دفعتها أمها في

سبيل الحصول على المنتجع الخاص بها في شرم الشيخ، يمتص ويستحلب كلماتها ويدرك اللغة التي تتحدث بها والمراد من خلف كلماتها، يجاريها في حديث، يوافقها في كل آرائها وما تقترحه، هل يعرض عليها الزواج؟ لا فهذا خطأ، بصورة غير مباشرة يسألها عن مواصفات من تفكر في الارتباط به، يظل الباب مواربًا فلا تفصح علانية عمَّن تتمناه، سيجاري فكرها وسيحاول من جديد في ظل المتغيرات القادمة، ففي دراستها العليا ستحتاج إليه أكثر، نعم سيقبض الثمن مضاعفًا، ولن يستسلم.

تم التجهيز للحفلة في حديقة القصر، الموسيقى تنساب وتتنوع وفقًا لهوى المدعويين، يتأمل الضيوف، كثيرون منهم تحتل صورهم الصحف والمجلات، تهاني تستقبلها جيهان بمناسبة نجاحها وتهاني للأم بكتابها القادم «مذكرات راقصة» الذي تم الإعلان عنه في مختلف المجلات الثقافية، حتى أن شعراء وكتاب كبار تباروا في الإشادة به وبصاحبته وأياديها البيضاء في مجال الثقافة!!!! الكل يلهث وراء الراقصة، يلقي أذنيه، فيض من الأحاديث تشيد بالراقصة وأسرتها، مراسلون من مختلف المجلات والصحف وصور في أوضاع مختلفة للراقصة وابنتها، يسأل نفسه:

«أليست الأم مطلقة، سيدة وحيدة، ستكون فكرة رائعة أن يتزوجها هو، يعاتب نفسه ويصفها بالجنون، أليست هي الأصل؟ لكن كل العيون تتعقبها، يكفيك الفتاة الآن».

أفكار مجنونة تعبث بفؤاده، يفيق من تأملاته على صوت معالي الوزير المعروف وهو يطالب الجميع بالصمت، ويسحب الراقصة من أصابع يدها ليتوسط القاعة قائلًا:

«أروع ليالي الأنس لا تكتمل إلا مع الفاتنة الرائعة في وصلة جميلة تهز قلوبنا قبل أن تسحب عيوننا».

تضحك وتحاول أن تمتنع، الجميع يدعونها ويصفقون، تنحني ملبية

طلب محبيها، يسبح ويأخذه تيار الذكريات لقرية شق الجبل، تكاد تتوقف يده وتتجمد وبها الكأس، الأم الراقصة تتلوى وتنثني وتبدع على النغمات، واكبت انفعالاته حركتها، تناثر شعرها في هوس وعربدة وتألقت ابتسامتها وفاضت على كل الضيوف، تاه وراح في دنيا ثانية، لم يدر بنفسه فقد كانت الدعوات لعقد مقارنة بين الراقصة الأم والابنة، هرج ومرج وصفير ودعوات فرقصت جيهان لتتم المقارنة، اقتربت جيهان الراقصة منه، غمزت له بعينيها فأشعلت نيران قلبه، رشف الكأس تلو الكأس، لم يصدق عينيه، فاقت الابنة الأم وأشاد الجميع بها، يتساءل ... راقصة رائعة ... ما أجملها!!! يطالب نفسه بالتمتع باللحظة ... تمتع وانظر ... هذان الفخذان، تلك السيقان الغضة البيضاء، هذه العجيزة المكورة الصغيرة التي تهرول مرة في اتجاه الشرق وثانية ناحية الغرب، وللشمال والجنوب نصيب، هذا النهد الناهد كسيف عنترة العبسي في غزوة من غزواته، تأمل الرءوس المتمايلة ... إنه جُرم كبير أن تفكر في الحصول على درجة الدكتوراه ... لا ... هذا ظلم للإنسانية وحرمان للبشر من المتعة، هل تستطيع أنت في قاعة درسك في الجامعة أن تبهر مريديك وتلاميذك، إنها أدارت الرءوس والعيون والعقول، هي من تستحق الدكتوراه لا أنت ...

اقتربت أكثر، كعادته جردها من ملابسها في نظرة شهوانية معربدة، اهتز في كرسيه وضحك بشدة، لم يهتم بكل من حوله وقف أمامها مشجعًا وصائحًا ومعربًا عن إعجابه، لعبت الخمر برأسه، انتهت الوصلة الراقصة، أشار إليها بحاجته إليها، كانت عازمة على الدخول، أرادت أن تغير ملابسها التي نالها شيء من العرق، وصل خلفها حتى حجرة نومها، أرادت منعه، دفعها للداخل، وصفته بالجنون فلم يهتم، هددته بأنها ستصرخ لم يهتم، أخذها بين ذراعيه عنوة وهي تقاوم بشدة، صرخت صرخات مكتومة وهو يلثم كل قطعة من جسدها يستطيع أن يصل إليها، تعري أغلب جسدها، تمزقت ملابسها، انفرج الباب، صرخت الأم، راحت تضربه بجنون، توقف وهو يلهث ويمسح آثار لعاب متلون وممزوج باحمر شفاه، انتصب صامتًا

كتمثال حجري، تواصل الأم ضربها، الفتاة تغطي ثدييها بيديها، تفتح الباب الأم وبلهجة آمرة تطالبه بالخروج وإلا سيكون نصيبه قسم الشرطة والسجن، وكأنه لا يدرك مدى الجرم الذي ارتكبه ينظر لجيهان ويطأطئ رأسه ويخرج ذليلًا.

-٣-

ذكريات جافـة

في المواسم المعتادة، كنصف رجب أو عيد رمضان أو عيد الأضحى، يحضرون لزيارة موتاهم، قادمون من الجانب الآخر للنيل محملين بالخيرات، كانت تباشير قدومهم تعني أفراح في شق الجبل وينتظرها الجميع كبيرًا وصغيرًا، يسارع أهالي شق الجبل بالمساعدة لهم، ينتظرون المراكب الشراعية التي تقوم بالنقل، ينصبون السقالات الخشبية التي يهبط عليها الزائرون من فوق ظهر المركب للشاطئ، يساعدون في العديد من المشاركات يمكن أن تكون حمل عجوز فوق الأكتاف، على الشاطئ تنتظر حمير للكراء لنقل بعض البشر أو المعدات الخاصة بالزوار، فالطريق غير مُعبَّد وكله رملي تغوص فيه الأقدام ويوم يفكر أحدهم بخلع الحذاء والمشي حافيًا، حجارة صغيرة تدمي الأقدام الحافية فالأفضل اكتراء الحمير، وأقدام فلاحي الجانب الآخر من النيل لم تعتد المشي في تلك الدروب والطرقات، أما أهالي البندر فحالهم أكثر صعوبة، فقد اعتادوا الطرق المرصوفة فتنغرز أقدامهم في الرمال وصعوبة في نقل القدم، كان ركوب الحمير بالنسبة لهم يمثل حالة من السعادة والمرح، فلا يستطيع الكثير منهم الثبات فوق ظهر الحمار، أطفال صغار يسوقون غالبًا الحمير منهم من يصل لسن المراهقة، يغمرهم أمل في مساعدة فتاة على ركوب أو القفز فوق ظهر الحمار، كثير منهم يتمتع بلؤم عالٍ فيحاول أن يشك الحمار بدبوس صغير فيرفس ويضرب بقدميه وقد يكون نصيب الراكبة الوقوع على الأرض، لكنه غالبًا منتظر ومستعد لتلقفها بين ذراعيه ليضغط بأنامله على عضو أو أكثر من جسدها، بعضهم يستشعر لؤم الفتى والبعض يأخذه الحدث فلا يشغل فكره بذلك، سعادة مراهقة قد يدفع لها ثمنًا فيكون نصيبه علقة ساخنة، أما المواسم الأخرى

فتتمثل في جنازة لميت قادمون ليواروه التراب، بمجرد أن تطأ أقدامهم الشط يسارع تلاميذ الشيخ رضوان ناحية المدافن، يرصدون الاتجاه ويهرولون للمدفن الذي سبقه أهل الميت لتجهيزه لتلقي الأمانة، كما لا يخلو بيت من فأس وقدوم أو كوريك وعتلة، مقاطف متعددة الأشكال منها ما هو مصنوع من سعف النخيل أو الليف، ومنه المصنوع من الجلد الخشن من بقايا إطارات السيارات القديمة، حبال أيضًا تختلف أشكالها وأغلب الرجال وقليل من الحريم يجيدون فتل وجدل ليف النخيل وصناعته ...

ينقسم الشباب إلى مجموعات، فنادرله جماعة يعمل لها ألف حساب، فهو قائم بكل أعباء الناظر في البلد، لا يتردد في فعل أي شيء يطرق رأسه، اليوم من الأيام النحسة في حياة البلد ومن أسبوع مضى لا خير قادم، فلا قادمين بميت ولا موسم يسبب انفراجة في الرزق، أغلب الناس يقعون تحت دائرة العوز والحاجة، لا يخرج طعام أغلبهم عن الخبز الجاف والغموس من محفوظات الألبان من لبن رايب أو المش أو الجبن بمختلف أنواعها، وأحيانًا الكِشك مع بعض الخضروات التي تنتشر بين الزراعات المختلفة، يرتبط أكل اللحوم بالمواسم والأعياد وساعتها تهل البشاير، الغريب أن في هذه الأيام يكثر المصلون في المساجد وتتتابع السهرات وجلسات المساء، حتى النساء يقضين وقتهن غالبًا في سهرات لا تخلو من النميمة كما هو معتاد، السيدة الوحيدة التي تخرج عن منظومة النساء هي الجدة وهيبة.

الجدة وهيبة، هي الأخت البكر غير الشقيقة لوالد الناظر، تعتبر أن الناظر ابنها وهو يعطيها نفس المكانة، كثيرًا ما كان يُسرُّ إليها بخلجات قلبه، كانت تقويه وتشد أزره وتنفث فيه النخوة والجسارة، كان يأخذ برأيها في مشاكل فتستمع إليه وتنصح وغالبًا نصائحها تساعده، كانت تاريخ البلد الحي، دائمًا يقولون عنها أو ينقلون أحاديث كثيرة كانت، فمن غرائب الحكايات المتداولة عنها، أن عينيها يتغير لونها ما بين الليل والنهار، كأنها في الليل ترسل إشعاعات مثل عيون القطط، أما في النهار فإنها في زرقة مياه البحر،

يتساءلون:

لماذا لم تتزوج؟

رغم حكاياتهم المتداولة عن جمالها وفتنتها، يتناقلون حكايات الجن الذي عشقها وحرمها من الزواج، فيوم كانت في شبابها، كثيرون تقدموا لخطبتها، يومها وفي زمانها لا تجاهر المرأة برأي فالرأي رأي أبيها وأهلها، وكل مَن تقدموا طالبين يدها غالبًا ما يكونون من أسر ذات شأن، تكون الموافقة شفهية، لا تكون الموافقة شبه منتهية إلا عندما يحضر العريس وأهله، يجب أن يرى العريس العروس، بعدها تبدأ مراسم وموافقات الزواج، لا تملك في البداية سوى إعلان موافقتها المبدئية ورضوخها لطلبات الأهل، ويوم يأتي العريس وأهله فيطالبونها بالخروج للمقابلة وكما نص الشرع، يفاجأ أهلها بأنها شبه حامل ببطنها المنتفخة بصورة غريبة، من يراها يتأكد بصورة يقينية أنها حامل وتعدى حملها الشهور الستة، ينظرون إليها، تبادلهم النظر وليس بيدها شيء، لا يتكلمون ولا يدرون ماذا يقصون للقادمين، كيف يعتذرون؟ تعددت هذه المواقف وفي النهاية استسلموا للموقف، نظراتهم إليها لا تحمل أدنى عتاب، كبيرًا وصغيرًا يقدرونها وينزلونها مكانة خاصة، تقترب صفاتها من صفات الرجولة، في شهامتها ونجدتها للملهوف وإسراعها تلبية لحاجة أي قريب أو مجرد شخص من أهل البلد، حجرتها تتسرب منها روائح ذكية غالبًا من البخور الغريب الفياض في رائحته، هذا في أيام معينة من الشهر، يوم أبعدوها عن تلك الحجرة لم يغمض لها جفن ولم يطرق النوم عينيها، يتبدل حالُها وتغور عيناها ويثقل لسانها في الحديث، تتعثر في الكلام ولا يُفهم منها شيءٌ، يصيبها المرضُ وتكاد تتوقف عن الحركة، منذ زمن طال طلبوا أيًّا من أخواتها أن تنام معها وتشاركها الحجرة، تخوفن وابتعدن، تمارس حياتها بطبيعية مطلقة وتشارك في كل الأعمال، رغم كل ما يحدث الجميعُ يتخوف جرح مشاعرها بكلمة أو بهمسة، حتى مجرد النظرة إليها وهي لا تقيم لما يحدث وزنًا، لم يرصد إنسان كان منها خطأً أو فعلًا غيرَ

مقبول، حياتها رهنٌ بكل ما يحبه الناظر، تدعوله ولأولاده الليل والنهار، رغم خطواتها المترنحة لكنها لا تعشق الاستكانة، ففي خطواتها القصيرة تستعين بعصاها فتبدو واثقة في خطاها، سبحتها ذات التسع وتسعين حبة، تدور حباتها بين أناملها طوال ساعات جلوسها، وما أن تنتهي من تسابيحها تبقيها في حجرها أو ربما تضعها في رقبتها كعقد، لا تفارق يدها المسبحة، عندما تمشي وهي محدودبة الظهر في يدها اليمنى عكازها واليسرى تتدلى منها المسبحة، لا تخلد إلى النوم إلا قليلًا، تعشق أن تكون محاطة بأبناء الإخوة والأحفاد، ابتسامتها كانت لا تفارق محياها، انتقلت إلى رحمة الله وهي تُقارب الثمانين عامًا، وما زالت الحكايات تتناقل عنها وعن جمالها الذي كان مضرب الأمثال، ذاكرتها لم يصبها العطب، تستطيع أن تتذكر أشياء مرت عليها عشرات الأعوام، عندما تجلس أمام البيت الكبير، حتى الكلاب تقترب منها وتتمسح بأقدامها، تبعدهم في رفق فغالبًا تكون على وضوء، أكثر حالات وضوئها تيممًا، يحضرون لها قطعة كبيرة من الطين الجاف وتتيمم عليها، مع خروجها للباب الخارجي تستقدم غالبًا معها طعامًا للكلاب من بواقي الخبز، أو بعضًا من بقايا الأطعمة الذي تتقبله الكلاب بسرور بادٍ في حركة ذيولها، كانت تذوب في القص وهي تتحاكى وتقص عن الماضي، عن أبيها وجدها، عن معرفتها بالخيول العربية الأصيلة التي كانوا يمتلكونها، كيف قادت الفرس يوم مولد سيدي القرشي وهي ترتدي ملابس الرجال، كيف كانت تطلق الأعيرة النارية وهي فوق ظهر الفرس، يسألونها ... لماذا لم تشارك في التحطيب؟

تغرق عيناها الغائرة في دموع ولكن وجهها ضاحك وبلا تردد.

كانت أمنية لها أن تشارك في التحطيب ولكن جدها منعها.

كشجرة جميز تضرب في الأرض بجذورها، تصف علاجًا لأمراض من نباتات الأرض، تتحدث عن الأشجار المباركة، فأوراق شجرة الزيتون تشفي كثيرًا من الأمراض، وشجرة الجميز عند قطع ورقة من أوراقها فإنها تبكي وتخرج

ما يسمونه اللبن الشافي، منه شفاء للعديد من الأمراض وخاصة الجلدية.

لا تلبس إلا السواد، أغلب الرجال والنساء الكبار يدعونها بلقب العمة أو الخالة، أما الشباب والأطفال فيطلقون عليها الجدة، إن تحركت فخطوات معدودات بمساعدة عصاها التي لا تفارقها، لا تستطيع أن تشد عودها فتقيمه ولكن يظل في انحنائة دائمًا، مكانها المعتاد أمام المنزل العتيق فوق مصطبة وكأنهم استحدثوها لها خصيصًا، مصطبة تأخذ مسافة ليست بالكبيرة من طول الجدار مطلي أعلاها بالأسمنت، في الشتاء مكانها معروف بعد أن يفرشون لها المفرش المعتاد المصنوع من فرو الخراف أو شعر الماعز أو المصنوع بالمغازل اليدوية من بقايا الأقمشة القديمة، تجلس في مواجهة شمس الصباح، فتستقبل الإشعاعات الدافئة، يختلف وضع الجلوس في الصيف ينحرف المكان قليلًا فتكون تحت ظلال الشجرة العجوز، تستقبل وترد تحيات كل من يمضي أمام البيت، يمتلئ جيبها بقطع النعناع الخضراء اللون الكروية الشكل، كثيرًا ما تهبها للصغار الذين يلتفون حولها بمجرد خروجها، يتسابقون إليها فيقبلون يدها وتقبل رءوسهم وكأنها تمنحهم البركة المقدسة، يتلقفون قطع النعناع في أفواههم وينطلقون، الوحيدة التي لم تفارق حِجرها نورا ابنة الناظر توأم يونس، ظلت نورا مرتبطة بالجدة وهيبة طوال حياتها؛ حتى إن البعض أطلق عليها اسم وهيبة الصغري، وهيبة حكاءة رائعة طوال عمرها، عندما يجتمع شمل الأولاد يونس وأبناء عمومته، يحبون أن تقص عليهم حكايات الشاطر حسن، رغم موتها ما زالوا يرددون بعض مقاطع حوار أحاديثها: «يا ست يا ستنا ياللي قصرك أعلى من قصرنا هاتي عنقود عنب للوحمانة اللي عندنا».

وفي نصائح الأب للشاطر حسن عندما يطلب منه:

«إذا سرقت إسرق شيخ الحرامية، وإذا لعبت قمار العب مع كبير القمارتيه، وإذا ذهبت لبنات الليل اذهب الصبحية».

لم يفهموا معنى كلمة بنات الليل إلا بعد أن تجاوزوا العشرين، تبكي نورا

أو وهيبة الصغيرة كما كانت تحب أمها أن تناديها، فيجب على الجدة أن تقص لها حكاية عن ست الحسن والجمال، كانت وهيبة هي أيقونة رائعة في عين الناظر، لا يفوت يوم إلا ويذهب إليها في مخدعها ليلقي عليها بتحية الصباح، اعتادت أذنيه أن تستمتع بجملة الأدعية التي تدعو له بها، الأولاد لا يتركونها، بعضهم يمازحها ويطلب منها أن تفتح فِيهَا ليروا الأسنان الجديدة التي ظهرت في فكها، تضحك وتبادلهم ولكنها لا تفتح فاها، كثيرون يؤكدون أن هناك سِنًّا جديدة نبتت لها، تروي أحاديث عن أسنان خضراء تظهر لمن يتعدى المائة عام، يجتمع حولها الرجال فيسألونها عن صلات القربى بين العائلات المختلفة، ذاكرتها لا تخنها وتستطيع أن تحدد صلات الرحم من ناحية الأب أو الأم أو كليهما معًا.

تقص عن البداية بشق الجبل، كما سمعتها ورددوها، منهم من قال كان هروبًا عندما فاض ماء النيل وأغرق الأرض والزرع والبشر وما تبقى من بلدهم القديم سوى عائلات معدودة، اجتمعوا على رأي وكانوا مجبرين عليه وهو الهروب، خاصة أن الأمراض انتشرت، عزموا أن يقيموا على الجانب الشرقي للنيل، الجبال في هذه الناحية ملاذ ومهرب ساعة غضب النهر، نعم الأرض قليلة ولكن الخوف من هجوم النيل صار يؤرقهم، لم يكن هذا هو المكان الذي عزموا على الرحيل إليه، جرفهم تيار النيل وكأنه هو الذي تخير مكانهم، استقروا وأقاموا حياتهم، أما القصة الأخرى وكثير يؤكدونها، هربوا ولكن من السخرة التي فُرضت عليهم، وكانوا في غالب الأمر من ذوي الأصول المهمشة في البلد الذي كانوا يقطنونه، ساقوهم غصبًا، ومنهم من مات ومن لم يعد ولم تعرف له طريق أو ذرية أو نسل، يميلون إلى القصة الأولى، لا يحبذون أن يذكروا أنهم كانوا من ذوي الأصول الضعيفة، فتقول غالبًا الحكاية الأولى وأن جدها هو من قص عليها الحكاية وهي قديمة قدمهم في هذه الأرض، لم يكن بينهم سوى عدد محدود من النصارى من أهل سمعان القمص، واليوم حالهم أفضل كثيرًا ونجحوا في التجارة وتملكوا الأرض وصاروا مضرب المثل، لم تتغير العلاقات ولم يفصلها دين.

كانت «أم سند» تأتيها بين الحين والآخر، هي الوحيدة من النصارى القريبة من الجدة في السن، فالفارق بينهما يتعدى العشر سنوات، تسأل عنها إن تأخرت بل تُرسل من يطرق بابها، كانت حلقة الوصل بين الجدة وما يحدث بين النصارى، بل كانت تأخذ برأيها في بعض المشاكل الطارئة، تسألها وتعرف منها عن امتداد أسرة بعينها وأصولها وتفرعاتها، لا تنسى أم سند هديتها الدائمة للجدة، تأتيها بالعسل الأبيض الذي تنتزعه من الخلايا الطينية المتراصة في شكل هرمي، لا مثيل لهذا العسل، كانت تشكرها كثيرًا، لا تنسى الجدة أن تأمر «أم إبراهيم» زوجة أخيها أن ترد الإناء مملوءًا بالسمن البلدي والجبن أو الشعرية البلدي أو الكشك، المهم ألَّا يعود الإناء فارغًا، أم سند رغم جسدها الضئيل وحركتها شبه المتعثرة، ابتسامتها دائمة وعندما تضحك تقترب وتتباعد تجاعيد ما حول الفم، إنها تعشق الدنيا كلها، أبرز ما كان يميزها تلك الضفيرة الطويلة المنتهية بكيس مصنوع من القماش تضع فيه ثروتها من القروش القليلة، يسأل يونس الجدة وهيبة هل ما زال شعر أم سند بهذا الطول، تنهره الأم بقوة، تطيب وهيبة خاطره وتطلب من أم إبراهيم ألا تعنف الولد، الجدة تعشق أم إبراهيم ولا تناديها إلا بكلمة يا حبيبة أو يا غالية، شعور متبادل بينهما وتوافق جميل، لسان الجدة وما يفيض به من أحاديث ليس دائمًا محببًا، فأغلب النساء يتخوفن منها ومن كلماتها، فمن جاءتها تشكو زوجها، لا تستمع إليها كثيرًا وتوبخها وأحيانًا تسحب عصاها وتأمرها بالمضي وإلا ضربتها فوق رأسها، تقول:

«الست الزِّينَة من تتحمل زوجها مهما كانت أخطاؤه، تجلس تحت قدميه وتراعيه وتواسيه».

لا تتخلى عما تؤمن به مهما كانت شكوى الزوجة، رغم كل ما تقول يأتين إليها ويشكين ويستمتعن رغم ما يصيبهن من لسعات لسانها، يختلف الوضع بالنسبة للرجال، فمن يأتيها يشكو زوجته فلا تتردد قائلة:

«تف على المرأة بمرأة تانيه يا ولد».

يذكرون يوم موتها، كان يونس لم يصل لعامه التاسع، يتذكرونها في سهرات الليل عندما يعشق يونس وأبناء عمومته الجلوس إلى الجدة وهيبة، يسألونها عن حكايات الزمن الماضي، تذكرهم بأيام الوباء الذي حلَّ ببر مصر، كانت رغم نظرها الضعيف تفرق بين كل منهم، سيد عبد الجواد وكان من أقران يونس لكنه كان لا يتردد معهم عند الجدة وهيبة، أشارت بعصاها ناحيته وسألته:

- أنت ولد مين؟

- ولد عبدالجواد مرعي.

- ولد ولد مرعي ... الله يرحم جدتك سيدة.

وراحت في الضحك وهي تستكمل باقي السؤال:

- تفتكر جدتك يا ولد ...

يهز رأسه موافقًا وقائلًا:

- كان عمري خمس سنوات يوم ماتت.

تضحك من جديد وتظهر بقايا وآثار أسنان مبعثرة في فمها فوق لثتها، ضحكتها كتعويذة سحرية تطرق آذان مستمعيها فيجارونها في الضحك، لا تحب الجلوس صامتة ساكنة، تصف لهم حجم جدته زوجة مرعي وإنها رغم اتساع باب البيت إلا أنها كانت تدخل بجانبها، وإنها منذ تزوجت كان ضخمة الجثة، كانت جميلة الوجه وزاد جمالها بالوشم الأخضر فوق ذقنها والخال الموجود في وجنتها الشمال قريبًا من الأنف، ووجهها القمري الكامل الاكتمال، تواصل الجدة وهيبة بعد سعال لم يستمر كثيرًا وأوقفته بتناول شربة ماء، وتمسح بشالها بقايا المياه من فوق شفتيها الضامرتين اليابستين، تتنهد ولكن لا تفارقها الابتسامة، آهة متقطعة جميلة مخارجها تزفرها بمرح، تتذكر يوم زفافها على مرعي وتصف لهم كيف كانت ليلة الزفاف ويومه،

كانت العروس تأتي من بيت أبيها إما فوق فرس ويجرها أقرب أهلها وخاصة أخوها حتى يصل بها إلى باب بيت زوجها، وإما أن يكون جملًا فوق ظهره هودج ويطلقون عليه المَحْمَل، مغطى من كل الجهات بالستان الأحمر أو الأخضر وبصحبتها ثلاثة من الفتيات الأكثر قربًا منها، والمعتاد في تلك الحالة عندما يصل المحمل أمام بيت العريس، قائد الجمل يدفعه أن ينخ ويبرك على الأرض بقوائمه الأربعة، وعلى العريس أن يدفع الغطاء بيده ويكشف عن وجه عروسه ويحملها بين يديه ويدخل بها الدار، لم يرها مرعي من قبل ولم يخبره أحد عنها، تضحك وتسعل من جديد وهم منصتون وابتسامتهم فوق وجوههم، صمتت وكأنها تستجمع أطراف حكايتها، بصيص من شعاع عينيها يسقط فوق وجوه الشباب فتتسع ابتسامتها، ثم تشرد بعينيها بعيدًا وكأنها تخاطب سقف الحجرة وابتسامتها قائمة، تستطرد، كيف أزاح مرعي الستارة الخضراء والزغاريد وصلت لعنان السماء ومرعي بين أصدقائه وأحبابه، ينظر إلى سيدة بحجمها، وكأنه يستجديهم المعونة فكيف يتسنى له حملها بين ذراعيه، تقول بتلقائيتها الجميلة الرائعة:

- وقف مرعي قدام محملها وإيديه اتمدت ولا تتمد اليوم، كان نفسه يرفعها بين دراعاته، بص حواليه لخلانه وحبايبه، قروا كلام عينيه وسيدة كانت ست الستات، هُب نطت من هودجها، كانت متربية وبنت ناس، ربنا قدر مرعي ورفعها يا دوب خمس ست خطوات، ونزلها من بين أيديه وهو فطسان من الضحك، وسيدة ولا هي الكسلانة شالت جوزها بين أيديها والخلق تضرب كف بكف، الدنيا هاصت، سيدة من يومها جرئية، نزلته من بين أيديها وحطت إيدها في إيده ودخلوا الدار وبعد ما قفل الباب، أصحابه دقوا عليه، فتح وخشمه مفتوح على الآخر والضحكة فوق منه، وقال ولا يقول اليوم ... قلت لكم جمل ... وقفل الباب ودخل ... دق الشباب على الباب وغنوا ...

«أوعي تخاف بِزَّه مخده وبِزَّه لحاف».

ليلة كانت من ليالي العمر، كل اللي ماتوا فاكرينها، كانت ولَّادة بدل الواد الواحد خمسة في عين العدووبدل البنت تلاتة.

الجميع يعشقون حكايات الجدة وهيبة، لكنها كثيرًا ما كانت تغوص في أحاديث تقسم بأنها حقيقة، أقاصيص لا يقبلها العقل، كنوز شق الجبل المخفية تحت النيل في النفق بين الشاطئين، تتحدث أحيانًا عن أشواك القنفذ وعلاقتها بالكنوز المخبوءة في باطن الأرض، وإذا قام الإنسان بحرق تلك الأشواك فإنها تسهل الكشف عن الكنز، ويرتبط وجود الكنوز بوجود القنافذ وخاصة الأماكن القديمة، وتطوف كثيرًا في تلك الأقاصيص وتجد لدى الشباب خاصة ميلًا كبيرًا للاستماع إليها ولا تبخل بحكاياتها، لا ينسون حكايتها عن وابور الطحين، فطواحين الحبوب الضخمة قبل تشغيلها يُسفك عليها دم، وإن لم يُسفك عليها الدم فإنها لا تعمل كثيرًا وفي أقرب وقت تتوقف بدون سبب ويمكن أن تحترق بلا سبب ولا يستطيع إنسان أن يعيد تشغيلها، يسرع أحدهم ويسألها عن طاحونة المقدس سمعان، معروف بأنها ملك الناظرولكنه شارك سمعان حتى يضمن ألا تحدث مشاكل بين النساء وعمال الطاحونة، تعرف ما جرى في البداية ولكنها تبتسم ولا تتكلم وتدور لحكاية أخرى فتقص عن حكاية بيضة الديك، يستغربون أللديك بيضة أو الديك يبيض؟ تؤكد أن ما قالته صحيح، فهي ما زالت بكل قواها العقلية وتعي ما تقوله، تصمت فيدعونها من جديد ويتوسلون إليها، تقص أن للديك إذا عمَّرسبع سنوات بيضة ذهبية، وهي سر أسرار الكنوز الأرضية، وتقول: إن قراءة سورة الكهف على تلك البيضة تظهر نحلات إذا كان يوجد كنز، يعقبه ظهور ثعبان ثم ماعز، وهناك سر لا يستطيع الصغار تحمله وتتوقف عن القص، يحاولون ولكنها تتوقف، يحاول كل منهم أن يهون الأمر فالديك لن يعمر سبع سنوات، ولن يبيض مهما طال العمر.

تقول الجدة وهيبة:

بداية الكون كانت خضراء، تتحول الألوان، فالبلح في بدايته وهو في مرحلة

نموه الأولى أخضر ثم يتلون بمختلف الألوان، سنبلة القمح الخضراء في النهاية تتحول لأصفر ذهبي يخطف الأبصار، فلون البيض يبدأ بالأخضر أيضًا، تأمل لوزة القطن بلونها الأبيض الجميل، تأمل أسفل نفس الشجرة ستجد بعض براعمها لم تتفتح بعد ستجدها باللون الأخضر.

كانت أجمل حكاياتها التي كثيرًا يتداولها يونس وأقرانه حكاية التوت، فيوم سألتهم عن لون التوت، فأجابوا أبيض، أحمر أو أسود، قالت ... كانت كل ألوان التوت بيضاء ...

عشق الأمير ابنة الفلاح، عرف أبوه السلطان عن هذا الحب ففرق بينهما، فأمر بطرد الفلاح الفقير من مملكته، فكان له ما أراد، فخرج الفلاح يبحث عن أرض يعيش عليها حتى استقر به المقام قريبًا من غابة، مرض الأمير لفراق حبيبته وفكر في أن يقتل نفسه ولكن أبوه كان له بالمرصاد، والحرس يراقبونه الليل قبل النهار، كان هنا عصفور يعلم بقصة الأمير ومحبوبته فلم يتحمل ما يحدث للأمير، فدلَّه على مكان محبوبته الجميلة، يهرب الأمير ويذهب إليها، كانا يتقابلان تحت شجرة توت ضخمة، في الموعد المحدد تأخر الأمير ولم يأت، جلست أسفل الشجرة تنتظر قدومه، خرج من الغابة ذئب ضخم تسيل من فمه الدماء، كان الذئب لتوه منقضًّا على فريسة، فخافت وارتعشت وأسرعت تعدو بعيدًا عن المكان فسقط منها وشاحها، استولى الذئب على الوشاح وراح يمزقه بأسنانه وأظافره، فتلون الوشاح الممزق بدم الفريسة التي التهمها الذئب، ذهب الذئب لوكره، وعاد الأمير ووجد الوشاح الممزق والدماء ظاهرة جلية عليه، احتضن وشاح محبوبته وصرخ وألقى بالذنب على نفسه، فبسبب تأخره افترسها حيوان الغابة، ضاق الأمير بالحياة بعد فراق محبوبته، فرفع سيفه وطعن نفسه في قلبه وخرَّ ميتًا، عادت الحبيبة وهي خائفة فوجدت محبوبها غارقًا في دمائه، وبدورها رفضت أن تعيش بعده فاستلَّت السيف وطعنت نفسها حتى ماتت بجواره واختلط دمهما ببعضه، فبكت الشجرة وحزنت عليهما فتحول لون التوت

إلى اللونين الأحمر والأحمر الدموي الذي يميل للسواد.

عندما يسألونها ... هل الحكاية حقيقية؟ على الفور تقسم بصحتها وحقيقتها ولكنها حدثت منذ آلاف السنين.

تشير للجبل الرابض فوق بلدهم، تقول إن وراء هذا الجبل جبال تمتد حتى البحر الكبير، وكثير من أهاليهم ذهبوا ولم يعودوا باستثناء واحد فقط، عاد وهو يتفوه بألفاظ غريبة، فسروها بأنه رأى قومًا لم يفهم لغتهم ولا يلبسون ملابس نهائيًّا، ومما هو معروف عن هذه الجبال أن بها قومًا يوم يخرجون من شقوقها سيأكلون الأخضر واليابس حتى البشر، وعندما يسألونها عن موعد خروجهم، تضحك وتصمت قليلًا وتقول:

«بعد أن أموت».

وعندما يصممون على معرفة الموعد بعد أن يتملكهم الرعب، ترضيهم وهي تقول إن الجبل وقممه المتعددة هو سور ضخم لا يستطيع أن يتسلقه أحد، ومن يعبر تلك الأسوار تحرقه أشعة الشمس؛ لأنه يكون قريبًا منها، عندما يطرحون سؤالهم عن إنسان، لا تحب الجدة وهيبة أن تتحدث عنه، تكتفي بكلمة معروفة:

«بلدنا طيبتها غالبة عليها وعلى أهلها ... مهما كانوا أولادها ... هو فيه أم تكره ولادها مهما عملوا وسووا ... يوم ما يموت إنسان أيًّا كان عابد أو قاتل... الناس تشيله فوق أكتافهم ولا يذكرون منه إلا ما صدر منه من جمايل».

يقع من فوق رأسها غطاء رأسها، لا تهتم كثيرًا بذلك وتسحبه من جديد في تأنٍ وهدوء، يتأملون شعرها القليل الممسد بالحناء، دائمًا تتعمد أن تذكرهم أن هذه الدنيا لا تساوي عند الله سبحانه جناح بعوضة، كلماتها الهادئة الرائعة تغرس الخوف أحيانًا، لكن في الغالب والأعم تبعث الدفء في حنايا أجسادهم الغضة الشابة، لكن يخرج عن المألوف سؤال من أحد الأبناء:

«هل صح البهلول ابن طه سبع الليل من الجنية؟».

تتوقف عن الحديث وتطالبهم بالذهاب للعب:

البهلول!

يقترب من الخمسين عامًا، أحد الشواهد والآثار الخاصة بشق الجبل، يحب العزلة بصورة غريبة، يتمتع بكفين كبيرين خشنتين وأصابع من فرط قوتها تستطيع أن تطحن حبة الفول بينها، لو نشبت معركة بينه وآخر فقبضة يده لو أصابت غريمه سيلفظ أنفاسه الأخيرة، تظهر قوته في أشياء كثيرة سواء رفع أو جذب أو حمل ولكنه لم يستخدمها يومًا ضد إنسان، يتحدث قليلًا ولا يعرف من المراوغة حتى اسمها، يدخل تحت قائمة أبناء البلد، حقه محفوظ في أي خير قادم أسوة بأي إنسان، له نصيب فرد من الأفراد، لا يهتم بذلك كثيرًا، في أحد المرات أرسل إليه الناظر ليهبه مما فاض على البلدة، رفض أن يذهب مع أي إنسان، حتى نادر رغم قسوته أحيانًا لم يشأ أن يذهب إليه، تطوع طه وإليه ذهب، كان وقتها مقيمًا بالجزيرة، أتى مباشرة معه، في وسط المجلس في الردهة الكبيرة ووسط الكبار من أهالي البلد، امتدت يد الناظر بحقه من مال، كثيرًا ما يشكره ويأخذ ويمضي، نظر إلى الناظر نظرة غريبة وألقى بما وهبه على الأرض، معربًا بصوته الباكي غير مفهومة عباراته بأنه ليس شحاذًا، ودمدم بكلمات وشعر الجميع بدهشة بالغة ومباغتة، لم يطل وقت الفعل وكان رد فعل طه سريعًا فقد تحرك بصورة سريعة وقبضت يداه على رقبة البهلول الذي صرخ صرخة طويلة ولزم الصمت ونام على الأرض، لم يتركه طه وظل جاثمًا فوق صدره وهو يئن ويتوجع، أسرع الناظر فسحب طه من جلبابه فانصاع لسحبته، لم يتحرك البهلول من نومته وكأنه استراح ولكن عيناه تنظر إلى طه ويحاول أن يداريهما بيديه، يدفعونه للقيام من نومته لا يستجيب، ينتظر أمرًا من طه، أشار إليه الناظر بالقيام فلم يطعه فأشار له طه بيده فقام من فوره، هم بالخروج، أمره طه ألَّا يخرج وأن يُقبِّل رأس الناظر، اهتزت رأسه بعدم

الموافقة، وكأنه سأله لماذا؟ فقد تكلم بكلماته المكسرة:

- وعدني آخر مرة بجلابية صوف.

ماج المجلس بالضحك، قام الناظر من فوره ضاحكًا وبصوت سمعه الجميع نادى ابنته أم شريف بأن تختار أحسن وأفضل جلابية صوف للبهلول، في وسط المجلس أخذ يرقص ويرفع يديه للسماء بالدعاء بكلمات لا يفقهها إلا القليل من الجلوس، نوبة من الضحك يغرق فيها طه ويداري وجهه، صمم البهلول ألا يخرج وأن يقوم الناظر بنفسه بقياسها عليه، عندما تقدم طه ناحيته فأسرع ناحية الناظر، فقام من فورة وألبسه الجلباب وعيناه تكادان تخرجان من الفرح، يجلس تحت قدمي الناظر، يحاول أن يجلسه بجواره يأبى ولا يبتعد عن موطئ قدميه، أغلب حياته يعيشها في الجزيرة، لا يهتم كون الدنيا صيفًا أم شتاءً، أقام في وسط الجزيرة كوخًا صغيرًا غير عشته التي عاش فيها أكثر أيام عمره على الشاطئ، وكأن وجوده نشَّط ذاكرتهم عن الأيام الماضية، كيف هجر البهلول أباه؟ لكنهم لا يصرحون حقيقة بهذا الأب، لا يحبون الخوض في حكاية البهلول كثيرًا ومَن أبوه ومَن أمه، يقول البعض في حذر بأن والده وجده بلا مأوى فأخذه إلى زوجته التي فرحت به، فلم يهبهما الله أولادًا فاكتفيا بالبهلول ورضيَا، منذ صغره وبعد موت أمه التي تبنته وزواج أبيه لا تقبل زوجة أبيه الجديدة أن يعيش بينهم، كثيرًا ما نام في المسجد، ومرات كان يشارك الموتى في المدافن، لم يتركوه وإنما ألقوا بالتأنيب على رأس أبيه أو من تبناه، فعاد وعاش في المنزل، حتى كان يومًا وهو طفل لم يتعد العاشرة، دخل على زوجة أبيه وإخوته الصغار وهو ملطخ بالقار أو السخام بالكامل فلم يعرفوه وصرخوا جميعًا، هو أيضًا صرخ بدوره لصراخهم، لقد سقط في برميل الشحم والقار الأسود الذي يطلون به جدارن المسجد خوفًا من السقوط تحت تأثير المياه الجوفية، وجدتها زوجة أبيه فرصة ولم تتوقف عن عويلها، صممت وأقسمت أمام الجميع أن الأولاد ركبهم الجني، فأقاموا للأولاد زارًا وطردوا الجن من فوق رءوسهم،

عاد للبيت ولكن انزوى في ركن بعيد أغلب أيامه، يوم أكمل عمره الخامس عشر لم تستح زوجة الأب فادعت بأنه يتلصص عليها ساعة أن تستحم.

على غير المعتاد تجرأ أحدهم يلقبونه «شحاته حته واحده» وكان قصير القامة ممتلئ الجسم بلا رقبة ظاهرة، ذا عينين سواداوين واسعتين كحيلتين، ضحك فصمت الجميع فدار بعينيه فوق وجوههم، وما لبث أن تكلم وهو يختلس النظرات ناحية الناظر والشيخ، وبعد تردد قال:

«يومها قالت ولا تقول اليوم ... يا خلق هوووه ... حرام عليكم دا مش بني آدم زي الناس».

الجميع شبه عارفين بالحكاية، لكنه تردد وراح في نوبة من الضحك غريبة فدارت الحكاية في رءوس الجميع.

يومها فلتت من بين شفاهها كلمة ما زالت راسخة في أذهان الناس بأن له عضوًا ذكريًّا يفوق أي رجل.

يضجون بالضحك كون أحدهم استطاع أن يتكلم ويصرح ويكسر حاجز صمتهم، كلهم يعرفون الحكاية ولكن يدفعهم الحياء ألا يخوضون في ذكره، فتتوالى الحكايات بلا ساتر، يقول أحدهم ويقسم بأن الزوجة صادقة، الوحيد الذي لم يتحمل الحديث هو طه فقد أسرع بالخروج، بالقرب من شاطئ النيل وقريبًا من مراسي المراكب الشراعية والقوارب القليلة ذات المجاديف كان للناظر بناية عبارة عن حجرتين متداخلتين من الطوب اللبن، وهبها له، عاش فيها فكان يومه بالكامل في حراسة المراكب ومساعدة أصحابها أو بمعنى أصح العاملين عليها، توجد الكثير من المراكب الشراعية على الشاطئ أو المرسى الخاص بالقرية، أشرعتها كأجنحة لكن لا لون لها، ربما كانت يومًا بيضاء، تنفرج وفقًا لكَمِّ واتجاه الرياح، تُترك كثيرًا ملفوفة حول الصاري الضخم، تُرفع باستخدام وفك الحبال الخاصة بكل جزء، يدفع تيار الماء واتجاهه المركب ويتحكم المراكبي في تسييره بحالة الهواء،

يوجه شراعه كيفما يشاء ويبغي، يتهادى المركب أو يتراقص حسب الحالة المزاجية لقائده أو زبائنه، لا يتوقف الأمر على الشراع فحسب، فقد تلتف الحبال حول جسد المراكبي وهو يدير الدفة يسارًا ويمينًا، تتم هذه العملية بفعل المراكبي، حتى يمسك كل أطراف العملية بيديه وجسده كله حتى قدمه، على الركاب مراعاة عملية الدوران، تتم عملية الدوران للشراع ومعها تدور قاعدة عمود الصاري، الحذر مطلوب وشد وجذب الحبال تتحكم في عمود الصاري والشراع والقاعدة، أمواج النهر بطبيعتها هادئة وخفيفة، أما الرياح فأحيانًا تزمجر وتكون أكثر عنفًا وخاصة في مواسم الخماسين، يمكن أن تطيح بالمركب وهذا مرهون بحذق ومهارة المراكبي واستخدام أدواته في المركب، يستطيع البهلول أن يجيد كل أعمال المراكب، يستعين المراكبية به لأي أعمال يحتاجونها فيلبي بسرعة، أغلب ممتلكات البلد يضع يده عليها الناظر، يحرص الرجل أن يكون دائمًا بمثابة الأب للجميع، كل ما بني من مبانٍ وبيوت وخلافه كانت أرضًا تعتبر مملوكة للناظر وأسرته، لا يملك أي فرد في البلد كلها صك ملكية للبيوت التي يعيشون فيها، حتى المقدس سمعان رغم حرصه الشديد المعروف به لا يملك عقد ملكية، أحاديث مرددة ولكنها لا تحمل تأكيدًا دامغًا بأن الباشا قبل يوم هروبه بعد الثورة باع كل أملاكه لوالد أحمد الناظر، يقولون لم يقبض من ورائها شيئًا، يقولون إن الملكية حُددت فكانت أملاكه على الشاطئ الثاني تزيد عن المصرح به، فأوصى بكل ما يملك لخادمه الأمين أحمد الناظر، يدعي كثيرون أن الناظر وأولاده قاموا بالدفع فيما بعد على صورة أقساط متعددة وانتهت منذ فترة طويلة، لا يطرق هذا الموضوع إنسان، فالناظر لا يبخل على إنسان حتى النصارى، لهم في رقبته حق هكذا دائمًا يقول، تمضي الحياة بالبهلول وحيدًا لكن لا تغفل عنه عينَا الناظر، يتم زفافه لأم نمر تحت رعاية ومباركة الجميع، الغريب والذي لا يحاولون طرق الحديث فيه، ماذا حدث لأم نمر بعد شهر كامل من الزواج، يضحكون ولا يجرؤ أي منهم على الحديث، تتقابل عيونهم يضحكون أكثر ويكتمون ما كاد أن

يخرج على أطراف ألسنتهم، كادت المرأة أن تموت، نقلوها للمستشفى على الجانب الآخر، قالوا إن الطبيب منع زوجها أن يقترب منها فهي حامل وحالتها الصحية سيئة للغاية، يشيرون بطرف خفي للسبب ويحفظه كل منهم ويتناقلونه فيما بينهم وكأنها حكايات من التراث، همس متداول مغزاه أن عضوه الذكري هو السبب، يبتعد ويقرر أن يعيش بعيدًا وأن لا يقربها حتى تضع مولودها المبارك «نمر» في تلك الفترة اعتاد السباحة للجزيرة يوميًّا، بعدها قرر الاستقرار فيها، نقل طه طلبه للناظر الذي وافق على الفور، مده طه بكل احتاجاته بإيعاز من الناظر، عندما تظهر الجزيرة وقت انخفاض مياه النيل يطالبه الناظر بزراعتها وعليه حراستها، عندما يرتفع منسوب المياه يرفع عشته التي بناها لأعلى، أصبح كمحطة قائمة بين شاطئِ النيل، كل مراكبي يمر يلقي إليه بالتحية ويسأله عن حاجته، هو دائم اليقظة والترقب فأي مركب تجنح أو تغرس فتتوقف فيسرع ملبيًا نداء المراكبي، يتخلى عن كل ملابسه عدا سرواله، يلقي بنفسه في الماء، المراكبي بمقلاعه ومن معه يدفعون وهو في الماء يحاول أن يخلص المركب مما علق بها سواء طين أو أعشاب مائية، لا يطلب أجرًا مقابل أعماله وهم يجودون عليه في الذهاب والإياب، استقر به المقام في الجزيرة وترك المنزل الذي يقيم فيه على البر لزوجته وابنه نمر، قليلًا ما يأتي إليهما حاملًا ما استطاع أن يكنزه من نقود أو هدايا يقدمها له العابرون أو ممن يحتاجونه في وقت الشدة، تداعب السيدات أم نمر في ساعات سمرهن بأنها ليلة يأتي أبو نمر يظهر بريق وجهها وأثر الاستحمام فوق وجهها، تضحك ولا تبالي وتدعي الخجل ساعات كثيرة، يدفعونها أحيانًا للحديث، في حياء مقنع تصف ليلة هواها وقدرات البهلول في إطفاء لهيب شهوتها وحاجتها، تتحدث وتطرق برأسها للأرض فيطلبون منها أن لا تخفت بصوتها ومزيدًا من الحكايات، فتواصل في السرد إلا في حالة واحدة إذا كانت أم إبراهيم موجودة، فلا تجهر بكلمة مما تقول، وفي السنوات السالفة كن يستحين أن يتحاكين في وجود الجدة وهيبة، كل النساء لا يُفصحن عن تلك الأحاديث في وجود الجدة وهيبة،

وإلا كانت لن تسكت وستجاهر بلعناتها ويمكن أن ترفع عصاها وتضرب من تتفوه بكلمة من هذا الحديث، ساعات سمرهن لا تنقطع وخاصة أيام الخبيز أو ليالي صناعة الكشك، أم نمر قاسم مشترك في كل ساعات السمر والفرح، حتى صوتها في الغناء أو في العديد رغم خشونته له وقع على آذانهن اعتادوه وتآلفوا معه، تحفظ الكثير من المرثيات وأغاني الأفراح.

في أيام العوز والحاجة كان مطلوبًا أن يحاصروا مطاريد الجبل كما اتفقوا مع الناظر، أبو دراع دائمًا وجهته ومكان بيع بضاعته على الجانب الآخر، المدينة زاخرة بتجارٍ في كل الأشياء وسماسرة، كانت الجزيرة بموقعها الوسطي تعطي للقائم عليها أن يراقب كل المراكب التي تتحرك ذهابًا أو إيابًا، أوكلوا المهمة للبهلول وجلس معه طه يحدد له المطلوب بكل دقة، اتفق معه على إشارات متعددة، مركب قادمة من الغرب للشرق يُشعل مشاعل ثلاث على مسافات محددة، وعلى عكس الاتجاه يُشعل مشعلين، مشعل واحد فالطريق أمان والمركب معروفة ومن فيها، كان مسرورًا بعمله الجديد لا يعرف هذا السر سوى أربعة أفراد الناظر أولًا ونادر وطه والشيخ رضوان، يمثل نادر ومجموعة أصحابه وما يحملونه من سلاح خط الدفاع الأساسي والوحيد ضد أي عمليات يفكر فيها المطاريد، بل كانوا أيامًا كثيرة إن لم يكونوا في الجزيرة فمقامهم الأساسي على ضفة النهر، بعد أكثر من عملية حاول فيها أبو دراع بمعاونة بعض مراكبية المدينة اختراق الحصار، باءت المحاولات بالفشل واستطاع الرجال القبض على من تجرأ ويتم عرضه على نادر ليأخذ قراره فيه، الرجوع دائمًا للناظر ولكن لا يظهر في الصورة مباشرة، يستولون على ما جاء به من أموال ليستبدلها بمخدرات من المطاريد وعليه أن يختار ما بين أن يظل على قيد الحياة أو لا يعود ثانية، بل وفق قانونهم وإذا تم القبض عليه ثانية سيتم إعدامه ولن يعرف إنسان طريقًا لجثته، هكذا تمت السيطرة على منفذ النهر وهو المنفذ الأساسي والأول لكل من يعيش على الطرف الثاني سواء أهالي البلد أو المطاريد، لم تفلح المحاولات، شعر أبو دراع بأنه رهين سجن كبير فكان عليه أن يُسلِّم ويعترف بقدرات الناظر،

عقد معاهدة بعد رفض في أيام كادت أن يلفظ ناس البلد أنفاسهم من قلة القوت، كان اعتماد البلد كلها على المواسم وزوار المقابر لأيام معدودة، بناء وتشيد مقابر لسكان البر الثاني، والغالبية العظمى من المقابر لسكان القرى والنجوع فكان ما يدفعونه يتم في مواسم الحصاد غالبًا، رقعة الأرض غير كافية وأغلبها يملكه الناظر، الجميع يعملون إذا كان هناك عمل، قليل جدًّا محدود عددهم ممن حاولوا أن يتعلموا الصيد ولكنهم لم يجيدوه، في مواسم الأعياد الجميع يتحفز وينتظر، نعم قروش قليلة وجنيهات أقل لكنها تعني لهم الكثير، كأنه موسم حج خاص بهم، يبحثون عن ملاذ يقيهم شر الفقر والعوز والحاجة ...

فكان اتفاق مُبرم لقتل معالم وملامح الفقر التي حطت فوق البلد، كان صدر الناظر يضيق بعلاقة تقوم بينه وبين مطاريد الجبل، ليس أمامه شيء آخر، كان اتفاقًا بإجماع كل الآراء وعلى شروط ألا يخرج أحد عنها، المرجعية لكل فعل سيكون للناظر ومن بعده الشيخ علوان، حتى سمعان النصراني أيد الاتفاق ولكن دقق كثيرًا في تأمين من سيشاركون في الفعل، فكان للمراكب سعر حُدد مسبقًا، من يهبط من المطاريد بحمولته تكون محطته الأخيرة الشاطئ الثاني كأي عابر، كل العابرين للناحية الثانية معروفين ولا تخطئهم عين أي مراكبي، من يحاول أن يتهرب وسط العابرين من المطاريد فحق يُقام ويكسر الاتفاق، انتقلوا بعدها لكيفية حصول المطاريد على التموين والمأكل والمشرب وخلافه، سيقوم ناشد النصراني بالتوريد وتحت إمرة سمعان والشيخ خليفة شيخ الطريقة البيومية بالبلد، معروفٌ ناشد بحبه الشديد للمال وتفانيه في جمعه، ويعلم بذلك أقرب المقربين، في وجوده كان الحديث، يحاول ناشد القسم فيضحك سمعان فيضحكون ويسلمون بما قال ويوافق ناشد، توقفت الاتفاقات بمجرد أن لمح أبو دراع بطرف خفي أن هناك زوارًا سيأتونه، وعندما عرف الناظر بأن المقصود سيدات من البر الثاني، نفض الناظر جلبابه وطالبه أن لا يكمل حديثه، حاول أبو دراع أن يعيد الحوار لمجراه والاتفاقيات لسابق ما توصلوا

إليه ولكن عزف الناظر أن يستمع إليه، استطاع ببراعة أن يؤكد أن من طلب أن يحضرن للزيارة لسن غرباء إنما هن زوجات لرجال من مجموعتهم، أقسم وإن شاء الناظر أن يرى عقود الزواج الخاصة فسيقدمها له عن طيب خاطر، يحاول يومها الرجل أن يغير مجرى حديثه ضاحكًا، يطلب من الناظر أن يعاملهم كمساجين وهو يردد:

«اليوم في السجن هناك خلوة شرعية يا أخي».

وكأن كلمة يا أخي أثارت استياء الناظر فحدجه بنظرة، فحور الكلام لجهة مغايرة وهو يكنيه بيا سيد الناس ونحن سنكون في خدمتك، وافق الرجل على أن تنفذ الشروط تباعًا وسينظر في موضوع زيارات الزوجات لحين البت فيه، وأشار بطرف خفي أن إحدى زوجاته يمكن أن تلحق به وهي اليوم تعيش في المدينة على الجانب الآخر، سيل من مكاسب حلت فوق البلد كلها، لم ينس الناظر كل الاتفاقات التي وافقوا عليها معًا، فكان لكل فرد من أبناء البلد حصة، كثير من أبناء الأهالي ذهبوا للناحية الثانية من النهر للتعليم، نعم توجد مدرسة هنا ولكنها حتى المرحلة الابتدائية، على الأولاد أن يرحلوا في الصباح مع أول أفواج العابرين، يوم استغلوهم في نقل المخدرات في حقائبهم المدرسية، لا يشغل بال الناظر سوى كيفية السيطرة على القادمين لزيارات موتاهم وخاصة في الأعياد والمواسم، فالبلد تكاد لا تجد فيها موضعًا لقدم، فرحون بزياراتهم لموتاهم وعازمون أن يستمتعوا بتغيير في حياتهم المعتادة، يكسرون حاجز الصمت الذي تغرق فيه القرية فينطلقون في غناء ومرح، الشباب من أولاد وبنات يسارعون ويتنافسون في الصعود لأعلى قمة في الجبل، لا يختلف الحال كثيرًا فالسيدات اللائي يبغين أن يحملن يتوجهن إما لقمة الجبل لتحدث لهن الرجفة والخوف الذي يكون سببًا في الإنجاب، كل الأمور يُقيمها وفقًا للحوادث، كأن الجميع يركنون لما يقرره هو، طه لا يتكلم كثيرًا ولكنه يشاركه في الفعل ويأخذ بما يطرحه، الشيخ رضوان حريص أن يكون نصيبه معروفًا قبل أي إنسان،

يتفاخر ويبالغ في أنه السبب في وجود المدرسة الابتدائية، يجاهر بأنه الوحيد بين سكان القرية من يحفظ القرآن كاملًا ويرتله برواياته المختلفة، كل من تخرجوا من تحت يديه أغلبهم يحفظون أجزاء كثيرة من القرآن وأحاديث الرسول، فله الأولوية في كل مكسب يعود على القرية، عندما يشرع في الطعام فإنه ينسى الدنيا وما فيها وخاصة إذا كان الطعام يحتوي على الزفر، هو لا ينكر محبته للطعام، عندما تنتعش الظروف ويزيد الرزق لا ينسون مزاجهم، جميع الكبراء في القرية يشتركون في صفة تدخينهم للحشيش وإن كان أقلهم الناظر.

-٤-

الخير القادم

مساء الفل ... مساء الورد ... مساء أي لون وبأي نوع من الورود يستقبلون ليلتهم الليلاء، يشرح نادر لجماعته كيفية التعامل مع المرحلة القادمة وبعد الاتفاق ما بين الناظر وكبير المطاريد أبو دراع، تبدو البشائر جلية في الغد القادم، تتيه عقولُهم وأفكارُهم في تصوير الغد، لكن ليست تلك الساعة ساعة الفكر والتروي، إنها ساعة الحظ، يطلق أحدهم أحد تماسيهم المعتادة، ومساؤهم هو كلمة السر لبداية الجلسة والسمر والحفلة المعتادة، ولكن لهذا اليوم وضعٌ خاصٌّ جدًّا، هم معتادون على تلك الجلسة الخاصة بهم، المكان محدد مسبقًا في أحد المدافن على حدود البلدة، كان المدفن مهجورًا منذ أمد بعيد، اتخذوا من حجرتين متداخلتين مقرًّا ومستقرًا لهم بعيدًا عن العيون، يجلس المتعهد بالخدمة لهذا اليوم يرقب ويترقب صفاء جمرات الفحم المتقدة، ما يلبث ينقلها بالماشة إلى مصفاة صغيرة متهالكة ويتابع فركها ودقها، تتجزأ الجمرات إلى حبيبات صغيرة وكأنها في حجم واحد ومحتفظة بتألقها وتوهجها، يعبِّئ بمهارة حجر الجوزة السابق تجهيزه بالمعسل المخلوط بالحشيش وينفخ الجمرات، يطلق تماسيه ويد الغابة لصاحب الحظ، يتنافسون في سحب الأنفاس والشد بكل قوة وكأنهم يستعرضون قدراتهم، يتبارون فيمن يجعل الجمرات تشتعل فوق الحجر، يكتمون أنفاسهم ليصعد دخان المعسل العبق برائحة المخدِّر إلى الرأس، تدور رءوسهم في فلك اللحظة السعيدة المرحة التي يصنعونها في خيالهم، ربما يعيشونها حقيقة، تبدو حركاتهم بطيئة، ضحكاتهم يخيل إليهم بأنها ترج المكان، يتناوبون سرد الحكايات والأقاصيص المرحة أو النكت الخارجة حتى لو كانت قيلت من قبل، لا يهم ولو كانت الحكاية لا تدعو للضحك

فقد عزموا على الضحك مسبقًا، عليهم اجترار ضحكات ولو من الماضي، يسحبون ويتنافسون.

***

معالم الفرح تتسرب داخل قلوب أغلب البشر في البلد، بوادر إنفراجة من مال قادم وخيرات لا حصر لها يقدرونها، ففي اتفاق الناظر والمطاريد خير ينتظره الجميع، يتوجس منه الناظر خوفًا وألمًا من غدٍ قد يجذبهم لدائرة لا يدركون موضع الخروج منها، يحاول الجميع إضفاء صفة الشرعية على الحلم والفعل المحتمل القادم، الشيخ رضوان يريد أن يخرجه من حيز الفكر الذي يفترس أحلام الخير القابعة داخله، طه الصامت لا يتجاسر أن ينطق بكلمة ويكتفي بالدعاء له في سريرته، نادر ابنه المتقد بحب الحياة ومباهجها والمتمرد على التسليم لأي إنسان حتى المطاريد بدت في عينيه سعادة ومعالم سرور بادية جلية، هكذا أقرب المقربين إليه يمضون في أحلامهم وأحلام غدهم.

وكانت البداية مبلغًا لم يصدق عينيه وهم يحصونه ويسلمونه إليه، يتأمل وجوههم المستبشرة الفرحة وقلبه مقبوض بصورة غريبة.

يقترح رضوان أن نبدأ باحتفال يجتمع فيه كل أهالي البلد كبيرها وصغيرها، ومن لا يحضر سيكون له نصيب لا يضيع سيذهب إليه حتى باب بيته، مهما كان تعداد الذبائح فقد بانت البشائر ولمستها الأيدي فلم تصبح مجرد حلم، تحسستها الأنامل وتأكدوا جميعًا من صدق الرؤيا، رغم الغصة التي يشعر بها الناظر إلا أنه صنع ابتسامة فوق وجهه وأبدى سعادته ومشاركتهم الفرح، استقدموا قارئ قرآن من المدينة ومرتل تواشيح معروف، بهجة ومتعة ظاهرة فوق كل الوجوه، نصارى موجودون قبل المسلمين، بدأ الاحتفال واستمع الجميع لآي الذكر الحكيم، مجموعة من الدراويش ومن يدعون أنفسهم بالسالكين ينصبون جلستهم للذكر، يزيد تعدادهم عن ثلاثين رجلًا، يبدأون في جلستهم متربعين على هيئة دائرة كبيرة، فوق حُصُرٍ تمتد حتى

تغطي الساحة الكبيرة أمام منزل الناظر، وسط هذه الحلقة قائد الفرقة والجوقة بعمامته الخضراء الكبيرة، مساعدين للقائد بعمائم أيضًا ولكنها لا تصل لحجم عمامة كبيرهم، ينشدون قصائد دينية متنوعة، يمجدون الخالق ويسبحون بحمده ويثنون على نبيه الكريم وآل بيته، ينشدون ويكتفون بالميل للأمام والخلف وهم في وضعهم جالسين، يبدأون ويستهلون حفلهم بقراءة الفاتحة أكثر من مرة، فالشهادة والصلاة على الرسول، بعد نصف الساعة ينضم إليهم عازف الناي وأصحاب المعازف الجلدية من رق وطبل، ينقرون على أدواتهم وآلاتهم بحذق ومهارة، يتوقف الجمع وينصبون صفوفهم، يتولى واحد بعينه القيادة، يميل لليمين تارة ثم لليسار، وكذلك للأمام والخلف في حركة منتظمة، النساء والفتيات لهن أماكن خاصة فوق الأسطح المحيطة بالمكان أو في الخلف، الشباب يشاركون في حلقات الذكر أو حلقات في سمر خاص بهم بعيدًا عن عيون الكبار، تتنوع الجلسات وتزخر الليلة بدخان كثيف من السجائر أو الجوزة والنرجيلة بدخانها المخلوط، حركة وفرح تغمر كل أرجاء البلد، رغم كل هذا فقد كان نادر قد أعطى أوامره لبعض الشباب بالتزام أماكن معينة ومراقبتها بدقة بالغة وخاصة تلك الليلة، تصل أصوات المنشدين والذاكرين عبر مكبرات الصوت للجزيرة فيقيم البهلول حفلًا خاصًّا به، فيشعل نيرانه ويشوي سمكة كبيرة وقعت في شباكه قبل الغروب، فيأكل بنهم وشراهة وسعادة، من يراه وكأنه أحد عبدة النيران، فيدور حول نفسه لكن يذكر الله في كل دورة وهو يتطلع للسماء، يتوقف لحظة أن يفور البراد بالشاي ويخرج من فورته شاي مغلي ينسكب على النيران، يجلس ويهز رأسه ويتولى صبَّ الشاي في كوب صاج ذويد هلالية، متعته لا تضاهيها متعة في تلك اللحظة، تنطلق نفسه على سجيتها غالبًا في أي فعل يأتيه، يتابع القمر ودوراته والنجوم ويوم سطوعها يعرفه ويوم تتكاثر ويزداد عددها في السماء، لا يكلُّ من عمل، أغلب أراضي الجزيرة يقوم باستزراعها، ربما يستعين في بعض الأيام ببعض الفلاحين ممن يجيدون عمليات العزق وتقليب التربة وعمليات الري، فليست كل

النباتات والخضروات تزرع في الجزيرة، يفيض عليه الناظر بنصيب وافر فيذهب به مباشرة لنمر وأمه، لا يحتفظ بشيء له، يدعو الله أن لا ترتفع المياه في النيل حتى لا تغرق أغلب الجزيرة.

***

يتذكرون كيف كانت البداية، تسربت معالم الفرح داخل قلوبهم جميعًا، بوادر انفراجة في مال قادم بعد عقد اتفاقيات بين الناظر وأبو دراع، أشاد الشيخ رضوان برحابة صدر الناظر وسعة أفقه وتفاعله مع الأحداث التي تتابعت، وكل الناس يكاد يقتلهم العوز والحاجة، يشعر بأن صاحبه يقوي عزيمته ويؤازره في الفعل، كيف يشعر الناظر وكيف يقيم نفسه؟ ساهمًا مفكرًا يغوص وتسحبه الأحداث لدنياها ....

أشعر وكأن المتاعب كلها تحاصرني، ضاقت حول رقبتي دائرة الاتهام فكادت تخنقني، قالوا ... لو كان الفقر رجلًا لقتلته، نعم مددت يدي وتعاونت مع أبو دراع ومن معه، قلت من منطق وموقع قوة لا ضعف، حاولت أن أسلخ منه شيئًا أرفع به عن رأس الناس الغمة والفقر الذي حل ولم يرتحل.

هل كنت غبيًّا؟

يعقد يديه خلف ظهره وهو يسير جيئة وذهابًا، كأنه يعود لترديد نفس السؤال على نفسه، أو كأنها محاولة لجلد الذات ....

كانت ثيابهم رثة، ضرب البؤس بمعالمه فوق وجوههم، كابوس حقيقي أن تتحمل فوق رأسك إرثًا لقوم حطَّ عليهم الفقر وترك فوقهم أوزاره ومضى، كنت أشعر أن الله سيحاسبني وخاصة على الأطفال البؤساء التعساء، كان الذباب يأخذ من وجوههم مسكنًا ومرتعًا، كان داخلي يهتز وألعن الأب والأم وألعن نفسي لأنني من نصبوه كبيرهم، شعرت يوم عقدت اتفاقًا مع أبي دراع أن العناية الإلهية تساعدني، وسأحاول بما أناله من مال أن أرفع شأنهم، نعم هو هارب من العدالة لا أنكر، على الجانب الثاني من النهر هل تمرح

العدالة في أضواء المدينة العامرة؟ هنا البقاء للأقوى، في المساء لا تعرف الحكومة الطريق للجبل، يتخلون عنه ويتركونه وأناسه نهبًا لوحوش من بشر وحيوانات، يدفعونهم لقتال بعضهم في سبيل الحياة، يعرفون أن الجبل مأوى ومستقر لأبناء الليل، والمطاريد باعوا أنفسهم وصارت رقابهم فوق أكفهم فلا يأبهون بإنسان كائنًا من كان، وأبناء الحكومة اشتروا الحياة، لا مفر أمامي من المجابهة، ليست جبهة واحدة أحاول أن أدافع عنها، مجازفة ويا لها من مجازفة، أعددت نفسي ومن معي لشن الحرب عليه، المصيبة أنه هو من بدأ وعصابته الملعونة، هل أخالف القانون يوم أبحث عن لقمة خبز لجياع من حولي؟ نعم أملك ما يكفل لي وأولادي الحياة، هل أغلق بابي دونهم؟ إذا فعلت فعلي التنازل عن اسمي وتاريخي وكل ما أملك، أنسى ما منحوني إياه ... كبير العائلة ... العمدة ... الريس ... الناظر، ما من شاب إلا وينادين بكنيتي عنده ... أبي ... عمي ... خالي ... كيف أهرب وإلى أين؟ سأذهب وسأبحث عن فك أسر الفقر المعقودة أغلاله فوق وادينا، الأشجار أصابها الجفاف رغم أن النيل يسري لكن المياه غارت ورفعها للأرض يتكلف الكثير ولا سبيل أمامي سوى الاستسلام، ماذا بوسعي أن أفعل؟ أمامه أضحك وأحاول أن أبدو قويًا لا أهابه ومن معه، داخلي يُصدِر أنينًا موجعًا أكبته وأسجنه.

بماذا أصفه؟

سافل، من حثالة البشر، أنا مضطر للتعامل معه مهما كانت صورته وصفاته، كنت أحاول أن أبث الحياة في الأجساد التي طغى عليها وباء الموت ... أستغفر الله العظيم ... أنا لا أهب حياة، كنت أساعد في مسيرة الحياة، يقسم أنه لا يملك مالًا، لا أصدقه، كان عليَّ حصاره ودفعه أن يعرف بمدى قوتي، زرعت على امتداد الشاطئ رجالًا ببنادقهم المتهالكة، مسافة زادت عن الثلاث كيلو مترات، أطلقوا رصاصهم وفقًا لمنظومة تم الاتفاق عليها، ليس لهم منفذ إلا من خلالنا، كل المراكب راسية في مراسيها، حذرت كل

المراكب على الشاطئ الآخر من العبور، طالت الأيام وفي النهاية استسلم ودفع، وكان جبارًا كما اعتاد الإجرام فكان استسلامه تحت شروط وضعها هو، ولكل شيء مقابل، لكن تمت الانفراجة ووزعت على الجميع ما قنصناه.

لا أطالب أحدًا أن يقدم دلائل شكر، أعلم بأنه لن يرضى عني كل البشر، فالرسل أنفسهم لم يرض عنهم أقرب الناس إليهم، ما أفعله هو واجب ودَين عليَّ سداده نحوهم، شكروا ... لعنوا ... لا يهمني ... أنا لست متهمًا يبحث عن براءة.

لست أدعي أن ما فعلته شجاعة مفرطة، بل يمكن تسميته بعوز شديد يؤدي للخروج عن كل الأعراف والقوانين الإنسانية، يمكن القول إنني حملت بندقية فارغة ووضعت فوهتها في وجه أبي دراع، في نفس الوقت كان هناك من أبناء البلد ممن يرتبطون بنا بصلة الرحم والقربى، من يذهبون للمطاريد فيلعبون ويسكرون ويقامرون ويبيعون حتى رفات الجدود !!!!! وفي كذب مفضوح يقدم دلائل الطاعة والولاء للأهل، أعرف كل أكاذيبه ولا أتمنى أن أبوح باسمه فنفسه سولت له هذا الفعل، محاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه، يحسب بأن العرق يغرق جبهته فيجففه، يتحرك لا يجلس، يتجه بعينيه صوب مجهول لا يراه، الشيخ رضوان وطه جالسان، ما يتحدث فيه يعرفانه بالكامل، يخفت صوته ولا يكاد يصل لأذنيهما فلا يطالبانه بإعادة القول، هما رفيقَا عمره في رحلة تأمين أهل البلد جميعًا، هو الوحيد الذي يتحمل أي مشكلة ونتائجها، لا عتاب قوي على أي منهما، طه يخاف عليه كثيرًا كما يقول، إنه يخاف عليه من وجع الهموم، الشيخ كثيرًا ما تأخذه العزة فيصور نفسه أنه العالم الوحيد في هذا المكان الموبوء بالفقر، أحيانًا يجاهر بعلو شأنه ولكن ليس في وجود الناظر، يتمنى طه أن يتوقف الناظر ويستريح، طه أكثر البشر خوفًا عليه، لا يبغي منه شيئًا يسير خلفه حتى لو كان الطريق إلى الموت، لو كانت هناك قرابين تُقدم لتمنى طه أن يكون قربانًا في سبيل سعادة هذا الإنسان الذي يحمل فوق رأسه هموم البشر، يتمنى

أن يرفع عن كاهله هذا الحمل الثقيل ولو جزء منه، طه لا يجيد زخرفة الأقوال أو نثرها تحت أقدام محبيه، كلماته تحيا في قلبه تعكسها أفعاله فحسب، يسعل الناظر بقوة، يخرج طه من دائرة حواراته مع نفسه، يسرع بكوب الماء إليه، يشرب وكأنه يتعمَّد أن ينساب خيط خفيف من الماء على حافتي فمه، فتأخذ مجراها إلى داخل صدره وكأنه يتمني أن تخفف من حدة النيران المتقدة داخله، ولكن كيف؟

يطرح عليهما سؤالًا مباغتًا:

- كيف صار حال أهل البلد؟

طه يكتفي بابتسامة ويبتلع كلماته، لو كان يجيد الكلام لوصف له حال الناس جميعًا، في خلال سنوات معدودة تغير الحال كثيرًا، انتقل الناس من حال إلى حال، حتى المنازل التي تفوح منها عطانة الجدران تغيرت، تتغير الأحجار الجيرية غير المستوية وغير المصقولة جيدًا في بناياتهم، بنايات جديدة يطفو عليها اللون الأبيض والأحجار الملساء المستوية، يبدأ الناس في تغيير نمط حياتهم، حركة بيع وشراء ومعاملات تتم في السر أيضًا، لكن أصبح الغالبية يملكون المال، ولكنهم يدعون الفقر يبغون المزيد والمزيد، الأولاد اعتادوا على أشياء غريبة كثيرة ودخيلة، أغلبهم يعبرون للشاطئ الثاني يتمتعون ويفعلون أشياء غريبة، ناس الشط الثاني تأتي في المواسم وهنا يقيمون لهم موالد وأفراح وليالي أنس، لكن أغلبهم تباعدت المسافة بين قلوبهم وعقولهم، كيف يصيغ ما بداخله من أماني، ها هو الرجل يتحمل عبئًا يفوق طاقته وكم فعل في سبيل تأمين الحياة لهم وهم لا يهتمون إلا بحياتهم واحتياجاتهم، يصمت ويتجه ببصره صوب الأرض، لو جهر بما يجول في ذاكرته ربما أدمى جُرحًا قابعًا داخل الناظر وهو مهموم بهذا الرجل.

عاد فطرح السؤال من جديد:

- كيف حال أهل البلد؟

نظر الشيخ إلى طه وجده قد خبأ رأسه بين قدميه، كان عليه أن يجيب الناظر فقال:

- المستقبل أمامهم ...

صمت ولم يضف كلمة بعدها، لم ترض العبارة الناظر فتطلع إليه وكأنه يطالبه بمزيد من الوضوح ... فقال:

المستقبل أمامهم ... لقد عملنا ما علينا وتحملنا أضعاف ما يتحمله بشر... عليهم ... غدهم بيدهم ...

صمت ولم يكمل باقي كلماته وقد بدت على ملامحه علامات وشواهد تدلل على الضيق والألم.

عليك الاهتمام بنفسك، أغلبهم كلاب يزحفون على بطونهم من أجل جيفة نتنة، أصبحت أمانيهم محصورة في شهوات وأفعال لا ترضي رب العباد ... كثير من البشر لا يتحملون نعمة الخالق وفيضه بالخيرات عليهم.

- لا تنس يا شيخ إنهم أولادنا وإخواننا ... أنكون نحن السبب فيما تطلعوا إليه؟ ربما ونحن لا ندري.

يقاطعه بحدِّة:

- لقد حملت رأسك فوق يديك وأقبلت على الموت يوم عقدت معاهدة مع كلب من كلاب الليل ... تنازلت بما فيه الكفاية، من لا يعرف ذلك فهو جاحد وملعون.

كلماته تفيض وكأنها تعاود سرد ما فعله الناظر في سبيل غدهم ومنهم كثيرون لا يعرفون، يسارعون في جمع الخيرات وينسون مَن هو مُفجِّر وباعثُ الروح في تلك البلدة الموبوءة القذرة، يلقي لعناته ويقذف حممه المعتادة فوق رءوسهم، لا يكتفي فيصب اللعنة وفي نفس الوقت يقول إنهم سيحرقون أنفسهم بأيديهم، من لا يوقرون كبيرهم ولا يعرفون بأفضاله

تهبط اللعنة عليهم وأمثالهم، فالأولى أن ... يوقف الناظر سيل اتهاماته ولعناته، يصمم أن يستكمل ويفند أسباب غضبه، يصفهم بأنهم غير حريصين على أنفسهم ولا حتى يعرفون تحديد طريق لمستقبلهم، يعيشون معطيات اللحظة بكل مفاتنها وينسون الآخرة، هو حريص أن يغلف أحاديثه بالتقوى والخوف من الله، لكن يرصد ويصرح بزفرات تقطر ألمًا.

إنهم مذبذبون في خياراتهم بسبب عدم تمسكهم بالدين، لا يعرفون المخاطر المحيطة بهم، الجبل وما يفرزه كل يوم من مصائب ويكفي وجود المطاريد، كهوف تنتشر في الجبل لا أحد يعرف نهايتها ولا ما تخبئه من مجهول، أما الجانب الثاني فحدِّث ولا حرج: مدينة تعج بكل متناقضات الحياة وغرائبها، تستقطب نظرهم بكل مغرياتها وتنوعاتها، مناصب مرموقة وعالية الشأن تتسلل إلى الجبل وتتمنى أن تعقد اتفاقات بالمطاريد ولولا عيونك التي ترصد ما يدور لأصبحنا مطية يسوقونها كيفما شاءوا، ليست عقودهم تتوقف على الممنوعات فحسب، إنهم يبحثون عن المطاريد لينفذوا أفعالًا تخرج عن القانون، قتل وسلب وأفعال لا ترضي الله سبحانه وتعالى، بشر من طينة أخرى غير طينتنا، القتل هواية ومزحة يتناوبون فعلها، لقد سقط الدِّين من بين ثنايا قلوبهم فأصبح كل شيء مباحًا بالنسبة لهم، وأموات يحيطون بنا من كل جانب كما تحيط الأسورة بالمعصم ... هل ترى في الغد مستقبلًا وأحلامًا قد ترى النور؟ سيقتلون أنفسهم في النهاية، الحقد عاش في قلوبهم، علينا أن نرفع أيدينا ونتوجه إلى الله بالدعاء، هو المغيث المعين... آآآآآه ربنا يولي من يصلح.

يصمتون، ينظر إليه الناظر وتدور في عينيه أسئلة يكتفي أن يطرح منها سؤالًا واحدًا:

- هل نترك الأمور؟

يتحدث الشيخ عن القضاء والقدر، ورمي القلق وراء الظهور، والغيب لا يعلمه إلا الله، فيصف الناظر كلامه بأنه استسلام وهو لم يعتد يومًا عليه،

فيرد رضوان:

- لن نستطيع أن نمزق حُجب الغيب يا كبيرنا، ما سيكون سيكون رضينا أم أبينا، ستستمر الحياة بأفراحها وأحزانها، فالسحاب لا يتوقف فوق رأس بلد معين، سائرة بأمر ربها يسوقها كيفما يشاء فتهبط في مكان مقفر لا تدب فيه حياة فتتغير معالمه ويصبح جنة بإرادة الله، لن نستطيع أن نغير ناموس الحياة.

يحاول الشيخ أن يخفف من وطأة الأحداث والتخوف من الغد وخاصة على الأولاد، يعلم بما يشعر به الناظر وهو متفق معه، لكن محاولة أن يبعد عنه شبح الخوف المسيطر عليه، يتخوفون من مجموع المتغيرات التي طرأت والمزيد منها قادم في الغد، في حديث الناظر لا يخاف الفقر بقدر خوفه على هويتهم، فيصف يوم كانوا فقراء عاشوا في ظلال حب ومشاركة إنسانية ووجدانية رائعة، فيضيف الشيخ بأن السبب يرجع للتمسك بحبال الحي القيوم سبحانه، ففي وجوه كثير من الأبناء يبدو عدم الرضا واضحًا جليًّا رغم ما يعيشونه من بحبوحة في الرزق، سقطت أشياء كثيرة من منظومة الحياة القديمة، لهم رؤى غريبة أطلت، يضرب الناظر أمثلة بأولاده، فالأول حصل على درجة الدكتوراه وما يزال يرفض مجرد فكرة الزواج وعمره قارب على الأربعين، ويوم يأتي وهو قليلٌ يأتي مشحونًا بالقرف والضيق والتذمر من الحياة التي نحياها، لعناته يصبها فوق رأس كل من يخالفه في الرأي، ظن نفسه فوق هؤلاء الناس ويطرح سؤاله:

- هل تأكلهم الدنيا ... تأكل عقولهم ... تتجمد مشاعرهم وقلوبهم ... يذهبون ولا يعودون ... ؟؟؟!!!!

يحاول الشيخ أن يُجمل الصورة السوداء التي سكنت فؤاد الناظر، مجرد محاولة ليرفع عن الناظر نظرته التشاؤمية رغم أن نظرته هو أكثر سوادًا، فيصف أن ما يقوله أو يتوقعه الناظر بأنها مجرد أوهام، أما عن أولاده فكل إنسان يمر بمرحلة سنية تتغير أفكارها ومتطلباتها، ويضرب مثالًا بسيدنا

الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه:

«ألم يطلب بأن نعلِّم أولادنا ولكن ليس شرطًا أن يكون علمًا كعلمنا فهم مخلوقون لزمان غيرزماننا».

ولكن ما يلبث أن يحول من جديد، يصف ما يعيشونه بالكذب والنفاق، فأغلب رجال البلد يدفعون أولادهم بما هم فيه، يذكر أن أحدهم عندما أخبروه بأن ولده يدخن الحشيش بشراهة وأصبح مدمنًا، ضحك وهو يقول إنها معالم الرجولة، يعتب في حديثه على ناس البلد ويطالب بأشياء هو نفسه لا يفعلها، فيطالب ألا نعامل أولادنا بعنف، كما لا نترك لهم الحبل على الغارب ونطالب أن يسير الفتى على الدرب، فلا مانع أن يدخن السجائر أو يتعاطى المخدرات بأنواعها أو المسكرات حتى، يقولون إنها طريق الرجولة وأن لا يظل الفتى طريًّا عليهم أن يخشوشنوا.

ضحك الشيخ رضوان، وهو يتحدث عن أيام حوصروا ولم يستطيعوا تسليم البضاعة الخاصة بالمطاريد لتجار المدينة، كيف وضعوها في حقائب التلاميذ المدرسية وهم ذاهبون للمدارس، وفي المدرسة قام العامل بتفريغ محتويات الحقائب وقام ومن معه بالمطلوب، يتساءل كم مرة حدث هذا؟ ظهرت بوادر ابتسامة فوق وجه الناظر، اهتزت رأسه موافقًا، تكلم الشيخ وأفصح وفضح أفعالًا قاموا بها، كيف يفسرون هذا بالهروب من الفقر، يمنطق الشيخ الأشياء وفق رؤيته، حتى الدِّين يلوي ذراعه ليتوافق ورؤيته وطموحاته، عندما يفصحون عن الحقائق والأفعال التي قاموا بها يفضحون أنفسهم وتظهر كم استعانوا بحيل كاذبة يتحصنون بها، يكسون ملامحهم وأفعالهم بتقوى كاذبة وهذا ليس جديدًا، فالكل يشعر بأنه صاحب قضية في الدنيا.

يضحكون ويشارك الناظر الضحك يقول الشيخ:

- علينا أن نساير العصر ... ونخلع عمائمنا.

يقول طه الصامت دائمًا:

- نمشي برءوس عارية؟!

يرد الناظر مبتسمًا:

- أظن القبعة (البرنيطة) أسرع في ارتدائها.

لا ينسون الأمس، كيف جابهوا صعوبات الحياة، صلابتهم وعدم استسلامهم، يتذكرون كيف كان الحال، أجساد نحيلة أكلها الفقر، وجوه شاحبة، هزال وشلل، أمراض من أثر الجوع والبرد، حشرات تنشر الأمراض... قمل ... بق ... ذباب ... بعوض ... كائنات بشرية تعاني مِن أهليهم، كان عليهم ألا يقفوا مكتوفي الأيدي، فكروا كيف يكسرون تلك العزلة القاتلة، فكروا في العبور للمدينة، متأكدين بأنها ستلفظهم ولن يستطيعوا مجاراة الحياة فيها، سيكونون فيها كالفئران، صعوبة كبيرة أن يتوافقوا وصخب المدينة الهادر، سكن عيونهم أسى، يرحل يومٌ وينتظرون قدوم يوم جديد فيه خيرولا يأتي، على نفس المنوال تتوافد الأيام وتصيبنا التعاسة ولا مفر من الانتظار، الفقر كما السوس ينخر الأجساد، الغد القادم لن يفرق كثيرًا... قتامة وبؤس، ذكريات لأيام سوداء وقلوب عليلة، يتكلم الناظر:

- كنا مهزومين مقهورين، نحاول أن لا نُظهر هزيمتنا أمام أولادنا ومن أسلموا مقاليد حياتهم لنا.

لا يتذكرون فتلك الأيام وحوادثها مشاهد محفورة وليست مجرد رسوم في خلايا ذاكرتهم

تنهيدة قوية من الشيخ ويقول:

- كانت حياتنا مرهونة بالموتى، نتكسب قوت أيامنا من وراء الموتى وكأننا ندعو أن يزيد الله من الموتى لينفرج كربنا، رهنًا حياتنا في تعاليم مراسم الدفن وبناء الجبانات وتلقين الميت الشهادة والقراءات المطلوبة تعلمناها

نحن في البداية.

بألم يقول الناظر:

- حتى النيل لم يرحمنا ويقدر مأساتنا فغارت مياهه ولم تفلح الرافعات البسيطة في حمل مزيد من مائه لنروي بعض الأراضي لنعيش، آه من حياتنا... نعيش على حافة النيل ونشكو الجفاف، من المتكلم، إنهم يتكلمون بلسان واحد.

«كان صبرنا يفوق صبر جمال الصحراء».

«ظلت قلوبنا على نقائها ... وحبها».

«لم نستسلم وظللنا صامدين».

«نسينا الأفراح».

يمتص صمت الليل الجوع والألم، يعيشون على الموت، يوم يموت أحدهم فلا تكلفة تذكر للموت فالمدافن قريبة، انتقلت عدوى الموتى إليهم فصاروا إليهم أقرب.

صرخات الرياح في الشتاء وعندما تخترق رءوس الجبال وتهبط بكل جبروتها، قد تقتلع مبانٍ وتسويها بالأرض، أنين إنساني مرعب، أما الصيف فكأن الشمس اقتربت من الأرض، كان هناك ملاذ من الحر في النيل ومياهه وطينه.

فرك الشيخ يديه، صفق طه بيديه، ابتسامة طافت فوق وجه الناظر، انزاحت سحابات الألم والذكريات السوداء، جاءت أم نمر بصينية الطعام وفوقها ما لذَّ وطاب، حمام محشي وبط محمر ورائحة طعام تأخذ بلب المتذوق والجوعان.

نظروا لبعضهم ... ابتسموا ... تحولقوا ...

كلمة طه المعتادة وهو يمد يده لبطة يفصصها ويقطعها بين يديه:

- ابدأوا بسيِّد الطعام.

ضحكٌ عبثي، كلمات وعبارات تضيع أغلب حروفها بين الطعام ومضغه واستحلابه وبلعه، يضحك الناظر بقوة من كلمات الشيخ الموجهة لطه بعتاب:

- الرحمة مطلوبة يا طه ... ارحم.

فيرد بدوره ضاحكًا وهو ينهش صدر البطة:

- إنها ساعة يا مولانا تتوه فيها العقول ... فليرحمنا الله.

عقدوا صلحًا مع الدنيا، جادت عليهم الدنيا بالكثير، يخافون جودها الزائد ... يخافون أن ينفخوا في الرماد فيثور ويغرق وجوههم وقد لا ترى عيونهم واقعًا محيطًا بهم.

***

يونس يقتنص الفرصة للهروب، فالبيت في الداخل أمه وإخواته وكثير من القريبات، في المندرة وخارج البيت كالمعتاد جمعٌ لا ينتهي إلا بعد صلاة الفجر، المنزل يعج بالمريدين، تسلل في هدوء، اتجه مباشرة إلى منزل أم نمر، بعد طرقات خفيفة ينفرج الباب ويتعلق نمر برقبته ضاحكًا وملثمًا وجنتيه، تستقبله أم نمر باشة الوجه، يجلس في مكانه المعتاد، يلتصق به نمر في جلسته، أمام الموقد الطيني، ينظر إلى نمر وصدره العريض ورقبته التي يتدلى منها كيسين صغيرين، يبتلع ابتسامته، هو يعلم ما بداخلهما فأحدهما به ملح والثاني به حجاب صغير خطه له أحد المشايخ حتى يبعد عنه عين الحسود، فحياة نمر مرهونة بأشياء كثيرة غريبة، عندما كان يقوم بالليل صارخًا، لم تفلح أدوية أو عقاقير طبية، تتحدث أم نمر في ثقة مؤكدة بأنه لولا بركة الشيخ المسافر الذي يأتي في المواسم، ويستقبله الناظر ويقيم

سبعة أيام كاملة، عندما عرضت عليه نمر وشرحت له حكايته، فنظر في عيني نمر وابتسم وقال عنه إنه مبروك، ساعتها طلب منها أن تضع تحت رأسه مقص، المرأة تقسم بأنه من ساعتها نام وكان شخيره طوال الليل يقلق منامها، أمام جمرات النيران المتقدة وغليان الشاي في البراد الأسود المدفوس وسط النيران، يدفع نمر كسرات الخبز الجافة فوق النيران فتتلون بلون أحمر وتصبح لينة، يقدمها نمر ليونس ليضيف عليها ما شاء من الجبن القديم أو يأكلها على حالها، يشكره يونس، كالعادة تنطلق أم نمر في الحديث وينصت لها كالمعتاد ولا يقاطعها، حديثها المعتاد عن الجن الذي يسكن المقابر، تحذره من القطط السوداء في الليل وعيونها التي تطلق الشرر، أو الكلاب التي تعوي كما الذئاب، فإنها ليست كلاب إنها جن يتقلد بالكلاب، تتفل في صدرها وتتمتم بكلمات لا معنى لها، تدعي أنها كلمات تعصمها ومن معها من حضور الجن لجلستهم، تصف الحالة التي فيها نمر بأنه محسود، يبتلع كلماتها ويوافقها الرأي، كم يتمنى أن يسألها ولم يحسدونه؟ تواصل الحديث وبينما تتكلم تصنع عروسًا ورقية وبإبرة تخرم تلك الورقة وهي تذكر أسماء أناس بعينهم من البلد، تقول إنها تفقأ عين الحسود «عين الحسود فيها عود»، فتبعدهم بهذا الفعل عن ابنها نمر، وكذلك يونس وبعد أن تنهي فقأ كل العيون التي تعرفها في الورقة تلقي بها في أتون النيران المشتعلة، وبعد فترة ترمي بحبات الملح فينفجر وسط النيران وكثيرًا ما يبعثر الجمرات الصغيرة حول الموقد، كلماتها التي ترددها يحاول يونس جاهدًا أن يفسر لها معنى ولا يستطيع، فالكلمات لا هي حديث أو قرآن، يلتزم بالصمت ويترك لها حبل الحدث أو الفعل على الغارب، فتقص عن نمر وما يركب جسده، جسده ليس خالصًا «عليه أسياد»، وهذا هو السبب من البداية في تعثر لسانه، يشبه نمر بحقل التجارب الذي تمارس فيه أمه خرافاتها وما تحمله من حكايات جاهلة، فكم قصت على يونس عن الست التي تسكن الناحية الثانية من النهر ويساعدها الجن في علاج المرضى، فيوم أصاب نمر العجز ولم يستطع المشي على قدميه، ولم يفلح علاج المستشفى في المدينة، وكان

يومها نمر ابن ثمانية أعوام، تكشف له عن جسد نمر، يرى آثاركي بالنيران فوق سرته تمامًا، رآه كثيرًا وخاصة عندما يخلعون ملابسهم ويستحمون في النيل أو يعملان في الأرض، ليست هي الوحيدة التي ترزح تحت تلك الأفكار والمعتقدات، فزوجة عبدالمعبود لم يعش لها أولاد، يوم رزقت بابنها الوحيد أطلقت عليه اسم البغل، قالت هكذا طلب منها الأسياد ويوم أسبوع البغل طافت على كل البيوت تطلب الصدقة والمساعدة لأجل المولود، لم تشتر ملابس جديدة للمولود واكتفت بما وهبه لها أهلها وجيرانها، هذا هو السبب الرئيس أن ولدها البغل ما زال على قيد الحياة وسيتزوج قريبًا، في نفس اللحظة تأتيه كلمات عاشت في ذاكرته منذ زمن على لسان أخوه الدكتور إبراهيم، أخوه الناقم والكاره لتلك الحياة التي يعيشونها، فيصف أفعال البشر بأنها عجز وقلة حيلة وجهل يتبردون فيه، فيقول إن البشر هنا غالبًا يعطون العقل إجازة مفتوحة، متواكلون حتى أن بعضهم اقترب من عبادة مزارات الأولياء، ودعهما ولم يصحب نمر كالمعتاد، أخذ وجهته ناحية مكان محدد كثيرًا ما كان ملتقاه وصحبته، استقبل وجهه نسمات المساء الندية العذبة فاستنشق ملء رئتيه، يهرب وكأنه يمنح لقلبه فرصة ليصفو من ضجيج الحياة حوله، فالمنزل في الداخل ما بين الأم والجدة وإخواته والزائرات ضوضاء دائمة، وفي الخارج رجال كثيرون يخترعون مشاكل لا حصر لها غالبًا لا ترقى لتجسيمها والتهويل من شأنها، يبادل النجوم التحية ويداعب ويسلي نفسه بحوارات:

- نفسي أطير في السماء.

- وإذا حدث ...

- سعادة وجمال ... الله ... سبحانك.

- كل الطيور التي تطير في السماء هل كلها سعيدة؟ وهناك طيور تطير في المساء فحسب ... سعيدة!!!

يعود فيصف العصفور الصغير بأنه مجبر على الطيران، يطير ليجد قوت صغاره في أعشاشها، لكنه سيشعر بالسعادة لحظة صوصوة صغاره وتدافعهم ليتناولوا بمناقيرهم الصغيرة ما علق بمنقاره، وكثيرًا سيحظى برضا عصفورته ونيسته أليس كذلك؟ أعتقد أنه ليست كل الطيور سعيدة، حتى النسر يلعن يوم مولده، كثيرًا ما يشعر بالألم في جناحيه من طول طيرانه، يتمنى أن يصرخ ولا يتحرك من مكانه، لكنه ينسى ألمه لمجرد أن يشاهد طيرًا صغيرًا محلقًا بالقرب منه، فيحلق ويهبط كصاعقة وينقض على الطير الصغير، عمومًا سمعت أن من يبغي السعادة فعليه بغذاء قلبه بالحب والخير.

ينظر صوب السماء، يبتسم وهو يتذكر كلمات عاشقة عن الحب ... الحب لا يقتصر على الإنسان فحسب، الحب يشمل كل مخلوقات الله من أكبرها لأدناها، فالسماء ذكر والأرض أنثى، وعندما يحدث التلاقي فإن ماء السماء يسقط في رحم الأرض فتخرج أولادها بألوانهم المختلفة وأزهارهم المتنوعة وترتدي الأرض أجمل حللها التي خلقها المولى سبحانه، كما الرجل والمرأة تمامًا.

صاغ بشفتيه لحنا يكسر به وحدته وصمت الليل من حوله، استساغته أذنيه وانتعشت أطرافه وتمثلت أمام عينيه صورة «مريم» كحقيقة لا طيف، طرقعت أنامله وكاد يطير سعادة، يتمنى أن يرقص في الطريق فقد تاه في طرب ومرح، تماسك وتخوف ربما يراه أحد من الأهل أو الجيران، فماذا سيقول عليه؟ مؤكد سيقول أصابه الجنون وربما يقص حكاية لا أساس لها من الصحة، القمر في ليلته بدر مضيء والنجوم قليلة تشع ضوءًا خافتًا، وكأن النجوم تباعدت في ليلة الرابع عشر من الشهر العربي، فالقمر الليلة عريس متألق أخذ نصيب الأسد وجذب كل العيون، تلألأ القمر وسط النجوم تناثرت وأصابها الحياء، فغدا ضوؤها شحيحًا، يمضي يقترب من المكان المنشود، كم تمنى أن يجد صحبتهم، لم يجد أيًّا منهم، كم تمنى أن

يسهروا الليلة حتى يطل الفجر عليهم، ينطلقون في أحاديثهم الشجية، أماني وأحلام وأفكار تعربد، يحبون الحياة هل كونهم دائمًا أكثر قربًا من الأموات وبجوارهم يسكنون؟ كانت أغلب أيامهم قبل أن يفركوا عيونهم يضرب آذانهم دعاء بالرحمة على الميت القادم، يسارعون وهم أطفال لينالوا من الصدقة وما تفيض به يد المودعين وما يجودون به عليهم، يتمنون أن يكسروا حدود بلدهم، دائمًا يتطلعون نحو المدينة بنورها بتألقها بجمال بناياتها، كلهم للجامعة ينتمون لكن «نمر» قاسم مشترك في صحبتهم، عمره من عمرهم ويرتبط بيونس بالمشاركة في الرضاعة، ويونس حريص أن يصحبه في أوقات سمرهم بالليل، «شديد» يضفي على ليلتهم هوى مجنون بتبغه المعجون بالحشيش، الشيخ رضوان حريص على وجود الحشيش في جيب الصديري وشديد أقرب أولاده إليه، تمتد يده غالبًا إلى قطعة صغيرة لا يحس بفقدها الشيخ من بين الموجود الكافي، اعتاد الأمر، من السهل الحصول على الكيف بطرق متعددة ولكن غالبًا يحد من التمادي فيه يونس، في كثير من الأحيان يطيعون آراء يونس، الدقائق طويلة وهو ينتظر قدومهم ولا بادرة تلوح أو همس ينبئ بقادم، هل أتوا قبله وتأخر فانصرفوا، جلس مصوبًا عينيه للشاطئ الآخر للنهر، صوت ضربات الأمواج للشاطئ خفيفة هادئة، ألقى بجسده وتمدد متنعمًا بالنظر للقمر والنجوم ومستنشقًا عبق الهواء المحمل برذاذ بخر النهر، طيفها يسحبه من صمته، أظلمت الدنيا كلها من حوله، ولم ترسواها ... مريم ... تربعت صورتها فوق عينيه، يذوب في همس كلماتها الرقيقة القليلة، عندما كان يبدأ يومهم بالرحلة المعتادة للشاطئ الثاني وهم في المرحلة الإعدادية والثانوية وهي ترافق أخته نورا في مدرستها، يختلق الأعذار ليمشي معهما تخوفًا على أخته، نورا قريبة منه في كل شيء، تعلم ما يجيش بقلبه ناحية مريم، لا تحاول أن تضع عراقيل أو تتحدث على أنه حلم وأمل محكوم عليه بالفشل، عندما ترى السعادة في عينيه تأبى أن تنطق بكلمة تحيل يومه لكآبة وألم، في الأيام الباردة والمركب تعبر النهر في غبش الصبح أو بين ضباب ليوم شتوي برده قارس، الناس في منازلهم

أمام مواقدهم يدفئون أطرافهم وكثير منهم يصنع الشاي فوق جمرات تلك المواقد، هم يذهبون لمدارسهم مبكرًا، ينتظر تلك اللحظة يوميًّا، نظراتها وابتسامتها المختلسة كم كانت تبعث في جسده الدفء، في طريق العودة أيضًا يكون عاقدًا اتفاقًا مع أخته نورا بالساعة التي يحضرون للشاطئ ليعبروا للبلدة، يمتع نفسه برؤيتها مرتين في اليوم في الذهاب مبكرًا وبعد الظهر، تكون سعادته لا تضاهيها سعادة يوم تأتي لأخته نورا في البيت.

يلوم نفسه على فعل أتاه منذ زمن ليس بالطويل، مرة واحدة ولم يكررها ثانية يوم كن جميعهن بما فيهن نورا أخته، يوم كن يسبحن ويلعبن في يوم من أيام القيظ الشديد على شاطئ النهر، تلصص وراح يشبع عينيه بمريم وقد التصق ثوبها بجسدها وبدت كل تضاريسه، شعرها الأسود الفاحم تنساب المياه كقطرات منه على رقبتها وجيدها وباقي جسدها، وكأن المياه تكتسب شكلًا لؤلؤيًّا جميلًا، يلتصق الشعر بالوجه والكتفين ويكاد يخفي نهديها الناهدين الصغيرين المختفيين وراء ملبسها الذي التصق فبدت زهرتي ثدييها، تسبح وتضحك وتضرب بكفيها الماء فيتناثر مهرولًا ضاحكًا حولها، ها هي أمام عينيه تنام في جوف القمر، يومها عنفته أخته نورا فقد أحست بوجوده ولكنها أخفت عن قريناتها أنها رأته، خاصمته لأيام وعادت تصالحه، عاشق للسباحة في أيام طفولته وأحلامه وما زال على نفس الحال فيعود متأملا ذكرياته الجميلة، مضى وقت ليس بالقصير على جلوسه وحيدًا، لم يجد مفرًّا من المشي بمحاذاة النهر، يسأل ما شكل عروس النيل؟ هل تشبه حبيبة قلبي مريم؟ مريم تجمع أجمل صفات النساء في الدنيا بأسرها، كم ستكون سعادته يوم يهرب من عيون الناس في بلدهم، يأخذها لمكان بعيد للمدينة على الجانب الآخر، ينظر للبر الثاني، تنهش الأماني قلبه، حلمه الكبير وأمنية عمره بناء جسر يربط بين شاطئِ النهر، ماذا سيحدث؟ ستنقلب حياة البشر في بلدهم، سيمتزجون مع أبناء وناس الشط الثاني، لن تصير بينهم فواصل، سيفر أبناء الليل ويبحثون عن مخبأ بعيد، سيتوارون خلف الجبال الكثيرة ولن يصبح لهم وجود، ستختفي

أشياء كثيرة، ستصل الكهرباء وستنير كل البيوت كما تنير الأفئدة أيضًا، سيقتني البشر أجهزة حديثة ويتغير وضع الدنيا من حوله، سيخرج الناس من حيز الخرافات والأوهام، نعم كان يوجد تلفاز عندهم يعمل بالبطاريات الجافة، ويوم تشغيله أمام الدوار لا تجد مكانًا لقدم، كعادته يمارس نادر أساليب قمعه لمن يخرج عن المألوف، لا يتوانى في ضربه بالعصا ويمكن أن يجازيه بطرده وحرمانه من المشاهدة، هذه الأفعال لا يتقبلها الناظر ويضيق بها، لكن الأب لا ينهره أمام الناس ويطفح على وجهه التذمر والضيق، ممكن أن يغلق التلفاز، يتمتع الناس كثيرًا في حالة عدم وجود نادر وعصبته ومريديه، يضرب كفًّا بكف وهو يتذكر ما كان، واليوم عصفت المتغيرات بأشياء كثيرة، يحب كل البشر ويحب مريم أكثر من أي شيء في الدنيا، يحفظ الأشعار وأحيانًا يكتبها من قريحته، أهدته صورتها منذ كانا في الصف الأول الإعدادي محتفظًا بها قريبًا من قلبه، وأهداها صورته بعدها، كتبت له ما تشعر به وتحسه ناحيته، قلب أوارق الكتب وبحث في دواوين الشعراء والعاشقين ونقل عنهم مشاعرهم فوق أوراقه، ادعى في البداية أنه كاتبها ولكن اعترف باستعارته لها وأنها تمثل جزءًا مما بداخله من مشاعر نحوها.

عندما يجتمعون يفسحون له المجال ليتكلم، يعشقون حديثه وخاصة أحاديثه العاشقة، يصف يونس متى يصبح المكان قطعة من الجنة؟ ... يصمتون ينتظرون ما تجود به قريحته.

عندما تجلس محبوبتي ويكون القمر بدرًا ونكون بمفردنا، تفرد ساقها فأسند رأسي عليه وأنام وأنظر للسماء، أتأمل القمر والنجوم وأنظر إلى وجهها وأعقد مقارنة، أناملها تتحسس وتغوص بين ثنايا شعر رأسي، أغفو وأتيه في دنيا غير تلك الدنيا، همسها يخترق حُجب قلبي، يبذر بذور العشق فتنبت، تنير كهف الروح فتصفو الحياة وتكون اللحظة يوم عيد يُخلَّد في ذاكرتنا، أتوضأ من نور عينيها، أقيم الصلاة لرب العباد وأدعو لكل البشر ليشاركوني إقامة طقوس المحبة، هل انتظر العميان مقدم يوسف عليه

السلام؟ جماله أضاء نور عين يعقوب عليه السلام، سيأتي فترى عيون كل العميان الجمال، تعالى يا جميل المُحيا واسكب بطلعتك البهية فوق القلوب المُحبة، يوم يسير الشجر خلف العاشقين يظللهم فتتمدد ظلال الأشجار وتحضن كل البشر!!!

يضحكون ويهللون ويصفونه بالجنون، لا يبالي ولا يستسلم لكلماتهم:

«أنت حالم ... قريبًا ستحترق الأرض».

«لا تخف ستنبت لقلوب العاشقين أجنحةٌ».

«كما الشعراء ينقشون كثيرًا أحاديثهم فوق صفحة المياه».

«في البداية ... كل رسالات السماء لم تستهو البشر ونال الرُسل الإهانة تلو الإهانة، بمرور الزمن أصبحت دعاوى دِين الحب محفورة فوق صخور الجبل راسخة».

«يُختصر تاريخ الإنسانية في رجل وامرأة».

«أفضلُ البشر في الدنيا من يستمد قوته من الخوف من الله».

في عبارته الأخيرة ملاذ إلى الله يعشش داخل قلوبهم جميعًا، يتفاعلون مع جمال عبارته ... يصفقون له ... يقول وقد توضأ بكلمات الحب والخير:

عندما أتعمق في القراءة وتنتابني لحظات الفكر، وأتوه في دنيا الله، أشعر بضخامة المجهول من حولي ... لكن لا أستسلم.

دائمًا ينظر يونس برؤية خاصة للحياة، فيفصح عنها بين أقرانه ومحبيه، فيقول إن الثراء الحقيقي يمكن أن يكون في الحب والمودة ويوم ترفرف أجنحة السلام فوق الجميع، لكن هل البشر مستعدون لتقبل فكرة الحياة الجديدة؟

كانت نورا أكثر الناس ارتباطًا بيونس، تسبح في كلماته وتقرأها وقد

تحفظها لجمالها، كانت برفقته أغلب أيام الدراسة في ذهابهما وعودتهما، لا يكلُّ من صحبتها، كانت بطبيعتها المرحة تطلق أسهمها بأن هناك دوافع لذلك، يستجير منها بها ... ألست توأمي؟ شاركتني كل شيء، تضحك وتطالبه بكتاب معين تقرأه أو يصحبها مرة إلى المدينة ...

نورا قطة البيت المدللة، عندما تعود من المدرسة تملأ البيت صخبًا وضجيجًا محببًا، دائمًا متألقة مستبشرة وكأنها تملك الدنيا وما فيها، تردد أغاني أم كلثوم ونجاة خلسة ولكنها تفصح بها في وجود يونس، مجرد أن تطأ قدماها البيت تسرع لتطبع فوق خدِّ أمها قبلة، الناظر يستسلم لمداعباتها ولا يسلم من طلباتها، يصدر أوامره ليونس بسرعة تلبية حاجتها، يبتسم ويعلن بهزة رأسه بالاستجابة لأوامر أبيه، حتى أم نمر شبه المقيمة في منزلهم لا تسلم من مداعباتها بالكلمات أحيانًا وبأناملها الرقيقة، قد تغمزها في أي جزء من جسدها على غفلة منها، تكاد تقفز المرأة في الهواء من المفاجأة، رقة مشاعرها ورهافة حسها تتواكب مع جمال تقاطيع وجهها، مبتسمة على الدوام، ضحكتها تطرق مسامع صحبتها في ود وتناغم بلا صخب ولا افتعال، مصباح يشع ضوؤه، نورا في جنبات المنزل والمكان الذي تتواجد فيه ... تقول أم نمر:

- ست ستات الدنيا ... تقول للقمر قوم وأنا أقعد مكانك ... كلامها زي الميه الزلال ولا العسل النحل المصفى ... من بنات الحور ولا حمامة بيضا بياضها أكثر من بياض شال سيدي الناظر ... ضحكتها تنور الليل اللي قمره حجباه السحاب ... أصل أمها الأصل وستها وهيبة يتحاكوا بجمالها الناس لغاية النهارده ...

تضحك أم نمر وتعقد مقارنة قائلة:

- هتطلع لمين؟ ... لأم نمر!!!!

تحتضنها بقوة وتقبلها قائلة:

- حبيبتي يا أم نمر.

***

أم نمر دائمًا تقول وتفتخر بأنها أرضعت يونس، فقد شاءت الظروف أوان ولادته أو بعدها بشهور قليلة أن مرضت الأم مرضًا أقعدها فلم تتحرك من سريرها، باتت أم نمر معينة وراعية لها بل كانت أكثر من مجرد خادمة، كثيرًا ما باتت معها وإن ذهبت إلى بيتها فلا تترك يونس، كانت تأخذه معها لمنزلها، ترضعهما معًا فصار يونس ونمر كتوأمين، تقول دومًا وابتسامة فوق محياها:

«يونس ابن سيد البلد وولدي نمر خدامه».

كانت تردها أم إبراهيم زوجة الناظر بأنهما إخوة دائمًا، لكن أم نمر تصر في كلماتها بنعته بخادمه والجالس تحت قدميه طول عمره، بمضي السنين كُلٌّ يمضي في طريق، يونس يذهب للمدرسة وتظهر على نمر علامات وبوادر تخلف عقلي خفيف، فيجد صعوبة في نطق الكلمات، وإذا أثير أو غضب فلا يستطيع أحد أن يتبين معاني ألفاظه التي ينطقها، يشتد عود نمر ففاق يونس طولًا وعرضًا وعافية، كان يفعل أي شيء في سبيل راحة يونس، ففي أثناء الحصاد كان يقوم بعمله وعمل يونس ويصر ويدفع يونس للجلوس مستريحًا، ويونس بدوره حريص عليه فلا يمر يومًا دون السؤال عليه، كان يأخذه معه للبر الثاني في المدينة، كانت تغمره سعادة لا حدود لها، المشكلة الوحيدة التي تقابله في صحبة نمر كون نمر يعشق المشي حافي القدمين، كم حاول أن يحول بينه وتلك العادة وخاصة عند الذهاب معه للمدينة، أمام إصرار يونس يطيعه مرغمًا، فيأتي له بحذاء خفيف ليضعه في قدميه، بعد جهد كبير وبعد أن خيره ما بين المضي معه للمدينة بالحذاء أو عدم الذهاب وعدم مرافقته، يمضي جانبه أو خلفه في سعادة تعكسها شفاهه المنفرجة، أكثر من الكلب الأمين المطيع، وعندما يرجعون للشاطئ الثاني وما أن تطأ قدماه الأرض فأول الأشياء التي يفعلها يخلع النعلين وينطلق،

سعادته بالغة وهو يسابق الريح، لا يتألم من أرض خشنة أو من أحجار صغيرة مدببة، كان يشعر بمتعة كبرى يوم يصحبه يونس وصحبته إلى دور السينما، في البداية بدا متخوفًا فانكمش في نفسه والتصق بجسد يونس النحيل بالنسبة له، بمرور الأيام صار عاشقًا ولكن لا يوجد سوى يونس الذي يرحب ويصحبه معه، أعجبته أفلام الكاوبوي الأمريكية ورعاة البقر وسباقات خيولهم حتى ملابسهم، كثيرًا وهو في المساء بصحبة يونس ورفاقه يقلد الخيول ساعات انطلاقها، يجري في الطريق وبطرقات أقدام وأصوات يطلقها من فمه مصاحبة لحركته فتشبه كثيرًا طرقات أقدام الخيل فيثير ضحك يونس وأصحابه، سعادته لا تضاهيها سعادة ساعة ابتسامة يونس.

يجتمع يونس ورفاقه على شاطئ النهر فيسبحون ولا أحد منهم يستطيع أن يجاري نمر في السباحة والغطس لفترات طويلة، في ليلة لا تضيع ذكراها من حياتهم، بعد صلاة العشاء وأثناء سهرتهم المعتادة، وفي ساعة من ساعات التألق يبدي «شديد» أمامهم حاجته الماسة لسيجارة ملفوفة، يعرفون بأنه سرق من أبيه الشيخ قطعة كعادته، يتناولونه بمقذوفات من كلماتهم المداعبة وهو يغض الطرف وترتسم فوق شفتيه ابتسامته الواعدة، من يقول حرامًا، ينظر شديدُ إليه ويطالبه بأن يقول هذا في وجود الشيخ، أو يقول بأنه سيبلغ الشيخ بأن فلان قال تدخين الحشيش حرام، يخافون يستسلمون ... من يستطيع أن ينقض فعلًا يأتيه الشيخ؟ أول من علمهم كيف يخطون الخط ويرتلون القرآن، لا يجرؤ إنسان يومًا أن يخالفه في الرأي، فأبدى الجميع سعادتهم بفكرته وأيدوه أن يبدأ في صناعة سجائره المحلية الصنع، ضحكوا فجميعهم يشاركونه ولكن لا يوجد منهم من بشراهته، فلا يمر يوم إلا وشديدُ ينفث دخان السجائر المعبأة والمخلوطة بالأخضر كما يسمونه، أما بقية الصحبة بما فيهم يونس فهي لحظة مشاركة مرحة فحسب، جلسوا في شكل يقترب من الدائرية، فتح ساقيه ومد جلبابه وأخرج أدواته المعتادة من السجائر وورق البفرة وقطعة الحشيش، جعلها تدور عليهم فيستنشق كل منهم رحيق وعبق رائحتها

ويطلق آهته، أبدوا سعادتهم بجمال زيتها، يبدأ شديدُ بتسخينها بعود ثقاب مشتعل فتتفتت ذراتها فيفركها بين أصابعه، يحاول دائمًا استظهار قدراته وحنكته التي لا يضارعه أحد منهم فيها، على غير المعتاد ووسط إعجابه بمهارته تهب نسمة ريح من فوق صفحة الماء فينتفخ حجره وتطير محتوياته في الهواء، تتبعثر أمانيهم وخاصة أمنيته هو، يضحكون ويندبون حظهم لضياع وتبديد حلاوة ليلتهم، ظل شديدُ ساهمًا مهمومًا بصورة غريبة، نظر إلى يونس مستنجدًا بأن يحاول أن يبعث لأي إنسان يطالبه بقطعة صغيرة، أَبَى يونس ورفض، وسط دعواتهم ورجائهم أن يحاول أن يعيد إليهم بهجة الليلة قبل أن ترحل، طالبوه أن يرسل لنادرولن يتأخر أخوه عنه، وكأن جسده أخذته رعشة لحظة نطقوا باسم أخيه، أقسم أن آخر إنسان لو فكرت أفعل هذا هو أخي، اقترحوا حلولًا تقيهم شر الهم الذي حاصرهم، فكان أفضل الحلول أن يرسل يونس للنوبي المراكبي يطالبه بقطعة يقضون بها ليلتهم، هم يعرفون أن النوبي لا يكسر كلمة يومًا للناظر أو أحد من أولاده وخاصة يونس، حتى المراكب التي يعمل عليها النوبي فهي ملك للناظر فكيف لا يلبي طلبًا لابنه، تكاثروا عليه مطالبين بحقهم عليه أن يفرج كربهم، لكن النوبي الليلة على البر الثاني فكيف يذهبون إليه أو مَن يذهب إليه؟ فالليلة كالمعتاد يحمل المركب الكبير طوال الليل بالمواد التموينية الخاصة بناشد التاجر كعادته كل أسبوع وباقي الأيام يسوق المركب الصغير ذا المجاديف، ينظر نمر إليه نظرات يعرف يونس ما ترمي إليه، دائمًا يبعده عن أي شيء يكون فيه أذى، يتحدث بلغته المعتادة المطموسة المعالم أحيانًا، فهموا ما يود قوله فصفقوا وراحوا يحيون نمر وشجاعته، نمر لا يتحرك إلا إذا أمر يونس، ينظر يونس إليه مستغربًا وكأن ما يقوله هو عين الجنون، اهتزت رأس يونس ممتنعًا ولكنهم ترجموا فعلته بأنه يطالب نمر أن يذهب للنوبي، فصرخوا جميعًا بأن يونس يريد ذلك، لم ينتظر كثيرًا، قام من فوره فخلع عن جسده ملابسه ولم يتبق سوى سرواله الداخلي، استعار من يونس شاله القطني وربطه فوق رأسه، استغربوا فعلته بالشال ولكن يونس قطع

أفكارهم بأن نمر يريد أن يثبت للنوبي إنه قادم من طرفي، عرفوا ما يرمي إليه نمر، أسرع وألقى بنفسه في النيل ويونس تأخذه الدهشة وأصبح ساهمًا وقد ذهب عنه الفكر وكأن لسانه التصق بسقف حلقه، حاول الحديث فلم يستطع ولم تجد محاولاته نفعًا في فك أسر لسانه فاستسلم لصمت قسري، في خلال ما يقارب ربع ساعة لم تخرج من فم أي منهم كلمة، أدركوا بعد فوات الأوان ما قد يترتب على فعلتهم، صمت خانق رغم نسمات المساء، يأتي أحد زملاؤهم وقد تأخر عن مجلسهم، كان قصيرًا هزيلًا، صاحب لسان لا يسكن في جوفه، ألقى باعتذاره وجلس، وجدهم على غير حالهم، سألهم:

- ما الأمر؟

لم يرد أحد عليه فواصل:

كان هناك ظرف طارئ هو ما أخرني عنكم.

لا يجد استجابة لكلامه:

إذن لا تودون أن أجلس معكم ... شكرًا أنا عائد.

ما كاد يتحرك، امتدت يد شديدُ ولوت طرف جلبابه في يده وبقوة سحبه فدفعه للجلوس عنوة، ينظر وينتقل بعينيه بينهم، فيقسم بأنه سيمضي، معروف عنه لا يؤتمن على سر، ترددوا في القص عليه فكثيرًا ما يجاهر بأي فعل أو حديث، اضطروا أن يقصوا عليه الحكاية، كما توقعوا فلم يستطع الصمت، راح يؤنبهم على فعلهم، كيف سمحوا لهذا العبيط أن يسبح للشط الثاني والعودة، بدا وكأنه أُنثى تندب حظها وهو يتحدث، تملكه الخوف، وألقى خوفه في قلوبهم برعب أكثر مما هم فيه، راح يزيد ويعيد في كلامه، لم يتمالك شديدُ نفسه فأخذ يصب فوق رأسه اللعنات، همَّا أن يتشابكا ولكن المجموعة حالت بينهما والتمادي في المشاجرة، مضى في طريقه عائدًا من حيث أتى واتخذ وجهته صوب القرية، تأكدوا بأن صاحبهم لن يصمت وسيقص ما حدث وكعادته سيزيد عليه من بنات أفكاره الكثير،

سيلقي أهل البلد عليهم باللوم بما سيحدث لنمر، توجست قلوبهم خوفًا مستترًا، كل منهم يتهم الآخر بأنه السبب فيما قام به نمر، صاحبهم وكما توقعوا خائف أن تشير عليه الأيدي بأنه شريك في جريمتهم، أسرع بالحكي وفي سرعة غريبة تناقلت الأفواه الخبر، ستلتصق بهم تهمة قتل نمر، أو بمعنى أصح بأنهم السبب المباشر وراء غرقه في النهر، كيف يروون حكايتهم؟ كيف يدافعون عن أنفسهم؟ هل هم من دفعوا نمر؟ ستشير كل الاتهامات إلى يونس فمعروف أنه يملك أدوات تحريك نمر في أي اتجاه يريد، يونس صامت ويشعر بالذنب والإثم الذي ارتكبه، هو سبب مباشر في ذهاب نمر كان بإمكانه أن يمنعه، يعاود ويسأل نفسه معاتبًا، لماذا لم أمنعه؟ بصورة لا إرادية قاموا من أماكنهم وتجردوا من حالتهم الواهنة، لا يتكلمون ولكن يتحركون، يخترقون حاجز الشاطئ ولكن لا يتوغلون، تحاول عيونهم أن تستطلع الأرجاء حولهم وخاصة سطح الماء، يصيخون السمع علهم يسمعون صوتًا قادمًا يستنجد أو يستجير، أو مجرد ضربات ليد سابحة في اتجاههم، يونس يحس بأن جسده وجبهته خاصة تنز عرقًا باردًا غريبًا، أصوات تخترق آذانهم ولكن من أين هي قادمة؟ ليست من داخل المياه، لا يعرفون مصدرها جيدًا، صرخات تنبش صمت الليل قادمة من ناحية القرية، ينظرون في ذهول، مشاعل كثيرة متقدة مرفوعة ترفع ستر الليل وتتحرك مقتربة منهم، ركبهم الخوف، اقتربوا ولم يجد أي منهم ما يقوله، أفئدتهم مشحونة بآلام وتوتر، وكأنهم أمام وحش سيهاجمهم فاقتربوا أكثر وتحصنوا ببعضهم، ويدور في أذهانهم كيف سيواجهون، يتساءلون بم سيجيبون وماذا يفعلون؟ سيطر الخوف على معاقل قلوبهم وعقولهم فتوقف الفكر والفعل، خرجوا من الماء فلم تستطع أقدامهم حملهم، جلسوا فوق طين ورمل الشاطئ صامتين، يقترب هدير البشر منهم، ألقت المشاعل أضواءها على وجوههم التي ذهبت منها الدماء، تقدمت صوبهم أم نمر وهي تصرخ وقد تمزقت ملابسها، ألقت بنفسها على يونس الجالس مبهوتًا ولا يستطيع الحراك، تندب وتصرخ وتسأله ... أين نمر؟ كيف ذهب؟

ومن أذن له بالعوم في الليل؟ وكأنها تذكِّره بما نسي وتعرفه بأنه ونمر رضعَا من ثدي واحد، تشير بأنه أخوه في الرضاعة وتسأل من جديد كيف يترك الأخ أخاه يموت؟ لماذا تركه؟ تصرخ وتولول وترتمي فوق الأرض وهو لا يستطيع كبح دموعه التي تسيل لا إراديًّا، فكم يحب هذه المرأة، قلبه وكأنه كاد أن يتوقف، تتساقط دموعه بغزارة ويحاول إيقاف سيلها ولا يستطيع، آهاته زفرات من قلبه تكاد تمزقه، يريد أن يقول لها إنه لم يطلب منه، تذهب الكلمات والعبارات، سيل منهمر من أنفه وفمه وعينيه يختلط المخاط باللعاب بالدموع، تأخذ جسده رعشة غريبة مباغتة، بعضهم خاض في الماء بمشاعلهم، يبحثون ويحاولون أن يعثروا على جثة الغريق وهذا أضعف الإيمان، بالطبع إن كان غريقًا فلن تظهر جثته في هذا المكان، سيدفعها التيار أمامه ناحية الشمال، عليهم أن يتجهوا صوب الشمال أكثر، أرسلوا في طلب المراكبية وتوافد أغلب البشر من القرية على عجل، حركة صاخبة ووجوه تبحث في الظلام ولكن تعلم أن النهر غير مأمون في المساء، بعضهم يتراجعون وبعضهم خَبِر النهر من زمن طويل ويدرك موضع قدمه، تقدم ولكن في حذر بالغ، تقدم بعضهم للأمام.

اخترق نادر الحشود وهو راكب فرسه حتى وصل فوق رأس يونس، أفسحوا له الطريق، دفع أم نمر للخلف، احتضن أخاه في صدره، زادت حدة تشنجاته ودموعه ورعشاته، لف ذراعيه حوله وضمه بقوة بين ذراعيه وهو يربت على صدره، خلع عن نفسه شاله الصوفي الكبير ودثره به، المرأة تصرخ وهي تحدث الجموع وكأنها أصابها الجنون، تطالب الجميع بأن يرجعوا لها ولدها، تلقي فوق رأسها بالرمال المخلوطة بالتراب، تتحدث بمصابها في وحيدها، تقص عليهم وهي تولول كيف تعيش بدونه، تتحدث بمآثره عليها فتضفي عليه صفات لا قِبل له بها، لكنها لحظة حزينة فلتطلق ما شاءت من زفرات وصرخات، تعود وتهيل التراب فوق رأسها، كثيرون يتجمعون حولها، يحاولون تهدئتها ولكن لا هدوء ولا سكينة تطرق قلبها أو صوتها، يصرخ أحدهم وهو يسرع بالخروج من الماء:

«جته عايمة».

تشير يداه في رعب ظهر جليًّا من ضوء المشاعل الساقطة فوق وجهه، ينطلق عدد من البشر إلى داخل المياه، والجميع يصوبون نظرهم ناحيتهم، تجمعت المشاعر فصنعت بؤرة ضوئية قوية فأنارت سطح الماء، يقف يونس على قدميه يتحرك إلى الشاطئ ومجموعتهم رغم أنهم تفرقوا في كل اتجاه تحركوا أيضًا، الجميع ينتظرون ما تسفر عنه باقي الكلمات، تعقد الدهشة لسانهم جميعًا وهم يرون نمر وهو يسبح صوبهم، يصرخ أحدهم

«نمر جه ... نمر جه».

نمر قادمٌ سابحٌ وفوق رأسه شال يونس الحريري، يفلت يونس من بين يدي أخيه ويلقي بنفسه في الماء ويجاريه آخرون، يسحبون نمر للشاطئ، معالم الدهشة فوق وجه نمر تفضحها المشاعل الكثيرة، تأخذ المرأة نمر في أحضانها وهي تلثم كل جزء من جسده تستطيع أن تصل شفتيها إليه، تستمر في بكائها ولكن بلا قبضة ألم في قلبها، يستغرب نمر الوضع الذي يراه حوله، لا يهتم بكل الموجودين، مهموم بأن يستر جسده العاري، ينظر تجاه يونس والبهجة فوق وجهه، يصرخ صرخة النصر التي كثيرًا ما يسمعها ويشاهدها في الأفلام الأجنبية، يسلم يونس شاله الجاف الذي لم تمسه المياه، ويخرج قطعة من الحشيش كبيرة ملفوفة في كيس بلاستيكي صغير، يعطيها ليونس ويكمل ارتداء ملابسه بين ذهول الجميع ووسط ضحكات وتعليقات أغلبها ساخرة، بعضها كلمات جارحة لمجموعة الشباب كلهم، ينفض الجمع تباعًا، يسأل نمر يونس عن السبب في وجود كل هؤلاء البشر، يحتضنه يونس، أما نادر فتأخذه نوبة من الضحك وهو يشاهد الموقف ويقول:

«أقسم بالله شوية عيال في الجامعة بس مجانين».

يقترب نادر أكثر ويهمس في أذن يونس بكلمات ويغمزله، يحاول أن يحلف

له ويقسم، يضع يده على فمه ولسان حالِه يقول له: يوم تحتاج للحشيش فما عليك إلا أن تسألني أولًا. يحاول يونس أن يدافع عن نفسه ثانية ويقسم بأنه لا يدخن حتى السجائر، يتركه ضاحكًا ويقفز فوق ظهر الحصان الأسود المشهور في البلد كلها بل في البلاد المجاورة أيضًا، فهذا الحصان مهما كانت الدنيا ومآسيها وفقرها له في اليوم الواحد أكثر من كيلو سكر كامل، يوكز فرسه بركابه في بطنه معلنًا السير، يكاد الفرس يطير من فوق الأرض وخلفه عاصفة من التراب والغبار.

يقترب نمر من يونس ويعيد السؤال في همس ... عن السبب في وجود كل هؤلاء الناس، يكاد يونس أن ينفجر في الضحك ويود أن يقول له:

«إنهم حضروا ليشاركوهم أنفاسهم».

بعد تردد يميل على أذنه ويقول ما كان يتمنى، تبدو علامات التعجب على وجه نمر ويسأله:

«هل يذهب ثانية للنوبي ليأتي بقطعة أكبر».

يضربه في صدره ضاحكًا ويتعانقان، يضحكان، تقترب مجموعتهم من بعضهم يتمنون أن يصرخوا وأن يحتفلوا، يضحكون فيضحك أغلب الجمع باستثناء القليل الذين يبدو على وجوههم التذمر والضيق من أفعال الشباب، أم نمر تحتضنهما بين ذراعيها، مجبرون على العودة إلى القرية بين تلك الجموع، تتسلل يد شديد فيسحب قطعة الحشيش من بين يدي يونس وهو يبتسم، يتركها له وعلى موعد للغد، في طريق العودة وقبل الوصول للبيوت تنتشر شائعات منها.

«جنية البحر خدت نمر وعدت بيه للناحية التانية وما اتبلش ميه»

«جنية البحر ندهت نمر من بين صحابه، قام نط جوه الميه وأتجوز الجنية وعاد في ساعتها».

-٥-

كم جميلة الحياة؟

نادر

لا يختلف وضعه بين أقرانه عن وضع أبيه بين كبراء وعواجيز القرية، دائمًا هو في صدارة المشهد، ترك التعليم بعد المرحلة الإعدادية، شهد له مدرسُّوه بالتفوق ولكنه أَبَى أن يكمل تعليمه وكانت فرحة أبيه بهذا القرار كبيرة ولكن لا يبوح بذلك، الناظر يحتاجه في مهام كثيرة وهو أفضل من يقوم بها، تزوج في العشرين من عمره ولم يستمر الزواج أكثر من ثلاث سنوات بعدها عزف عن مجرد التفكير في الزواج، أهم التكليفات المنوطة به في تلك الأيام كانت مراقبة الشاطئ وأن لا يمر إنسان بمركب كبير أو صغير، شراعي أو غير شراعي إلا ويعرف وجهته.

تنطلق أحلامه من منبت حياته، تتجاوز حدود القرية، كم تمنى أن يكشف ويكتشف ما يخبئه الجبل وسلسلة الجبال التي تليه، كثيرًا ما صعد قمته فيجد مساحات شاسعة قاحلة، صحراء مترامية وأطرافها لا حدود لها، ضواري تسكنها، رمال محترقة بفعل الشمس التي تلهبها طوال النهار، حجارة وصخور ألوانها متغيرة لكنها ما بين الأصفر والأسود وأحيانًا يكشف جوفها عن حجارة جيرية بيضاء، مجهول بامتداده وكأنه يمضي حتى يعانق السماء، تنطلق عيناه ولكن لا تستطيع أن تسبر غور الجبل.

منذ طفولته وأقاصيص الجدة وهيبة تغزو فؤاده فتنمو وكأنها حقائق، عشق أن يذهب للمجهول، تنطلق عربات الزمن بلا عودة وتضيع الأحلام، الواقع المهموم يبسط رداءه فيزيح الأماني الغافية داخل الصدر بآفاقها الطموحة، يتحور حلم الغزو الخارجي لداخلي، كان عليه أن يصنع لنفسه

مكانة هنا بين أهله وذويه، يعرف قيمة ووضع أبيه بين الخلق ويأخذ مكانته كونه ابنه، يبحث عن وضع لذاته يحفره فوق عقول البشر من حوله خاص بذاته وبفعله، أن تبزغ شمسه باسمه وقدراته هو، فأبوه لا يعيش لذاته ونفسه، كل الناس لها حقوق في رقبته وهو أسير، ينسى نفسه ويعيش لهم ولكن كثير منهم لا يشعرون بمعاناة الرجل، هو يُمني نفسه بمكانة تتجاور ومكانة أبيه، ولكن شرطَ أن لا يكون صورة طبق الأصل منه وأن يبحث عن ذاته أيضًا، يسعى بتغيير تلك الحياة التي تنشطر لنصف فارغ تمامًا، ونصف يمتلئ بالتلال الرملية والجبال اللانهائية والمدافن والأموات وحيز الأراضي الزراعية الضيق والبشر شبه المعدمين، ومطاريد يرسمون حاجزًا للخوف يعلق بالقلوب، يصف الدنيا حوله بالجحيم ولا يعيش فيه سوى الشياطين، لتكن أفعاله وأقواله تقترب من الشيطنة حتى يستطيع الحياة في ذلك الجحيم المقيم كما يصوره لنفسه، فالموت قادم في كل الحالات والموتى ومقابرهم تطالع وجهه مع كل شمس تشرق ليوم جديد، فكان عليه أن لا يتسامح ولا يعفو بسهولة ومن يفعل فعلة عليه أن يتحمل وزرها، يشعر بأن الرياح الآتية تقذفه بغبار محمل برمال حارقة تصفع وجهه فتهيج ذاكرته، لا يستطيع الإفلات من قسوة الفكر التي تنتابه، أفكار متضاربة تتقاذفه في نشوة يستسلم لها عقله ووجدانه.

لم يكمل عامه الثاني عشر، ويشارك العاملين بأرضهم العمل، في يده معول ذو رأس مدبب حديدي، كانوا يهدمون بقايا لأثر قديم لا يعرف أحد مكنونه وتاريخه، كان مشيدًا بالطوب اللبن وكأنه كومة فوق بعضه لا تعرف له بابًا من جدار، ضربة قوية تناسب عمره في ذلك الوقت فتنكسر قطعة كبيرة من الأثر الطيني المتراكم، تظهر فجوة متسعة بعض الشيء، يبزغ من وسطها ثعبان ضخم متكورًا حول نفسه، يرفع رأسه مستعدًا للهجوم فتنتفخ رقبته ويصدر فحيحًا مرعبًا، ما زال نادر رافعًا معوله لأعلى، شدة الخوف جعلت ردة فعله عنيفة وقوية وثابتة، ذهبت الدماء من وجهه فضرب ضربته بكل خوف ورعب، فاخترقت رأس المعول المدببة

عنق الثعبان المنفوش وغرستها في الأرض، يضرب الثعبان بجسمه محاولًا الإفلات، جسم الثعبان ينتفض بقوة ويلتف حول المعول الذي تركه الفتى وتراجع للخلف خطوات، يرتفع ذيل الثعبان لأعلى فيفوق طول وقامة الفتى، ينظر الرجال ويصرخون ويهرولون هاربين، لا يستطيع الحراك من مكانه، كل أعضاء جسده تجمدت فسكن في موضعه ناظرًا لجسم الثعبان، يتمنى أن يصرخ فلا تسعفه شفتاه أو لسانه أو حلقه الذي جفَّ، في وجلٍ وخوفٍ يقتربون وقد شعروا بمدى جبنهم فيسحبون عصيهم ويدفعون الفتى للخلف ويواصلون ضرب جسم الثعبان حتى ينفصل الرأس عن باقي الجسد، يتعدى طوله المترونصف، كان الرأس هو الجزء الأهم فواصلوا الضرب عليه فلم يبق له أثر، ينظرون إليه وفوق وجوههم ابتسامة تشيد بالفتى، هو ما زال متجمدًا في مكانه، يذوب ثلج الخوف من فوق جسده، تنفرج شفتاه عن ابتسامة لا تعكس ما بداخله من خوف، يكادون يرفعونه عن ظهر الأرض، يشيدون بالفتى وجسارته وقلبه الحديدي، كالمعتاد في حياتنا ننقل الأخبار ونضيف عليها ما شئنا من صور بليغة، فنكسب الأولياء صفات لا قِبل لهم بها، ما نفتقده نصيغه فنجمِّل به ونزيِّن حياتنا التعيسة كالمعتاد، أطلقوا على الفتى النادر منذ هذه الواقعة وصاغوا حكايات فتواصلت في عِقدٍ فوق صدر الفتى، نفخ ريشه وصار كديك رومي، أقرانه يتقربون إليه ويرفعونه بينهم، مكانته من قبل وكونه ابن الناظر تجعله أعلاهم شأنًا، وتمضي الأيام لكنها ليست على وتيرة واحدة، وكأنه يبحث عن دور فجاءَه مهرولًا ولثم قدميه، لا يبوح بما يخالجه من مشاعر، لا يتمنى أن يسلك مسلك أخيه الأكبر فيبتعد عن التعليم، يتعلق بكل أفعال الطيش والشباب، يهوى ركوب المصاعب ويعشق القفز فوق ظهور الخيل والدواب عمومًا، يرفع البندقية الآلية ويطلق دفعة كاملة من الطلقات، تتوالى كلمات الإعجاب وبعدها يرفع نفس البندقية بساعده الأيمن فقط ويطلق الرصاص، يمتطي ظهر الفرس الأشهب الوحيد وقتها بلا سرج وبلا لجام فيطير به مسابقًا الرياح، يعلم الأب بكل أفعاله ولكنه لا يعنفه ويغض

الطرف عن أفعال يأتيها والناظر غير راضٍ عنها، في جلسات السمر يفسحون له مكانًا على قمة المجلس، يبذر بذور محبة، فالكرم عادة متوارثة في العائلة عمومًا، يزداد كرمه وجوده وخاصة على محبيه، يتوافدون عليه ويتمنون أن يشير على أي منهم بفعل، غالبًا تتساوى الحياة بالموت بالنسبة له، تتبلد المشاعر فهل كان خوفه الشديد يومًا بعثًا لإنسان جديد؟ جسارة واندفاع وعدم تريث في فعل، يستمع لأحاديث العشق ولكن لا تترك أثرًا في خياله، تباغته أمه بفكرة الزواج وعليه أن يختار من يرغب فيها، لا توجد امرأة تحرك مشاعره، كل فتيات البلد لم يجد فيهن ما يؤجج نيران العشق، يفصح لأمه بأنه لا يجد من يحبها فتضحك قائلة:

«اليوم عليك أن تختار وبعد الزواج سيأتي الحب والأولاد».

تؤرقه شهوته في المساء فيفرج عنها في سره، لا يفصح أمام أحد من مريديه وأقرانه بما يتمنى، في أشد الحاجة أن يعيش لحظة هزة حقيقية، يستمع لحكاياتهم وأفعالهم وتأخذه النشوة ولكنه يأبى أن يتجرد من وقاره أمامهم، سهرات تمتد حتى الصباح ومساء عبق بروائح الدخان المعجون بالمخدرات، حريص أن لا يهتز وأن يظل دائمًا واعيًا بكل ما يدور حوله، أفكاره مبعثرة مشتتة ليس له طريق محدد تصبو نفسه إليه، ترك نفسه فسار وفق الظروف الحياتية المحيطة به، ينتظر أن تأتي رياح تدفع بشراع أفكاره للمرفأ الذي يحلم به، لم تعصف ريح ولم يستطع نشر الشراع، فظل مطويًّا فوق ساريته، يشعر بأنه مخلوق لفعل معين يقلب موازين الحياة، غريبًا ولكن يواصل عطاءه وفق ما كُلِّف به، لا يبخل بجهد أو وقت، لا يتحرك قلبه ولا يستسلم لغواية الحب التي يعتبرها أساس الخنوع والمذلة في الحياة، شيء غريب يدب في صدره يقترب من اليأس، تنبت في ثنايا فؤاده أشجار الصبار، طقوسه الليلية لا تخلو من كوابيس مزعجة، داخله نقمة كبيرة على أفعال يؤتيها فيها فحش وقسوة، هو مجبر على الفعل فعليه أن ينصب نفسه قائدًا وللقيادة شروط وأفعال، لا رحمة في صدر قائد يريد أن

يستظهر جبروته وقدراته، عليه أن يتحرر من عواطف تستبد به أحيانًا، شعر وكأن المرأة عائق في طريق حياته فتخلص وطلق زوجته، رُزق منها بابنته الوحيدة، الموت دائمًا قريب والمثوى الأخير دائمًا أمام عينيه، مجسم قائم مجسد لا يهرب منه، كيف لإنسان أن ينتصر على الموت؟ نعم انتظار الموت أكثر مللًا، والأمل انتظاره الطويل ممل وكأن الأمل وألم وصرخة الولادة توأمان ملتصقان، يلفه ضباب الأفكار، يتوغل في غابة الوحشة والكآبة، يتعثر فيفيق من غفوته وينفض عن رأسه اليأس وينصب عوده ويصر على المضي، مسكون بشيطان القيادة رغم رغباته الغامضة، لا يبوح بما يخالجه من مشاعر تنمو في عتمة قلبه، شهوة مجنونة ... تحفزه ... تدفعه ... ينظر لشواهد القبور القريبة من مرأى عينيه، يسخر وهو يحدث نفسه ... إن الدنيا سلَّمت مقاليد أمورها للقاتل منذ بداية عهد البشرية الأول، فاغتنم الأخ ميراث أخيه وتزوج امرأته، النوم راحة جسد والموت راحة روح ... الهلاك أفضل من الحياة.

رغم كل المحيطين به يشعر بالوحدة، عدم قناعة بكل الأفعال التي يأتيها، تناقض غريب، رغبته في الزواج يكاد يمحوها من ذاكرته، كلمات أمه وأبيه تسقط دائمًا فوق رأسه ويطلبان منه الزواج، عازف عن الفكرة، كثيرات أصبحن ملك يديه وبإشارة لأي منهن تسرع في تلبية رغباته وإطفاء شهواته، وكأن كل نساء الدنيا على نفس الشكل، لا يستطيع الامتناع والبعد عن النساء، لكنه يخاف أن يصير لعبة في مصيدة إحداهن، يحتاط لردود الأفعال، النصيحة الراسخة في ذهنه: أولًا: لا تطيل أمد العشق وتخلص وبسرعة وامض بلا ذكريات، يشعر بأن أجمل الأشياء في الدنيا عندما تهتز المرأة بين ذراعيه وتولول بانفعالاتها. ثانيًا: عليك أن تبحث عن امرأة تفيض عليك بمذاق جديد. ثالثًا: لتكن نوعًا جديدًا من الفاكهة التي لم تتذوقها، تصدح في أذنيه أغاني ولا تلقي في قلبه سوى مزيد من الحسرة، فجوة تتسع، ينكمش ويصيبه الذعر عندما يفكر في ماهية الحياة، يهرب من أفكاره بسكرات الهوى ولكن لا تجف الذاكرة.

***

«مهجة» على الجانب الآخر للنهر كانت الملاذ لنادر، لا يحب الانتظار كثيرًا، ربما يخاف من الوحدة رغم ما يثار عنه من حكايات وأقاويل وعن قلبه الميت، لا ينتظر رياحًا تبحر به لأي طريق ومرفأ، يرفع شراع التوغل في البحر مهما كانت النتائج، عليه أن يقضي على هذا التوتر وأن يخرج من حيز الكآبة الداخلي ويغوص في مباهج الحياة، مهجة بوجهها البدري المتألق بلا صبغات أوقات قليلة، بشامتها المرسومة على الخد وقريبة للفم من الناحية اليسرى لوجهها، مثل نقطة عنبر على حَجَر ياقوت وردي متفجر، عندما تتزين يزيد حسنها فقليل من الكحل الأسود تتسع حدقتَا عينيها، تصنع رموشها مظلة شبكية تحمي تلك العيون الرائعة الكحيلة، أطرافها المخضبة بالحناء ذات اللون البرتقالي المثير وربما وصفوه فقالوا شفق وردي، تكاد أصابع يديها أن تتزين أغلبها بخواتم ذهبية، رسغها لا يظهر منه إلا القليل من كثرة الأساور التي تحيطه، مجموعة من القلائد الذهبية في رقبتها مع تلك السلسلة الضخمة التي تنتهي بأيقونة منقوش داخلها كلمة «ما شاء الله» تخرجها من بين نهديها وتعبث بها بين أصابعها، لكنها حريصة على إخفائها في نفقها السحري!!! ينظر إليها بنهم وشهوة، يشعر وأن كل نساء الدنيا جمالهن يتضاءل أمام فتنتها وروعتها، يمتص ريقه، يتأمل مشيتها واهتزازة مؤخرتها وتمايل رأسها، تدور برأسها ناحيته وتنظر إلى أين تتجه عيناه؟

«خمسة وخميسة في عين ...».

لا تُكمل عبارتها، كلماتها تخرج مُنغمة فيها دلال، رشاقة قد تحسدها عليها بنات العشرين ربيعًا.

هل يحترق قلبه؟

هي تمضي في كبرياء ولا تبالي به.

تفك أسر لسانها فتضحك فينتشي بضحكتها ويطرب قلبه، تُسامره وتشاركه التدخين، تجهز له الشيشة التي تعكف على تنظيفها وألا يلمسها

إنسان آخر، تصنع له جمرات النيران وتدعك الحشيش بالمعسل وتمزجه جيدًا، يتنافسان في الشد وتشتعل نيران الحجر وتتقد نيران قلبه، لا تميل رأسها ولا تعصف بها لحظات الهوى والشوق، يحاول أن يفك عنها أسر لسانها فيفلح ولكن يفشل في فك ملابسها، يحاول أن ينزعها عنوة، بحنكة ومهارة بالغة تحيل بينه وبين أمانيه وفعله الوحشي، تبكي وتقسم بأنها لم تُحب رجلًا في الدنيا كما أحبته، تقسم له بأنه لن يلمس ظفرًا من يدها إنسان على وجه الأرض سواه، يمسح دموعها وتواصل البكاء بين ذراعيه، لا يستطيع أن يلثم شفتيها، تُحفزه أكثر بكلماتها فتتفجر رجولته ولا يهنأ بفعلٍ تطالب به خلايا جسده المضطربة، يسيطر على مفاتيح الجسد المشتعلة، تشدو بحبها الرائع اللامثيل له على وجه الدنيا، يصدقها ويسبح في لحظة عشق شبه عذري، يتأملها وهي تقص عليه الكثير من تفاصيل حياتها، إنها تكره الخيانة وما زالت على ذمة رجل مسجون، حقها الشرعي ستنتظره حتى يحين موعد طلبها للطلاق، يوم تكون له ستهجر كل شيء، ستعيش تحت قدميه، لن تفكر يومها في تجارة الكيف، ظروف الحياة القاهرة هي التي تدفعها لتلك التجارة المربحة، كم تكرهها ولكن مَن حولها كيف سيعيشون؟ عندما يمضي ويبتعد عن مرمى كلماتها وجمالها لا يصدق ما تفوهت به، أما في وجودها فهي تسحب كل أسلحته ويظل مستسلمًا لغزوات أحاديثها ونظرات عيونها، يستريح وينام قرير العين وهو يحفظ ويردد كلماتها يسألها

- هل هناك فرق بين البكاء والغناء؟

بلا تردد وبسرعة تجيبه:

- هناك بهجة الانتظار.

- بهجة الانتظار!!! ... يكررها ويرددها وكأنه يستجلي ما وراءها من معنى قد يغيب عنه.

- أمل يداعبك في غد قادم.

أمل ... حنين ... انتظار ... ربما جاء الغد أخضر ناديًا ... ومعه تهل طيور الفرح.

- وإلى متى؟

- أنت ما زلت شابًّا.

يضحك ويلقي برأسه للخلف.

- نعم شباب في خريف العمر.

- اعقد صداقة مع الحياة.

- متلونة.

- لكل لون جمال وجاذبية.

- حتى الأسود الداكن.

- ارتداه الشيوخ والقسس والحكماء ... مثالًا للحكمة.

- وإن أصاب العين العمى.

- البصيرة أقوى.

- كيف نفرق بين الألوان ساعتها؟

- لم تولد أعمى ... احلم ولو في اليقظة.

- اغتراب وابتعاد عن واقع معاش.

- الحب.

- الحب يُثقل القلب ... صورة الحبيبة كلعبة للعاشق ... وكل العبيد لغير صورتها كفروا

- المرأة.

- أنت امرأة غريبة ... تختلفين عن كل نساء الأرض ... يوم مددت يدي لألمس المرأة كانت باردة فعاودت الكرة ... لم أشعر بها وكأنها ليست من لحم ودم ومشاعر ... لم أجدها ووجدت خرابًا.

- الحياة امرأة.

- والخراب امرأة.

- أشعر بأنك قفزت من سن الطفولة للرجولة مرة واحدة ... لم تعش مراهقة التغير والتباين.

- أنتِ توقظين طيور الوجع والهموم.

يقص عليها كيف احتلته أفكار وأماني أبيه، كيف صار أسيرًا وتابعًا لخطواته التي تعشق فك أسر المحتاجين، يشملهما الصمت بعد أن يُفصح أمامها عن أسرار حياته، كيف لم تستطع زوجته أن تسعده؟ لم يكرهها ولم يشأ أن يُكرهها أن تعيش معه، في أسى بالغ يقص وهي تمتلئ عيناها بالدموع وتحتضنه بين ذراعيها، يتمنى البكاء على مفرقي نهديها ولكن، عيب كبير أن ترى النساء دموع الرجال، ترتعش شفتاها وتدور عيناها وكأنها تتأمل وجهه وكأنها لم تره من قبل، تلثم يديه فيشعر بجنون رجولته يسري في عروقه فلا يفعل فعلة يأتيها جبان، يشعر بأنها تسحبه من درجة حرارته المرتفعة لجو مفعم بالراحة والطمأنينة والسمو، في أمسِّ الحاجة إليها، يخاف أن يخرج عن صبره وكبح جماح شهواته فينطلق حيوانه ثائرًا معربدًا، في تلك الحالة سيفقدها بالتأكيد، لن يستسلم فيبدل لحظة شهوة بعمر من العشق، يعشقها بكل ما تزخر به من عيوب، يعرف كل ما يدور حولها، غالبًا كانت صادقة معه فلم تكذب وتدعي، يجلها ويفرح بها ويسعد بالساعات التي يقضيها بصحبتها، تشاركه أوجاعه، تشعر بكم معاناته، تكسب من ورائه وبإرادته، نعم هناك أشياء يغمض عينيه عنها حبًّا، يعاتبها ودموعها تنجح في الصلح بينهما، كلما ضاقت به السبل إليها يذهب فتذهب عنه ما علق

بفؤاده.

عندما تستقبله في الضوء الشاحب الذي تتعمد أن يظل هكذا، بقميصها المنزلي الناعم الفاقع اللون الأحمر غالبًا، تظهر تضاريس جسدها جليةً نظرًا لضيق ملابسها، قميصها ليس شفافًا ولكن في حركتها وكلماتها غواية غريبة، تتصنعها وفق قواعد اعتادتها، عندما تركن جسدها فوق الوسائد الخلفية وتركب ساقًا فوق أخرى فيظهر بعض من ساقيها، سمانتا ساقيها مرمر أو عاج، ينظر ويختلس نظرات ولكن تحوز عيناها على كل نظراته، تنفث دخان سيجارتها فتتراقص صانعة حلقات هائجة هائمة ذاهبة غادية، تلحظ عيناه المتلصصة إلى الأسفل فتنزل الساق وتلملم أطراف ثوبها، يرخي جفونه ويستسلم لأقاصيصها وحتى الفجر تشدو شهرزاد بأقاصيصها، ترفع عنه التوتر.

يشعر وكأنه داخل منفضة سجائر، فيها يتجمع رماد أيامه السالفة، غبار ساكن وأقل نسمة هواء تستطيع أن تعبث به في جميع الأرجاء، تراوده الأسئلة:

«كيف يحظى ويفتح صفحة جديدة لحياته؟».

يمزق كل الأوراق القديمة ويحرقها ويتركها داخل المنفضة الأم، هل تكفيه صفحة بيضاء بأن يخط عليها أمانيه بعد أن ينقيها من شوائب الزيف والخداع، أن يتصنع القسوة وأن يتعامل أحيانًا كثيرة بعنف فهذا مطلوب، لا لن يستطيع أن يحرق الأوراق، عليه أن يواصل الرحلة وفق القواعد التي رسمها أبوه مسبقًا، وعليها أن ترفع عنه كوابيس الليل المرعبة بأقاصيصها الهادئة الرائعة، هل يلتمس لها عذرًا من حياتها السالفة؟

إنها سيدة في طموحها قسوة مبررة، صعوبة الحياة وإليه تحدثت وكانت صادقة، فتأنيب الضمير أصبح سلعة بائرة في سوق حياتها، قالت له إنها تنحي ضميرها في حالات كثيرة جانبًا حتى تستطيع أن تواصل الحياة،

استطاع أن يلج ويفتح كل صناديق أفكارها، عندما اقترب أكثر شعر بولعها وسعادتها في تحطيم الرجال الذين يتقربون منها، يشعر بالعشق في عينيها وعليه أن يعيش معها بكل ما تحمله من أخطاء، يكفيه أنها تنسيه الدنيا وما فيها ساعة جلوسه إليها ...

متردد في الحكم عليها أهي صادقة حقيقة؟!!!! لا ... لا ... ليست مثلهن ... إنها كائن رائع غريب، هل أصبح كالخاتم في أصبعها؟ رغم أن تعداد الخواتم يزيد عن خمسة في يديها!! هل أهدرت رجولته بالحيلولة بينها وبينه؟ لم ينل مراده منها، هل ينفض رأسه؟ ويرفع صورتها الماثلة والقائمة والتي تحتل فؤاده، لا يستطيع، تغمز له بطرف عينيها فتحيي داخله الآمال، لا تقطع حبال المودة فتجاذبه حديثًا يقطر هوى، تطالبه بالصبر والتحمل والغد قادم يحمل بشرى، حريصة أن لا يفلت من بين يديها وأن يظل حبل الرجاء الممطوط متواصلًا لأقصى درجة.

***

وقفوا قريبًا من الشاطئ وفوق مرسى المراكب الراسية أغلبها على حافة النهر، تبرق النجوم وتتلألأ فوق صفحة المياه بأمواجها الهادئة الضاربة بنغمة واحدة الشاطئ، يقطع الصمت المخيم على الأرجاء نعيق بومة تحوم حول فريسة، بنادقهم الآلية تفرز عصارة الجسارة التي تسري في أجسادهم، متحفزون لفعل لا يأبهون لخطر يحيق بهم، كانوا هم الحراس فاستهانوا بكل شيء أمامهم، أسلحتهم زادت من ثقتهم بذاتهم وقدراتهم، أبخرة المساء الندية ورذاذ قطرات المياه الدقيقة التي تصفع وجوههم نتاج عناق أمواج النهر بصخور الشاطئ تلهمهم أفكارًا تتمثل في نشوة القوة، رائحة عبقة جميلة لكنهم لا يشعرون بها، جلس نادر فوق الحجر الضخم يرصد قادمًا من الجهة الثانية، أسفل الصخرة وحولها أغلبهم متأهبون، على مسافات متباينة بطول الشاطئ باقي جماعتهم وكلهم مسلحون وتمتلئ حقائب الذخيرة بدورها بالطلقات، لا يفعل أي منهم فعلًا إلا بعد الإشارة الصادرة

من نادر، يتناقلونها في الليل في صورة طلقات تكسر صمت الليل ويكون الرد عليها أيضًا، قد تتغير الإشارات فتصبح أصواتًا لحيوانات مختلفة وكأنهم صاغوا كلمة سر خاصة بهم، عمَّهم صمتٌ وأصغوا، ضربات لمجداف فوق صفحة الماء، مركب ينسل من غبش الليل رغم أضواء النجوم وأضواء المدينة التي تصل شاحبة إلى برهم، غناء النوبي المميز المعتاد منه عندما يريد أن يكسر حاجز وحدته أو أن يسرِّي عن نفسه وسط النهر، ربما سعادة تغمره فيفصح عنها في صورة غناء، لقد عرف أن الليلة عرس وسيتخلف نادر وأتباعه عن المراقبة الليلية، فهم عشاق السهر والطرب، أشار إليهم بعصاه فتناقلوا الأمر فاختفى جمعهم، اتخذوا من أغصان القنا وهيش الشط وجذوع بعض الأشجار المتناثرة ساترًا، هبط من فوق الصخرة ووقف بقامته الممشوقة، رسى المركب وألقى النوبي مرساته، راح النوبي يشد حباله ليربطه بسلسلة الشط الطويلة، استشعر النوبي بحركة ما فهمَّ بالعودة للمركب، إشارة من نادر فبرزوا كلٌّ من مكمنه، تراجع للخلف حتى ضربت المياه ركبتيه، توجس الشر في جمعهم، ماتت الكلمات فوق شفتيه، همهمات يصدرها بلا معنى ظاهر، لم يستطع أن يلملم حرف كلمة واحدة سليمة، يعرف المغزى وراء تواجدهم، تقدم نادر بخطوات ثابتة وواثقة، تصنَّع النوبي البِشْرَ على وجهه وكأنه استرد وعيه وخرج من تعثر لسانه قائلًا:

- أهلًا عمدتنا ...

لم يجد إجابة فاستطرد:

هل تنوي الذهاب للشط الثاني؟

أشار عليه بالتقدم ناحيته، تحرك للأمام بخطوات ثقيلة يتصنع فيها وكأن طين القاع قابض على ساقيه.

- كنت ناوي آتي للبيت.

بلا كلمات يشير عليه بالتقدم.

- خدامك يا سيد الناس.

وقف أمامه مباشرة، وقف كتمثال وعينًا نادر ثابتة فوق وجهه وقد بدا أن الغضب يركب رأسه، بكل قوته صفعة نالها فوق صدغه الأيسر، ركع على الأرض، توسل إليه ألا يضربه ثانية، من بين كلماته المتقطعة خرج سؤال من كلمة واحدة:

- لماذا؟

طالبه بالصمت، رضخ للأمر ولكن ما زالت أوصاله ترتعش، دار حوله دورة كاملة وهم قد صنعوا حولهما دائرة أكبر، وكزه بعصاه في صدره وسأله:

- نوبي ... مَن التي حضرت اليوم؟

- مَن ... مَن؟ لا أدري ماذا تقصد؟

كلماته تلقي الرعب في حنايا جسد النوبي:

- نوبي لا تدِّعي البله والجنون ... إن أردت أن تصير مجنونًا فأنت حر لكن متى صرت باقيًا على قيد الحياة، عليك أن تعرف بأنني سأدفنك وأنت على قيد الحياة، ولك الحرية فاختر ما شئت ولكن عليك أن تكون صادقًا حتى تموت وأنت خالي البال.

- أنا ... أنا ...

- أنت حمار ... هذا هو الوضع الطبيعي.

إشارة خفيفة أدركوا المقصود منها في الحال، رجع هو للخلف، طرحوه أرضًا، أوثقوا يديه خلف ظهره، جرجروه على الأرض حتى لامس وجهه المياه، صرخ مستغيثًا، كمموا فاه وسحبوه للداخل أكثر، يرفع رأسه وينفضها بقوة فتتناثر المياه حوله، يسعل بشدة حتى تخرج المياه من أنفه بمخاط، يشير عليهم أن يرفعوا الكمامة عن فمه، يطالبه ألا يعلو صوته.

- عمدتنا ... أنا ... خدامك ما بقي لي من عمر ... عليك أن تغفرلي، إنها زلة ولا أنكر ما فعلت ...

أخذ يسعل بقوة ويخرج المياه من فمه وأنفه، تركوه يستجمع قواه ليواصل الحديث، يقطع الصمت قائلًا:

لن أنكر شيئًا ... بصوت متقطع متوسل يواصل:

بنت من طرف المعلمة مهجة ... البنت ذات السن الذهبي، طلبت مني نقلها ...

قطع نادر حديثه:

- تعرفها ... منذ متى؟

- ذهبت إلى بيتهم.

- صف لي مدخل بيتهم؟

كان الوصف دقيقًا مما يدلل على صدق حديثه، تناول في كلمات قليلة بأنه تعرَّف على المعلمة مهجة وكان يقوم لها بخدمات بعيدًا عن المطاريد، شرح كيف استطاعت الفتاة أن تضحك عليه وأن يأتي بها، فضرب لها موعدًا الليلة، فالعرس قائم وحتى البهلول سيترك مكان مراقبته فقد حُكي له بأنه سيرتدي جلبابه الجديد وسيكون طول اليوم في العرس، فكانت الفرصة سانحة فأخبرته بأن اليوم هو أنسب الأيام، وافقت على الفور.

- أين كانت تقصد؟

- قالت لي ستذهب للبلد.

- وذهبت للبلد.

تلجلج في كلماته، كان التهديد جاهزًا، مجرد أن امتدت أيديهم صاح قائلًا:

- أقسم بالله لم أكن أعلم أنها تقصد شق الجبل العلوي ناحية كهف

التيه ...

- ذهبت؟

- نعم.

- قابلت مَن؟

- لا أعرف ... أقسم.

- لا داعي للقسم ... أيًّا كان من ذهبت إليه، تلك الفعلة صفعة فوق وجوهنا جميعًا وبالذات نحن ...

- وكم قبضتَ ثمن خيانتك لأهلك؟

يقسم ويخرج كل ما تحتويه جيوبه، يبكي ويمرغ رأسه في التراب والرمل بين يدي نادر، صاروجهه المطلي بحبيبات الرمل والتراب أسودَ، أحصى أحدهم ما أخرجه في ضوء مصباح كهربائي صغير، أفصح عن المبلغ لنادر الذي ضحك ضحكة عالية وقد شقت صمت الليل من حولهم ويقول:

- ثمننا رخيص يا كلب.

وبكل قوته ركله ركلة تجمعت فيها كل معالم الضيق والتذمروبسن حذائه في بطنه، لم يتمالك نفسه فأخذ يتلوى ويصرخ أكثروأكثر طالبًا الرحمة ومعلنًا عن ندمه، تناوبوا ضربه حتى نزف من فمه وأنفه واستسلم صاغرًا لما أمروه به، كان سؤالهم محددًا عمَّا قبضه بالكامل، حاول أن ينكر، عليه أن يتقي المزيد من الألم، تحامل وأشارعليهم أن يسمحوا له بالصعود فوق ظهر المركب، فكوا وثاقه وهو يسحب أقدامه ويخوض في الماء، دفعه أحدهم بقوة فأستقرفي قاع المركب، عبثت يداه ببعض الحاجيات المبعثرة في القاع حتى أخرج لفة من القماش فسلمها إليهم، سحبوه، يغوص في الماء يسحبونه من بقايا جلبابه وهم يقذفونه بالسباب واللعنات، ألقوا به تحت قدمي نادر.

حاول أن يقبِّل قدم نادر فابتعد عن متناول يديه، لفة كلها من الأوراق المالية ... جاءت كلمات نادر وهو يتأهب للمضي:

- لن تركب المركب ثانية، إن تفوهت بكلمة واحدة عمَّا حدث لن تعرف وحوش الجبل طريقًا لجثتك، جعلتنا أضحوكة في أفواه مطاريد الجبل، تضحك علينا فتاة صغيرة وتنقل البضاعة بمعرفتك ... هل تدعي أنك رجل؟ من يخون أهله يستحق الضرب بالنار أو يشنق علنا في وضح النهار، أنت أقذر خلق الله.

يبكي بحرقة ويندب حظه، يولول كما السيدات ويطالب بالرحمة ويقر بكل ما فعله وليغفر له وليعطيه الفرصة وليتأكد بأنه سيكون خادمًا للجميع من أهل البلد، وإنها المرة الأولى والأخيرة ورحمة الله تطول كل البشر، بدت في كلمات ندمه بأنها نابعة من قلبه، حز في نفوسهم ما يحدث، كلهم تربطهم صلة القربي والرحم، هو واحد منهم، نعم أخطأ واعترف، سألهم الرأي وقد لمح في عيونهم سماحة وعفو، اهتزت رءوسهم بالسماح بلا صوت، أوقفوه رغم أن قدميه لا تساعدانه، أمره أن يسند طوله، تحامل، اقترب منه وأقسم بأغلظ الأيمان لو أن يونس بن أحمد الناظر هو من فعل فعلته فلن يتركه إلا مفارقًا الحياة، في صفعات متتابعات فوق وجهه أعلن عن الصفح، جميعهم صفحوا عنه وهي النهاية، أمسك يده وأخذ يقبلها ومطالبًا أن لا يفضحوه أمام أهل البلد وبالذات أمام الناظر، تركوه وذهبوا.

***

جمعتهم جلسة المقابر المعتادة، وزع عليهم الغنيمة، وقرروا أشياء تتوافق وهوى نادر ومبتغاه، سيكون نادر بنفسه من يتعاون مع المعلمة مهجة، خططوا وتبادلوا الأفكار وعزموا أمرهم وباركوا أفكار زعيمهم، سهروا حتى الساعات الأولى للصباح ... ضحكوا كثيرًا وهم يتذكرون الفتاة ذات السن الذهبي التي يطلقون عليها لقب الجنية، ضحكوا وهم يتذكرون بأنها كانت السبب في حريق عشة البهلول في الجزيرة، يطلبون من نادر أن يقص كيف

تم ذلك، يبتسم ولا يتكلم.

يتطوع أحدهم صاحب عظام الوجه البارزة، طويل القامة القوي البنية المدعو الأعسر، يحكي كيف قص عليه البهلول الحكاية، يحاول أن يقلد البهلول في حركاته:

فيبتسم في البداية ثم يرفع وجهه للسماء ويشير بإصبعه إلى السماء وكأنه يشهد الله على ما يقول وتلك فعلة يأتيها البهلول في بداية كلامه، بكلمات متقطعة متعلثمة ومن بين أسنانه التي ضاع أغلبها والباقي يظهر بلونه الأسود.

يتحدث ويضجون في ضحكهم، ويسبح نادر في ذكريات ما حدث بينه والبهلول، يضحك وكأنه يجاريهم في أقاصيصهم لكن في دنياه هو، كيف بعد عناء يستطيع أن يفسر كلمات البهلول.

البهلول يحب كل البشر، لبيت الناظر البهلول عاشق متيم بهم جميعًا، فالناظر في نظره ليس رجلًا عاديًا مثل سائر البشر، يظنه مخلوقًا من طينة خاصة وبالمثل زوجته وأولاده، نادر لا يتركه في صمته، فيداعبه بقوة وأحيانًا تصل لدرجة العنف، يمشي بعيدًا إن كانت حالته لا تتوافق ومداعبات نادر إما يتواصل ويغرقان في الضحك، يقسم بالله أنه يحب العمدة نادر، هو لا يلقبه إلا بالعمدة، ويقول عنه رجل يملأ الدماغ، خيَّال وفارس ليس له مثيل في بلدنا ولا البلاد المجاورة، درجة حياء البهلول أكثر من عذراء في خدرها كما يقولون، أمام النساء خجول جدًّا، لا يستطيع أن يتفوه بكلمة، نادر يدرك هذا جيدًا فيطرق مسامعه ويخدش حياءه، يصمت وكأنه يبحث عن شيء مفقود.

يطالبه ألا يتحدث عن النساء معه، ونادر يتعمد إثارته بالحديث عن الحريم، يتوسل إليه ونادر يبغي شيئًا من وراء حديثه لا يعرفه البهلول، ويقول له:

- حرام عليك ياعمدة ... جتتي وكأن عفريت بيركبها وتترعش ولساني يلزق في سقف حلقي ...

يواصل نادر الحديث:

- عارف يا بهلول طعم شفايف الست ...

يشرح ويفيض في شرحه:

- حرام ... أنا النار بتولع في جتتي ... الشيخ قال حرام نجيب سيرة الناس ... البني آدم يدخل جهنم بسبب لسانه.

يتذكر نادر الحادثة فيضحك بقوة، يتذكر كيف يجلس البهلول ويداري وجهه منه، يشعل النيران وينفخ فيها وهي لا تحتاج للنفخ، يقلب بقطعة الحطب الصغيرة في يده النيران أسفل براد الشاي الأسود المتفحم، يستمتع بوصف نادر وينصت وينظر إلى براد الشاي المغطى بالهباب، يتأمل سطحه وينتظر أن يكسر غليان الماء طبقة الشاي السميكة على السطح، ويتصنع بأنه يستمتع لهسيس غليان المياه، الفقاعات التي تتوالى وترتفع وتتكاثر، تزداد حرارة كلمات نادر وهو يشرح جمال النساء، كيف تتأوه المرأة بين يديه، يدفس البهلول البراد بقوة في أتون النيران ويحاول أن يخفي مشاعره المهتاجة، يصمت نادر يرجع إليه هدوءُه المعتاد ويصب الشاي في الكوب بصورة تقليدية معتادة، فيرفع البراد لأعلى، يمتلئ الكوب بالشاي وفوق سطحه رغوة كبيرة تزينه، تمتد يد البهلول بالكوب إلى نادر، يداعبه نادر ضاحكًا وغامزًا بعينيه فيشعر بالخجل فيتحول بنظره بعيدًا عنه، بصوت مسموع يرشف من الكوب، يحاول أن يسحبه لدائرة حوار في نفس الموضوع، تهتز رأسه بعدم الموافقة، يهدد بأنه سيتركه ويمضي، ولسان حاله يقول إنه تعدى العمر القانوني لتلك الأحاسيس الشبابية، يثيره أكثر وهو يصف مداعبات أزواج الحَمَام أثناء التكاثر، فيصف له الذكر وهو ينفش ريشه ويصول ويجول حول الأنثى، فيقبلها وبعد دورات متتابعة حولها،

يعاود الدوران وذيله يمسح الأرض، لحظة أن يتوافقَا ويلتصق منقارهما ويذهبَا في قبلة طويلة وتتراقص أعناقهما ذهابًا وإيابًا، وتتكرر المحاولة مرات ومرات، ويرقص ويدور حولها، تهبط بجسمها للأسفل لتعطيه فرصة للوثوب فوقها، فيثب و ...

ويكون رد فعله ضحكة طويلة وهو يردد بأنه سيقع من فوقها، فيكون رده جاهزًا لكن تسنده ويسعفه جناحاه ويكاد الذكر يتيه فرحًا وينفخ ريشه من جديد، ضحكة البهلول تجبره على الصمت وانتظار ما يفصح عنه فيقول ...

- ضحكت عليه وامتصت ما في جوفه من غذاء ويمكن أن تمتص ماء حياته ...

كلمات البهلول تلقائية لا تعرف اللوع ولا الرياء، يتمنى أن يفعل أي شيء إرضاء لسيده وابن سيده كما يسميه العمدة، عندما يتسلل نادر بالحكاية لجهة أخرى، وكيف أنه يصاحب الجن ويأتيه في صور متعددة، يصف له كيف يأتيه وكيف يستجيب لكل ما يطلبه منه، ينفرج فاه البهلول دهشة وخوفًا، تنبلج عيناه ويتفل في صدره ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، بدت بوادر خوف جلية على وجه البهلول الذي يعيش وحيدًا في الجزيرة بمفرده، لا يعشش داخل قلبه خوف، يتصنع نادر عدم النظر إليه ويختلس نظرات، يرى مدى الانزعاج حتى في رشفه للشاي، ويعاود تبكير الشاي من جديد، فيضرم النيران ملقيًا إليها مزيدًا من الأغصان، كل معارفه تقول إن الجني يخاف النيران، ينفخ في النيران رغم أنها مشتعلة، يستأذن نادر في المرور المعتاد لليلته، أتى صوت غريب شق سكون الليل، في ضوء النيران تحجرت عينَا البهلول وظهر الترقب والتربص بقادم أو مجهول، تصنع نادر رعشة أخذت جسده وبكلمات متقطعة تقترب وتتشابه مع طريقة كلام البهلول، فطلب من البهلول المضي بعيدًا لأن الجنية قادمة إليه الآن، أخذت عينَا البهلول تتقلب بسرعة في شتى الاتجاهات، ورقبته تتلوى وانتفض واقفًا، وعلى لسانه سؤال ... أين ... أين ... ؟ يشير عليه نادر أن ينسحب، يجر

قدميه وهو يتلفت حوله يمينًا ويسارًا وخطوات ويولي مسرعًا مختفيًا، أتى المراكبي الغريب وقدم فروض الطاعة لنادر، معلنًا بأنه في خدمته دائمًا وتحت أمره في أي وقت ليلًا قبل النهار، أودع نادر في كفه مبلغًا ماليًّا، ولم ينس إكرامية بقطعة من الحشيش النظيف، انسحب وأعلن بأنه منتظر بجوار القارب الصغير على شط الجزيرة، ألقت نفسها في أحضانه وأعلن أن الخطة نجحت بصورة غير متوقعة، وضع أكثر من طريقة لحضورها في تلك الساعة، في نفس الموعد وبالاتفاق مع هذا المراكبي، تأتي مباشرة، إن لم يفلح ولم يذهب البهلول عليها أن تطلق صرخة استغاثة وسيسرع إليها وعليها أن تتصنع الرعب وسيأمر البهلول أن يذهب مع المراكبي لشاطئ القرية فيطلب من أتباعه الحضور فورًا، كان نادر يعلم بالخوف الذي يركب رأس البهلول بمجرد ذكر الجن والعفاريت، كان واثقًا من نجاح خطته الأولى التي أتت ثمارها، سيختفي البهلول حتى شعاع النهار القادم، عشة البهلول غير مريحة، صنع من ملابسه وملابسها مفرشًا، أشعل شمعة صغيرة أتت بها، ضوء خفيف ومفرش لا يستوي على أرضية العشة الصغيرة، كانت تنتظر وهو بدوره كانت تحفزه شهوته، مجرد قضاء رغبته منها، اختزل نادر المرأة في حياته كلها في جسد وجنس، يمرغ نفسه في متاهات تضاريسها الظاهرة والمخفية، ضاق ذرعًا بالمرأة الزوجة، بين أهله وفي شتى بقاع القرية هو ولي العهد، كيف يأتي فعلًا شائنًا؟ عليه أن يقترح ويفكر في أماكن لا يتوقعها أحد، عليه أن يضاجع واحدة ممن تهواها نفسه، وقع اختياره عليها دون سواها، نعم سيهبها من الممنوعات بسعر لم تحلم به، تحت شرط أساسي أن لا يعرف أحد أيًّا كان بعلاقتها به وخاصة المعلمة مهجة، وتكون له دون سواه في تلك الليلة، أقسمت ولم يكن بالسذاجة أن يصدقها، عليها أن تكون له لساعة أو ساعتين فحسب، سقطت منه معالم حياة ريفية تتخوف من هذا الفعل، ويوم يأتيها ذلك المقيم بين ربوع قريته يشعر بمدى الجرم الذي ارتكبه، وكأنه يفسر الأشياء وفق عقليته، هو لم يجبرها على الفعل، هي آتية بمحض اختيارها، هي تحتاجه وهو يحتاجها فليست جريمة يعاقب

عليها القانون، كما يحاول أن يحلل الفعل بصورة أخرى فإنه يعطيها أيضًا المقابل من مال وخلافه، عندما أراد أن يأخذ رأي الشيخ رضوان في أفكاره نهره بشدة وأقسم بأن تلك الأفعال والأقوال تذهب بصاحبها إلى جهنم وبئس المصير، إنها من أكبر الكبائر، لم يهتم كثيرًا بما قيل وراح يطمر ذكريات الألم في مضاجعة بلا خجل أو خوف، تستقطبه بآهاتها وصرخاتها التي تحاول أن تكتمها وتحبسها، تثيره أكثر فينتشي، أكثر ما يثيره فيها بكاؤها وهما في قمة تألقهما معًا واقتراب شهقة الوصول والاقتراب من السر المجهول وساعة المرام، شهقات وصرخات محبوسة وبكاء غريب وأظافر تنشب في ظهره، لم ير من قبل امرأة بتلك الجاذبية والروعة في لحظة العشق، تكفيه مرة واحدة أسبوعيًّا ترفع عنه كل الهموم العالقة بذاكرته، لم يكذب على زمرة محبيه فذكر لهم، كانوا يحفظون سره فكلهم يتكسبون الكثير ومكانتهم كل يوم تزيد، وبنات المدينة في متناول أي منهم وشق الجبل السفلي والعلوي ملك أيديهم، وكل الكهوف والمغارات متاحة لهم أن يفعلوا ما يشاءون، أما هو فزعيمهم ومن حقه عليهم أن يسعدوه فيما يتمنى ويريد، كانوا عند حسن ظنه، في اليوم الأول للزيارة كانت رائعة بكل المقاييس، تمتع بها نادرولكن أرضية العشة كانت قاسية وصلبة على جسد العشيقة، خاف أن تكون هي السبب في بكائها وصراخها المكتوم، قبيل الفجر بحث ونادي على البهلول حتى عثر عليه، خرج من بين حقل من الهيش والغاب وهو يتسلل وقد بدا على وجهه الخوف، كان قد أمرها وهي آتية أن تشتري طعامًا يكفي لخمسة أفراد من المشويات ولوازم العشاء ولا تنسى الحلو، طلب منها أن تتناول العشاء معه، اعتذرت وطلبت أن تمضي، سحب البهلول من يده حتى دخلَا العشة وكانت أكثر من شمعة تلقي بأضوائها، فرش الأوراق الملفوفة أمام عيني البهلول المذهول بكمية الطعام واللحوم، أخبره بأن الجنية أتت بكل هذا الطعام، لم يمد يده وانكمش وهم أن يحلف بأنه لن يتذوق الطعام، معروف عنه بأنه إن أقسم فيبر بقسمه أيًّا كانت النتائج، أسرع وأغلق فمه بيده، وطالبه أن يصمت وراح يمد يده ويأكل هو بنفسه،

في تخوف باد تمتد يده وتكاد تتراجع، يدفعه وهو يمسك بقطعة من اللحم المشوي ويقربها من أنفه، وما يلبث يقضمها بأسنانه، بعد تردد طال قضم قطعة من الطعام، استمرأ الطعام، نسي الجنية وكل عفاريت الأرض وأقبل على الطعام في نهم وعشق لا يُبارى فيه، ينظر إليه نادر، رغم أن فمه مملوء بالطعام إلا أنه يبتسم ويشكره على تلك الوليمة التي لم يحظ يومًا بمثلها، يرفع يديه للسماء ويبدو أنه يدعو لنادر، لقيمات معدودات وانتهى نادر من طعامه، استطاع أن ينهي على كل الطعام، تجشأ بصورة هزت المكان حولهما، ضحك بقوة ومسح يديه في جلبابه وأسرع ليعد الشاي، خلع نادر ملابسه وألقى بنفسه في النيل للحظات، والبهلول ينظر إليه مستغربًا، كان حريصا على الطهارة من الجنابة!!! خرج من الماء وكأن عيني البهلول تطرح سؤالًا عن السبب، بلع سؤاله وصمت وأشعل النيران ولكن نادر قرر المضي، حاول أن يثنيه عن عزمه وأن يشرب الشاي معه، ودعه فذهب معه حتى حلَّ له حبل القارب الصغير، رفع له يده ملوحًا بالوداع وأخذ يضرب سطح الماء بمجدافيه بقوة ومهارة، فلوح البهلول بيديه وهو يرفعهما أعلى رأسه وكلمات استطاع أن يستخلص منها أن يأتي كل يوم فهو في انتظاره، كانوا في انتظاره، مع إطلالة الفجر وكما هو معتاد ذهبوا لمنازلهم بعد أن أدوا صلاة الفجر خلف الشيخ رضوان، قرر أن يغير الوضع القائم في الجزيرة، في زيارته التالية كانت في وضح النهار، اصطحب معه نجارًا من المدينة وأشترى سريرًا خشبيًّا والمفروشات الخاصة بالسرير، لم ينس أن يأتي بالطعام الذي يحبه البهلول، فرشوا السرير وطلب من البهلول أن لا ينام فوقه إلا بعد أن ينظف ثيابه، ضحك لمزحته التي يطلقها ووافقه فيما قال، وأضاف بأنه سينام فوق السرير بملابس نظيفة وبعد أن يستحم في النهر، ومنضدة صغيرة وكرسيين من البلاستيك المقوى، يخرج ويدخل البهلول ومعالم الفرح تنطلق من عينيه، مرة يلقي بنفسه فوق السرير فينهره فيتذكر، فينفض مكان نومه، مرة أخرى يجلس فوق الكرسي ملقيًا رأسه للخلف وواضعًا ساقًا فوق ساق ولا يلبث يعتذر لنادر، يبادله الضحكات ويشير عليه أن لا

يستخدم باقي المفروشات فربما يأتي وقت قيلولة وينام عنده، يوافقه ويعاهده أن يحافظ على المفروشات بعيدًا، يضعهم في كيس شفاف ويعلقهم في أحد جنبات العشة، اعتاد الحضور يومًا في الأسبوع والبهلول ينتظره ويعد الأيام ويمني نفسه بذلك الطعام ذي النكهة الطيبة الجميلة، ساعة أن يأتي نادر يسأله عما يحب أن يتناوله في العشاء حتى يأمر الجنية أن تحضره، يترك الأمر لنادر فأي شيء سيقترحه وأي طعام سيطلبه هو يحبه، ومجرد أن يتصنع نادر الرعشة يبادر بالفرار من أمامه ويذهب لمخبئه المعهود، ينتهيان من فعلهما وإليه يذهب نادر ويأتي به وبنفس الأسلوب كل مرة، تأكد نادر بأنها تتأوه حبًّا وعشقًا وليس من صلابة الأرض، زادت من حدة تأوهاتها فقد عرفت بمدى عشقه لسماع صراخها المكتوم وبكائها المشبع بالرغبة، تكسب من ورائه الكثير وبعيدًا عن كل العيون، من يصحبها أيضًا له نصيب وافر من الطرفين منه ومنها في آن واحد، يوم لا يمحى من ذاكرة نادر ولا من ذاكرة تابعيه، عندما ارتعش جسد نادر، أسرع البهلول لمكمنه المعتاد بعيدًا، بعد أن استقر في صمت وخوف وغالبًا يدفن رأسه بين قدميه، أصاخ البهلول السمع، أصوات هسيس وأعشاب تتكسر تحت أقدام تتحرك، خاف أن تكون الجنية تبحث عن نادر، تكور في نفسه ودفن رأسه بين قدميه أكثر وأغلق عينيه، الخطوات تقترب، يشعرها ويسمعها أكثر من البداية، يرتعش جسده بقوة، تتوقف الخطوات، وسيل من ماء يهبط فوق رأسه، رائحته تقترب من رائحة البول، تثيره الرائحة فيرفع رأسه، يقفز المراكبي المتبول وينقطع بوله ويصرخ ويقع على الأرض، يتأكد البهلول من إنسانيته، يسرع فيقبض عليه ويقوم بربطه في جذع شجرة ويكمم فاه، يجري بسرعة ناحية النهر فيلقي بنفسه فيه فهو لا يطيق رائحة البول، ينتظر البهلول أن يأتيه نادر آذان الفجر يخترق الفضاء ويصل إلى الجزيرة، يقترب من موقعه شبح تأكد من شخصه بأنه نادر، يمشي بجواره شبح آخر، ترتعد مفاصل البهلول يتأكد بأنها الجنية، من يأتي إليه سواها، يفر هاربًا من المكان ولكن في موقع يتيح له أن يرى الشخص الذي قبض عليه،

يخاف أن يهرب، استطاع المقبوض عليه أن يحرك كمامة فمه فصرخ صرخة ضعيفة، أسرع إليه نادر وأشعلت هي مصباحًا كهربائيًّا، دعك عينيه، إنها امرأة تلبس ملابس فتيات البندر، وفوق ملابسها ترتدي عباءة سوداء ذات غطاء للرأس، تسحب المعتقل وتدفعه أمامها، حتى يصعدَا للقارب الصغير، ويعود نادر صائحًا باسم البهلول، يتأكد بأن البهلول هو من قبض على المراكبي الغريب، يتركه ويمضي مودعًا بلا كلام، الطعام كالمعتاد، لكن لم يستطع البهلول أن يمضغ لقمة واحدة.

بعد أسبوع حان موعد اللقاء المعتاد، جاء نادر ولم يُقِم للحدث الذي كان وزنًا، ارتعش أو تصنَّع الرعشة، مضى البهلول، بعد نصف ساعة أو أقل قليلًا، وهما في قمة نشوتهما، عاد البهلول وهو ينفث حممًا ولعنات ودخل عليهما، حاول نادر أن يأمره بالانصراف فلم يلب، طلب منها أن تقوم من مكانها، لم يفهم أي منهما كلامه، سحبها عنوة من جوار نادر، كانت عارية تمامًا، خبَّأ وجهه ولم يستطع النظر إليها، وفر خارج العشة، سحب نادر مسدسه وخرج إليه مهددًا، لم يأبه لتهديداته وطلب أن تمشي تلك المرأة الآن، راح يصرخ بكلمات مبهمة ويولول وما يلبث يضرب الأرض بأقدامه، يلطم خديه بقوة غريبة ويتغير لون عينيه فتصير دموية اللون، أصبح وجه المرأة شاحبًا مصفرًّا وقد ذهبت منه الدماء، يرتعش جسدها كله وكأنها لا تستطيع الوقوف، لملمت المرأة نفسها، شجعها نادر بكلماته الهادئة فتخلصت من أسر قيود قدميها، أسرعت تعدو ناحية المركب وقفزت إليه وفرت هاربة، نادر ليس من الجنون أن تمتد يده إلى البهلول، معروفة قوة جسد البهلول وأنه لا يقدر عليه أحد في البلد كلها سوى طه سبع الليل رغم سنه المتقدم، هدده فحسب وصوب المسدس ناحيته، انفجر البهلول في البكاء ولطم خدوده بصورة هستيرية، ودخل للعشة وأخرج صفيحة نصفها مملوء بالجاز وراح يرشها على جوانب الحجرة ونادر لا يدري ما الذي يفعله، يطالبه بالتوقف وإلا سيقتله والبهلول لا يلقي له بالًا وماضيًا في فعله ومتواصلًا في بكائه، ويخرج علبة الثقاب من بين ملابسه الرثة، يحاول أن

يمنعه نادر كانت دفعة البهلول الغاضبة كفيلة بأن تلقيه جانبًا، اشتعلت النيران وانطلقت رصاصة من مسدس نادر، دقائق إلا وكان أتباع نادر قد حضروا، طلب أحدهم أن يطفئوا النيران، طلب منهم البهلول أن يبتعدوا، وقفوا يتأملون النيران حتى أتت على العشة بكل محتوياتها، عادوا لمواقعهم على الشاطئ ومعهم زعيمهم، يضحكون وقائدهم يصف لهم كيف ...

***

بدت جلية معالم الدخول لمرحلة عمرية جديدة، تجاوزت قامة يونس نورا واقترب كثيرًا من أبيه طولًا، بزغت شعيرات ما تحت الأنف وغيره، الصوت صار أكثر خشونة، تألقت في عينيه معالم القديم وجذبته رائحة الغد القادم، بدت بوادر كثيرة تنبئ بخير، هل تودع شق الجبل الفقرَ؟ وجوه تتألق ببشر ومعالم تغيير ينبض بها قلب البلد الذي عشش فيه الفقر طويلًا، ينظر ويتأمل ويشعر بسعادة تغمر كيانه، تحولات تصاحب عمليات التغيير السارية، محلات لبيع الأغذية المطهية، فقيرة الشكل والمضمون، مقاه تفتح أبوابها في حذر وترقب، رواد وزبائن يتوافدون على المقاهي التي تزداد أعدادها، غرباء قادمون يبحثون عن عمل وعدد لا بأس به اعتاد ذلك من أهالي البلد، محاجر تفتح وتنتج وعمال يكسبون، كوبري كان حلمه وهو صغير دقوا أعمدته الخرسانية على الشط الثاني وبدأوا في حفر الناحية الثانية في أقصى شمال بلدهم شق الجبل، غرباء قادمون يسألون وينقبون ويبحثون عن أراضٍ للبيع ليشتروها، يسألون عن صاحب السطوة والسلطة في القرية، تبلورت معالم شخصيته، بطبيعته عاشق للكتاب فاكتسب صفات رائعة، حضوره الذهني غير عادي وبراعته أصبحت لا تقارن في سرد الأحاديث، يسرق أذن مستمعيه وجلسائه، يبحث عن مزيد من المعارف، رغم أن نورا توأمه إلا أنها تلميذة نجيبة له، تستمع إليه بشغف وهو يقص عليها تاريخًا قديمًا أو حديثًا، يحاول أن يبدأ بها كمستمعة فيلقي على أذنيها حكاياته فتنصت وتطالبه بالمزيد، يشعر بزهو غريب وهو

يقص ويرى على الوجوه وقع كلماته، ولكن حكايات قديمة تسكن رأسها فتسأله عن الطريق أسفل النيل الممتد من شقوق الجبل حتى الناحية الثانية للنيل، يقص عليها ما يعرفه عن مسجد العمراوي وما حدث ساعة البداية بالبناء والتشييد، كيف توقفوا ولم يستطع علماء الآثار أن يعرفوا نهاية تلك الشبكة من الأنفاق أسفل المسجد، على الجانب الآخر بركة أولياء الله الصالحين وما حدث يوم فكروا بالانتقال ناحية مسجد سيدي علي المصري، المحافظ نفسه شهد ما حدث وتوقفت الآلات عن العمل، يرى في عينيها الإعجاب، يقلب في الأوراق والكتب القديمة ويسمع وينقب ليعرف المزيد، كان يحب تسجيل آفاق رؤيته، لا يحبذ السقوط في هوة الخرافات، يحاول إرجاعها لأساسها العلمي، ففي مسجد العمراوي أو الوداع كما يسمونه، المزولة الشمسية، يطلقون عليها الرخامة ويلصقونها في أحد الجوانب ولا يهتمون بها، ينظر إليها ويتأمل وضعها قديمًا كيف كانت وكيف كانت تعمل، يستخدمونها في التوقيت النهاري، يعقد مقارنة بين ما يراه وما تزخر به الكتب، يتأكد أن شكلها القديم عبارة عن قطعة رخامية وفي وسطها ما يشبه العصا، نقط وخطوط منحوتة في لوح الرخام، عند وقوع الظل على خط معين أو نقطة معينة يُحدد من خلالها الوقت، استخدموها في تحديد مواقيت الصلاة، تشاركه نورا الحديث فتصف كيف تتقارب فكرة الساعة الشمسية بزوايا الانحراف، تقص عليه أنها قرأت عندما أتى هيردوت إلى مصر وأراد الالتحاق بمدارس المعابد الفرعونية، كان لا بد أن يمتحنوا قدراته العلمية، فسأله أحد الكهنة عن طول النخلة التي يراها أمامه، يصحح معلومتها بأنها كانت مسلة وليست نخلة، يتوافقان في الرؤية وكيف نجح هيردوت في الإجابة مستخدمًا فكرة الظلال، حتى أن كلمة (ظا) في حساب المثلثات في المثلث القائم الزاوية هي زاوية ميل، يقصد بها الطول المقابل على المجاور للزاوية يسمي (الظل الهندسي)، فالمزولة فكرة فرعونية قديمة، تطورت إلى جهاز الإسطرلاب، رحلات كريستوفر كولمبس مكتشف أمريكا اعتمدت في توقيتاتها على المزولة الفرعونية، أما في الليل فكانت

التوقيتات تعرف برصد النجوم ومواضعها المختلفة، أما المسلات الفرعونية فقد استخدمت في بعض الأحيان كعصا المزولة، وكان قائمًا بمصر القديمة حوالي ١٢٠ مسلة في ١٢٠ مدينة فرعونية، في أسى بالغ يعددان البلاد التي انتقلت إليها أغلب تلك السلات، أعظم عواصم العالم باريس ... روما ... لندن ... إسطنبول ... واشنطن ...

***

هل يعاني يونس من الشتات؟ أفكاره تذهب وتغدو، تتألق وتخبو، يقلب في أوراق ذاكرته ويتأمل الدنيا من حوله، متغيرات كثيرة لم تظهر من قَبل، بعض العلاقات فيها توتر حتى بين من يرتبطون بأواصر القربى، حكايات تتردد عن أشخاص يعرفهم كيف وصل بهم الحال لقطع صلات الرحم بينهم، هل حفَّز الخير القادم ملامح النفور؟ يتباعدون والخير قادم، أكثر ما يشغله الحديث الدائر حتى بين محبيه وأقرانه يرددونه بلا تفكر أو تدبر، نزعات الطائفية المقيتة بين أبناء البلد فهذا مسلم وهذا نصراني، لا يحسبها بصورة ذاتية ولكن يعممها على كل الناس، يعرف أن قلبه لم ولن يتغير، لكن الحوادث من حوله تعصف بالعلاقات الجميلة في دائرة البلد كلها، لا يستطيع أن يغلق عينيه أو يسد أذنيه، يقلب في أوراق ذاكرته وما بين الماضي والحاضر يعقد مقارنات، يكون الفوز غالبًا للأيام السالفة:

هل أفصحنا يومًا عن حقيقة مشاعرنا؟

نحن أكثر البشر هلعًا وخوفًا ورعبًا من إظهار الحقيقة.

هل يجبرنا المجتمع بعاداته وتقاليده وأفكاره الغالب عليها فكر الموتى والعجائز أن نهيل التراب على عقولنا؟

كل منا يريد أن يحوز مكانة عالية في نظر الآخرين ولو كذبًا، أما كان الأولى بنا أن نكون صادقين مع أنفسنا!!!! مشاعر كاذبة ونخجل حتى أن نصارح أنفسنا، علينا بالالتزام وفق القواعد والقوانين، كل منا يظن أن أفعاله هي

الصواب وعلى الآخرين التأسي بها والاقتداء، كثيرًا ما نطلق الاتهامات على الآخرين لنداري مخاوفنا أم جهلنا؟؟؟

يا ترى هل يعترف الطغاة في العالم بقسوتهم وبشرورهم التي تفوق الوصف أحيانًا كثيرة؟ هل يشاهدون آثار مذابحهم وحرائقهم؟ ربما يلتمسون لأنفسهم الأعذار!!!

أفق ضيق، أنانية وتعصب أعمى، أغلبنا يتصنع التقوى ظاهريًّا وأمانيه معلقة بالمخادع المحرمة، نلوث إخواننا وأصدقاء دربنا، نستمتع بالشائعات ونحن نطلقها جزافًا ولا يهمنا ما يترتب عليها من ضرر بالآخرين، نسعى أن نسمع المزيد منها وخاصة ما يتعلق بالمرأة والجسد والجنس، نغذيها بمزيد من الأكاذيب والادعاءات المغرضة، نصم الآخرين بأفعال قذرة ربما لأنهم أفضل منا قولًا وفعلًا، نتعلق بكلمات التقوى ونحن أبعد الناس عنها، أقوال مرسلة وأفعال نتمنى إتيانها، نسيج عقولنا الداخلي تركيبته تسبح في بحر النفاق، نذود عن شرفنا ونتمنى لحظة عشق عبقة بالدناسة والوقار!!!

تكسر نورا غالبًا حاجز وحدته، فتشيع في جو الحجرة عبقًا وأريجًا بكلماتها الفياضة الحالمة، تشاركه في حلم الغد، الفتاة وتطلعاتها وأمانيها، لا يُحجر على أفكارها فتسبح وتتمنى الغد، يعرف بأنها لن تتزوج إلا من يرضخ له قلبها، هكذا أفصحت له، بأنها تتمنى أن تعيش عانسًا وتموت ولا تربط نفسها بإنسان لا تحبه، لا تنسى أنه صاحب فكر ذكوري ومجتمع تحكمه قبلية وجهل، فلا تفصح بكل المشاعر وإنما تقول ما لا يثير نعرته، يشعران بأن هناك هدف واحد يجمعهما، يعرفان معنى الشتات ورغم ذلك فإن كل منهما يبدو كنبتة غريبة وحيدة في صحراء بلا نهاية.

عندما تسأله:

- هل في الحب ساحر ومسحور؟

- أدوات السحر متعددة، حتى يتم إحراز الهدف لا بد من الأدوات اللازمة

لذلك.

تضحك في جزل فتفرش ضحكتها حديقة بلا أسوار:

- أدوات الساحر.

- متنوعة مختلفة ... الحب ... الابتسامة ... هناك العديد من أدوات السحر الرائعة، تمتص رحيق عقل المسحور ... يمضي خلف الساحر كالنائم.

تزداد ابتسامتها ولا توافق على عباراته فيستطرد:

إنها عملية تبادلية بين قلبين، مرة هو يكون الساحر وعليها في المرة الثانية أن تسحب عقله وقلبه وفؤاده وتسحره.

تصفق وتدور حول نفسها وهي تتكلم:

- من أجمل ما قرأت:

السماء ذكر والأرض أنثى، عندما يحدث التلاقي فإن ماء السماء يسقط في رحم الأرض فتخرج أولادها، متلونين بألوان وأشكال وأفكار ولكنهم جميعًا في البداية والنهاية إخوة.

بعد جدال محبب لا يدوم كثيرًا، يتفقان أن كلًّا من الرجل والمرأة في أي مجتمع ولو حتى بدائي يحاول أن يسحر أحدهما عين الآخر بأي فعل يأتيه، تضحك وهي تمثل دور الحياة في مجتمع إنسان الغابة، فتتخيل يونس وتصفه وهي غارقة في ضحكاتها وهو يلبس قطعة صغيرة من جلد الحيوانات ويصرخ صرخة طرزان في الغابة، وهو يسحب خلفه جسد أسد، فينادي محبوبته، تخرج عليه مريم من كهفها وفي يدها فخذ ماعز تأكل منه بشراسة، تنظر إليه وتتيه فخرًا به وهو يجر الأسد الذي اقتنصه من الغابة، تسرع إليه فتركع تحت قدميه، تصف له المشهد في صورة تمثيلية فيموجان بالضحك، فيسألها:

- هذا نوع من السحر في الأزمان الغابرة يفعله الرجل، فماذا تفعل الأنثى

بدورها كساحرة:

تنطلق في أقاصيصها، فتقص منذ بداية الإنسان، فتقول إن النص القرآني لم يشر إلى أن حواء هي سبب خروج آدم من جنة ربه، ألقى القرآن بتبعية هذا الفعل على الشيطان ووسوسته لحواء، التي بدورها نقلته لآدم، وتضغط على كلمة ... فأذلهما ... ففعلَا فعلتهما، لا تنس أن تشير إلى أن سفر التكوين يرجع السبب لحواء فيما حدث، ينصت لها جيدًا، رجاحة عقلها وقراءاتها المتعددة، ارتباطها بمحبوبته مريم وحياتهما معًا وكأنهما توأم يعكس آفاق فكرها الرحبة التي لا تتقيد إلا بحق إنساني لكل البشر، لا يفوته أن يسألها:

- هل النساء في بلدنا يعرفن كيف يسحرن الرجال؟

المرأة في كل الدنيا هي الساحرة، هكذا توصف النساء عمومًا، ألم يستغلها الرجال حتى في ترويج سلعهم، قدموها أيضًا كقربان للألهة القديمة لتسحرهم فيرضون عن البشر، اليوم فتيات إعلانات وعارضات للأزياء وغير الأزياء، تتبحر في وصفهن ولا تتحرج وهي تقص عليه من السير المختلفة من سالومي ورأس يوحنا حتى تلك الحوادث التي تمتلئ بها الصحف والمجلات حديثًا، أما بالنسبة لنساء بلدنا، راحت تصف خروجهن في ساعة العصاري متجهات صوب البلدية، ليملأن جرارهن من حنفيات المياه العذبة، فيتعمدن أن يلونَّ أعينهن بالكحل الكثيف لتبدو واسعة جميلة، ويرتدين أجمل ثيابهن، كما يزين أيديهن بالأساور المختلفة ذهبًا كانت أم مجرد ألوان تسرق الأبصار، وكان الأقدم التحلي بالخلاخيل في الساقين، فالخلخال الفضي فيه جاذبية يدفع الرجل المسحور للنظر إلى نهايتي الساقين، وربما على سبيل الدلال تمسك بطرف ثوبها بيدها وهي تمشي، فتظهر مخروطية الساقين وعدم نحافتهما، وحتى غطاء الرأس الشفاف ليظهر معالم شعرهن، لا يغلب الشيطان المرأة، تقول ذلك وتنفجر في الضحك فيشاركها ... تقول وتصف المتغيرات التي طرأت على نساء بلدنا، اليوم الفتاة تذهب

إلى الجامعة وتتحدث مع الرجال بلا قيود، أما المرأة في بلدنا في الماضي فكانت يقتلها الخوف أو تتصنع ذلك في معاملاتها مع الرجال، وتصف ذلك ضاحكة:

- أهم حاجة أن ستات بلدنا الواحدة عمر عينها ما تترفع في وش راجل من أهل البلد أو غريب، تداري بطرف شالها فمها وهي تتكلم ... تضحك ... وكأن ظهور شفاهها أو أسنانها عورة ...

حوارهما لا ينتهي.

عاشق أن يغوص في معالم الحي العتيق، يجزم بأنه لم ير حبًّا أعمق من المتصوفين الحقيقيين، يضرب أمثلة متنوعة، تسأله عن هذا الكم الضخم الذي تعج به مدينة المنيا وخاصة أحياؤها القديمة، مزارات وأضرحة لأولياء وأصحاب كرامات، فتتذكر ضريح الشيخ الفولي أحد معالم مدينة المنيا، البعض يطلق على المدينة «منيا الفولي» نسبة إليه، يتولى تعريفها بهذا الشيخ وكأنه يحاول أن يثبت معلوماته، فليلة مولد سيدي الفولي تصادف ليلة الإسراء والمعراج، ويقام احتفال ضخم سنويًّا بهذه المناسبة، وهو إمام يسمى علي بن محمد بن علي اليمني، لُقِّب بالأستاذ وكان أحد علماء الأزهر الشريف وله مؤلفات منها (تحفة الأكياس في حسن الظن بالناس)، تتذكر العديد، عندما تذكر الشيخ محمد الفارس ومسجده، يستوقفها مؤكدًا أن المتصوفة رفعوا أقطابهم درجات وأحبوهم بجنون ويمكن أن يحدث العكس كما تقول كتب السيرة، فالشيخ محمد الفارس أخو الشيخ أبي العباس المرسي، والشيخ أبو العباس المرسي هو تلميذ شيخ مشايخ الطرق الصوفية أبي الحسن الشاذلي، ظل أبو العباس ملازمًا لشيخه وأتى معه إلى مصر، وتنقل كتب التراث مقولة الشيخ الكبير عن تلميذه:

«والله ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا، وأنا أنت يا أبا العباس، فيك ما في الأولياء، وليس في الأولياء ما فيك».

ومرة ثانية يقول عنه:

«أبو العباس بطرق السماء أعلم منه بطرق الأرض».

هائمة بحديثه وتتمنى ألا ينتهي، كأنها تبحث كل يوم عن جديد تطرقه ليشاركها.

مجتمعان على فكرة واحدة أن أباهما إنسان لا ينتمي لفكر البشر الحالي، كيف كان يتحمل فوق عاتقه كل مشاكل الناس حوله، كان يستطيع وقتها بما يملكه أن يعيش عيشة سهلة هانئة وأسرته كلها، يسعى إلى الناس فيصلهم ويتحمل عنهم، يقف في وجه المطاريد، يبحث كل يوم عما يجدد الحياة ويرفع عن الناس البلاء والفقر، كيف بدأت الدنيا تتغير، بوادر الخير القادمة مع إنارة البلد بالكهرباء، تقلصت كثير من أفعال المطاريد وربما يعدون العدة للابتعاد عن المنطقة بأسرها، لا ينسون المشروع الأهم القادم بالخير وهو بناء الكوبري فوق النيل، حلمهما منذ طفولتهما.

- أشعر في أبي أنه فرعون.

تضحك وتجاريه في الضحك قائلة:

- لكن ليس فرعون موسى.

- الحمد لله ... أتذكر قراءات عن الفراعنة، أن الإنسان المصري القديم، نصَّب نفسه إلهًا أو ابن إله ... من يومها أصبح للناس في طول البلاد وعرضها أن يلقون بكل مشاكلهم وأمور حياتهم عليه.

- يتضح هذا جيدًا ... فكل الناس تناديه بيا ابا العمده ... يا عمي أو يا خالي ... يا سيدنا ...

بعد صمت لم يطل قالت:

- هل استمر هذا الحال حتى يومنا؟

- أعتقد ذلك ... فما زال الناس يلقون تبعية كل شيء على الكبير سواء كان

رئيسًا أو عمدة.

- على الرئيس أن يفكر في كل شيء، ويفعل كل شيء ويطعم كل البشر من حوله.

- حتى مناسك الدِّين هو البداية.

اهتزت رأسها وبصوت يقترب من الهمس وفي استياء:

- وتلك المصيبة القائمة.

يتكلم مهمومًا فتنصت له:

تغير الزمان، ذاق الناس طعم الثراء والنعمة، فالمحجر الجديد يحمل الكثير من الخيرات القادمة، قادمون يدفعون الملايين ليكون لهم حق استغلال المحجر، سينتج آلاف بل ملايين من القوالب الحجرية بعد قطعها بمناشير حادة جدًّا ذات سنون قوية، وبعد ذلك يتم صقلها وخاصة أوجهها الستة البيضاء ليتم استخدامها في البناء، كما سيتم إنتاج كميات ضخمة من الحجر الجيري يمكن تصديرها بالعملة الصعبة، كل هذا مجرد بداية لغد أكثر إشراقًا، وبوادر قوية عن مناجم للرخام في داخل الجبل، كل هذا سيلقي بثروات ضخمة في جيوب الناس، يستطيع أي شاب لم يأخذ أي نصيب من التعليم أن يكسب يوميًّا ما يزيد عن الخمسين جنيهًا في اليوم ستزيد وتزيد، بعدها ماذا يمكن أن يحدث عندما يشيد الكوبري وتتم الحركة بين الجانبين، سيكون سهلًا الوصول إلى المدينة بكل ما فيها، والعكس أيضًا لا نستبعد أن يأتوا ليعيشوا بيننا، معالم جديدة ستحدث، تقاطعه:

- يبدو في كلماتك الحزن رغم أنه حلم عمرك، كانت أحلامك تتعدى حدود بلدنا، أن نعيش حياة جديدة.

- بسهولة تستطيع عيناك أن ترصد مجموعة متغيرات جديدة، على سبيل المثال لا الحصر... نهم للطعام والشراب وشراء السلع الاستهلاكية

... لقد شاهدت تلفزيون ألوان في منزل فوق مصطبة وكثير من هذا الحال.

- لا أجد عيبًا في ذلك ولا فعلًا خارجًا ... ما دام يكسبون عليهم أن يتمتعوا بما حباهم الله من رزق.

يطوف بها للدنيا الجديدة التي أضحت عليها البلدة، فيطرح سؤاله عليها وقد بدت الحيرة فوق ملامحه.

- هل الفعل الذي يأتيه الإنسان مرجعيته للقدر؟

لا تتسرع في الإجابة:

- لا بالطبع ... ففي القرآن الكريم.

من يفعل مثقال ذرة سواء كان خيرًا أم شرًّا ... سيرى النتيجة.

- في الثراء شر.

- ربما ... تضحك وهي تقول:

عليك أن تهبني مليون جنيه وسأقول لك بعدها.

لا يجاريها في الضحك وقد ارتسمت فوق ملامح وجهه مظاهر ضيق وتذمر.

- هل كل الوجوه عندما تغسل بالماء تزداد وضاءة؟

تصمت أمام سؤاله ولا تجيب فيستطرد:

هناك وجوه معفرة بالتراب عندما تغسل بالماء يزداد وسخها وتظهر قذارتها أكثر، أعتقد أن المال كالماء.

يصف لها كم أحلامه وهو صغير وكيف يتمنى الطيران، ليكتشف ما وراء الجبل، تتذكر إنها ونمر كانا يساعدانه في صناعة طائرته، لم يقتنع بكلمات الجدة وهيبة التي ما زالت ترن في أذنيه، فلا ينسى أبدًا ولا تضيع من ذاكرته الأسئلة البادية في عين نمر، لماذا؟ وكيف يجيبه في عبارات مقتضبة قصيرة بأنه سيتعلق بها ويحلق في السماء، يرجوه أن يأخذه معه.

كل يوم يزداد تألق البلدة، فالقادم في المساء قديمًا كان لا يرى سوى كومة من العتمة السوداء في ظل الجبل الشامخ، كل يوم تتحلى بثوب مغاير للماضي، زادت الأضواء وتألقت وتلألأت وانعكس ضوؤها على سطح النيل والقادم يراها بصورة أجمل، حتى المقابر زرعت فيها أعمدة الكهرباء، في شهر رمضان تتزين مئذنة المسجد الحديث، وكذلك القديم بعناقيد الإنارة والزينة المختلفة الألوان.

من يقطف الثمار قبل نضجها، هل هو صياد ماهر؟ لا تجيب فقد عرفت بأنه يستهل حديثه المباغت بسؤال ويعيد الإجابة عليه، أخاف على البشر من حولي تسرعهم ولهاثهم.

تقاطعه غصبًا عنها وتخرج منها آهة تعكس ما يداخلها:

- حقهم ... كان الفقر يكتم على أنفاسهم.

- ليس عيبًا أن نلتمس النجاة من الغرق فنتعلق بجثة كلب ميت طافية متعفنة، ليس عيبًا أن نحاول النجاة بكل ما أوتينا من قوة ... نعم إنهم لا يفكرون في نزال أو تحدٍّ، أهل بلدنا لا يجيدون العراك والمصارعة للحياة، إنهم مثل سلحفاة في ساعة الخطر أو الشعور به تنكمش داخل غطائها الحجري ...

يشعران بالخوف، يقوم من مكانه ومن أحد أدراج مكتبه يستخرج صورًا متعددة، يسلمها صورة وراء أخرى مستعرضًا وأحيانًا قارئًا لما كتبه خلف الصورة، عُمَّال المحاجر من البلد أو القادمين بحثًا عن مورد رزق في ملابس مهترئة الأطراف، ربما في أقدامهم أحذية خفيفة، الماكينة الخاصة بفصل وتقطيع الحجر بأحجام متساوية، العامل القائم على تشغيل الفصالة كما يسمونها، مقدمتها ذات أقواس دائرية تبزغ منها سنون حادة جدًّا وبدرجة صلابة تقترب من الماس، تنخر الجبل الجيري ولها صوت مرتفع جدًّا يكاد يصيب الإنسان بالصمم، ويوم يفلت أحد تلك الأقواس يمكنه أن يقتل

أو يصيب أي إنسان في طريقه، من مات فقد رحمه ربه ومن بقي على قيد الحياة يظل معاقًا متسولًا ما تبقى له من العمر. الفصالة تسير على قضبان حديدية، عامل مخصص مسئول عن تلك القضبان، عليه تعديل مسارها وفق أبعاد محددة، كل بني آدم منهم يحمل كفنه لأجل لقمة العيش، أكل العيش مر، مسحوقون تحت وطأة العمل الشاق، كل منهم يسعى لمزيد من العمل ليقبض أكثر، فعندما يجيد العامل فإنهم ينقلونه لمرحلة تدر ربحًا أكثر، من يصل لماكينة الحش أو الفصالة التي تشق الجبل الجيري ويقوم بتشغيلها فقد وصل لمبتغاه، من يتحملون الرفع والتحميل فوق السيارات فيتحملون ما يفوق طاقة البشر، غبار جيري كثيف لا يرى من خلاله معالم وجه إنسان موجود وهم الأقل أجرًا، كلهم من شعر رأسهم وحتى أصابع أقدامهم ممسوخون وملوثون بالتراب الجيري، صعوبة العمل في أيام الصيف تدفعهم للعمل في المساء، يستعين أصحاب المحاجر بماكينات إضاءة كهربائية، مناشير آلية لا ترحم، عرق وغبار الجير، مستشفى الصدر بمدينة المنيا تستقبل كل يوم العديد من العاملين بالمحاجر الذين نام المرض في صدورهم.

ذهب يونس بنفسه والتقط تلك الصور الممنوعة، لولا أنهم يعرفون من يكون لكان مصيره غير معلوم، لم يستطع أي إنسان تصوير المعاناة التي يعيشها هؤلاء البشر، في الغد يدفعون الثمن مرضًا وموتًا، لا يوجد أي تأمين عليهم، من أصيب فالعيب يقع عليه، يتهرب أصحاب المحاجر من فكرة التأمين بحجة أن الأعداد ضخمة ومتغيرة من يوم لآخر، رغم مكاسبهم المتعددة من تلك الأحجار التي تستخدم في البناء، والبودرة تستخدم في تبييض السكر والأرز وصناعة معاجين الأسنان لاحتوائها على مادة الكالسيوم بوفرة، وهناك العديد من المواد الخام التي يزخر بها الجبل لم تستغل بعد، مواد خام لصناعة السيراميك والزجاج والأسمنت، أغلب أصحاب المحاجر أو من يستغلونها لفترات محدودة مليونيرات، إيجار للحكومة لا يقارن بكم المكاسب، عندما سأل يونس أخاه نادر، نادر يطالبه بالابتعاد عن تلك

الحدوتة فهناك كثيرون يتكسبون من كبار القوم، يشير إلى المسئول الأول في المحافظة ويقسم بأنه سمعه مرة يقول إن هناك مبالغ طائلة تذهب لأكبر وأهم الناس في الجمهورية، وللحراسة من أبناء شق الجبل نصيب كما أن هناك نصيبًا للمطاريد، فالمحاجر أصبحت الملاذ لآلاف من البشر يكسبون من ورائها، يحذره نادر من خروج الصور التي صورها، يوم يُغلق المحجر ليوم واحد يعاني الناس من البطالة، مستعدون للعمل تحت أي ظرف ومهما كانت النتائج، المصيبة أنهم لا يهتمون بفكرة التأمين إطلاقًا.

يجد فوق وجهها معالم الدهشة المصحوبة بالحزن.

يقسم لها بأن تلك قضيته ولن يتنازل عنها مستقبلًا، في حزن بالغ يقول لنورا:

- لن نتقدم للأمام خطوة واحدة، فكل منا يجذب حبل أفكاره عكس الآخر تمامًا، رغم أن الدماء واحدة والرحم واحد.

يلملم الصور ويحفظها في مكانها، يسرد عليها ما يتمناه في المرحلة القادمة، أولًا وقبل كل شيء التأمين على هؤلاء البشر، مستشفى أو على الأقل وحدة إسعاف سريع نظرًا للحالات المتعددة التي كان من الممكن علاجها، إنهم يتركون الإنسان أحيانًا ينزف حتى يموت، سيتحدث إلى أبيه وكذلك نادر، كلاهما اعتاد فعل الخير فلن يقفَا أمام أمنيته.

تغير حال البلد كثيرًا لقد انتشرت الكثير من المقاهي، أصبح الكثير من أبناء البلد روادًا لها، يقولون إن الأموال لعبت برءوس الشباب، فالكثير منهم يتبارون ويلعبون طوال الليل القمار، يسهرون حتى الصباح في مشاهدة الأفلام الممنوعة، رغم أن هناك تيار يتزعمه شباب مناهض لتلك الأفعال، اضطراب كبير في العلاقات وفي أسى بالغ يقول:

- الناس يتعاملون مع بعضهم في حذر بالغ، أصبح الجميع يفقدون الثقة في إخوانهم، الشك ينام داخل القلوب والعيون، كل يترصد للآخر زلة، خللٌ

أصاب العلاقات عمومًا:

تتردد داخلها أقاويل لا تفصح عنها، فتتذكر أن الملائكة يوم خُلق آدم عليه السلام، قالوا لرب الخلق إن الإنسان فاسد وسافك للدم، هل تركه الله ربما يعود إلى رشده؟ أم تركه ووهبه حرية الإرادة والفكر والعقل ليرى ... كيف يكون خليفة الله في الأرض؟

تلج لباب آخر وهي تتعمد ذلك، تسأل عن المقدس سمعان وما يجنيه من مكاسب من وراء الطاحونة، هل ستستمر الطاحونة في العمل بنفس القوة؟ يبتسم، فقد فهم ما ترمي إليه، تحول الحديث من المقدس سمعان لابنته مريم، كان في الأيام السابقة يُمني نفسه ببناء الكوبري، كانت أهم الأماني أن يأخذ محبوبته مريم وعبر الكوبري يسافران لأي مكان في المعمورة ليعيشا فيه معًا، لا يذهب طيفها من خياله، قوامها الرائع الممشوق وشعرها الأسود الناعم الذي يتسلل من تحت غطاء رأسها الخفيف الشفاف، رقبتها المرمرية التي تتألق وتتيه بما فوقها وتحتها، وجهها الأبيض الناصع البياض المشوب بحمرة التفاح، لثغة لسانها وكلماتها التي تتعثر في مخارج حروف بعينها فتغير الأبجدية التي اعتاد النطق بها، هو يتمنى أن يصيغوا كل أبجديات الدنيا بلغتها هي وتصبح لغة عالمية، عيناها السوداوان العميقتان وشعاعهما الذي يخترقه، يتأمل لون عينيها ويكاد يجزم بأن لون عينيها يتغير ما بين الليل والنهار، يرى أن أجمل نساء الدنيا تحظى كل منهن بجزء من جمالها، لو وزع جمالها على فتيات المعمورة بأسرها لفاض وزاد، تكونت وتمثلت في صورة لا مثيل لها سكنت قلبه، يطبق جفنيه غالبًا على صورتها وينام، لحظات رؤيتها لا تفارق ذاكرته، كانت لقاءاتهما قليلة بحكم العادات والتقاليد، أما اليوم فقد التحقَا بالجامعة فصار من اليسير مقابلتها يوميًّا، تتعمد نورا أن تتركها بمفردها في بعض الأحيان، ما لبثت أن اعتادت، طغت معالم الحياة الحديثة، أصبح التليفون المحمول أو كما يطلقون عليه الهاتف الخلوي في يد أغلب الطلاب بنين وبنات، تدنت أسعاره وأصبح في متناول الجميع.

تقص عليه كيف ذهبت يوم الأحد إلى الكنيسة، أشعلت له شمعة في المذبح ودعت له، مرتان ذهبًا للسينما، مرة لمس أناملها في ظلام السينما في وجود نورا، أحس ساعتها برعشة تنتقل ما بين كفيهما وجسديهما، المرة الأخرى كانَا بمفرديهما، أمام دعوته المتكررة وافقت بعد تمنُّع طال، خافت وانصاعت لمطلبه لحظة أن فسر ترددها بعدم الثقة، في تلك الثانية لم يحاول أو يفكر في لمس يدها رغم ظلام قاعة السينما، كم هي دائمًا مشرقة، كلماتها المتدللة في صحبته تثقب جدار خوفه من الأنثى عمومًا، كم يتمنى أن يتسع هذا الثقب فيتحمل أن يأخذها بين أحضانه، أن يلثم شفتيها ولكن هذا لا يتعدى الأحلام، في الواقع لا تنعكس سوى صور الملائكية والنقاء فتعف النفس عن مجرد اللمس، تتعانق روائح الطهر والنقاء، يمتزج عبق الفل والياسمين بالسوسن أم بالقرنفل والريحان، بحيرة هي نبع أنهار أم مصب لروافد تتجمع في حنايا فؤادها، تسطر فوق معاقل قلبه أسمى معاني الحب، يكتفي بالصلاة في محراب عشقها، في جمال وجهها الصبوح الناعم المبتسم، ربما تمثل جنته على الأرض، لم يتخيل يومًا أن يحظى بمحبوبة أو بمن تعشقه أو يجد في عينيها كل هذا الحب والعشق، لم يسمع ... آه أليست الجنة التي قالوا عنها فيها ما لا عين رأت ... لم أر يومًا في جمالها، ولا أذن سمعت ... لم أسمع من قبل هسيس كلمات كأروع سيمفونيات الدنيا إلا من صوتها، لم يخطر على قلبي يومًا، ما أجملها جنة، قداسة وطُهر ونقاء تنبثق من النظرات، شعور صادق دائم.

***

متغيرات كثيرة تعصف بعقل الناظر في ظل المتغيرات الحادثة، كأن معالم وجهه في تذمر مستمر، يجتمع ثلاثتهم كالعادة، وكأنه يتحدث إلى نفسه فيفيض بالكلام ...

آه طمعنا في قطعة لحم نلوكها ونمتص عصارتها ونبلعها، كان حلمًا، في سخرية لاذعة مما يدور، يستكمل ... وجدنا أبقارًا تُذبح لنا وعافت

نفوسنا الطعام واللحوم، السبب فيما يحدث الخير الذي عم الوادي، هل تحققت أمانينا الفقيرة؟ جاءتنا مع أنوار الكهرباء وتدفق الأجهزة الحديثة لأغلب المنازل مهما قل شأنها، تداخله الريبة في حقيقة مشاعر الناس من حوله، هل ما زال الحب نائمًا في قلوبهم؟ أم نزحوا لوادٍ جديد عليهم ترسمه خيالاتهم في ضوء المتغيرات ومما يشاهدونه عبر شاشة التلفزيون؟!! ربما تحللوا من عاداتهم السابقة من تقاليد كانت، كأن كلماتهم الصادرة من شفاههم تقطر جشعًا، أفعالهم تتسم برعونة، أهداف محدودة مرسومة في عقولهم مزيد من الثراء، يرقصون فرحين بما جنوا من أموال ولكن من وراء العيون التي يمكن أن ترقبهم خلف الأبواب المغلقة، يشعر وكأن هناك احتمالًا لانفجار قادم، تزدحم رأسه بالأفكار... كيف يهرب؟

الغموض يكتنف أفعال أغلب البشر، كل يحجب أسراره، أغلب النساء تزينَّ وعرفنَ الطريق لأدوات ومساحيق التجميل، لم يستغرب كثيرًا يوم أخبروه بأن هناك محل كوافير لتزيين العروس يوم زفافها، في الغد سيغلق مسعود المزين محله الصغير، إحساس غريب بنذر قادمة ولكن لا يتكهن أللخير أم للشر؟ يحاول الشيخ رضوان أن يرفع عنه الكدر والألم الذي يعلق بصدره، لكن كيف يزيح تلك الأفكار؟

في جلستهم المعتادة لثلاثتهم الناظر والشيخ وطه، يقطع خلوتهم صوت نادر يستأذنهم الدخول، بضحكته الطروب المنعكسة على ملامح وجهه ولكن بلا صوت عالٍ، يدخل أمامهم فيسلم على والده ويميل ويُقبِّل يده فهو لم يره منذ يومين، يميل أيضًا فيقبل يد الشيخ رضوان وهو يبتسم قائلًا:

«ليس عيبًا أن نُقبل يد العلماء».

عيناه لا تفصح عن مدلول كلامه، قادمون خلفه، بعضهم يعرفونهم فهم من أبناء البلد وآخرون غرباء، يعرضون أفكارهم، يستأجرون قطعة أرض بور وفضاء لفترة لا تتجاوز عشرة أيام في مقابل مبلغ كبير من المال، نادر هو شفيعهم ومؤازرهم وما دام قدِم معهم فهو موافق مبدئيًّا، يقلب الناظر

عينيه وتحاول نظراته أن تستجلي ما يدور في رأس ولده شبه الوارث لأفكاره وأمانيه، تدور ثانية فوق وجوه الزوار، يشعر بقبضة في صدره، يقولون إنها فترة العيد وسيقيمون مولدًا ضخمًا، سيأتي كل الناس من الجانب الآخر، سيلعب الأطفال ويتبارى الشباب ويُسعد الشيوخ، يتحدثون عن ملامح الغد والفرح في المولد، رغم كل ما يحدث عينَا الناظر لا تغفل عن المرابضين في شقوق الجبل من المطاريد وما يسعون إليه، فماذا يحمل الغد منهم؟ هل ستكون لهم الغلبة؟ هل ستواتيهم الفرصة وتسنح لهم أن يندسوا ويفعلوا ما بدا لهم؟ لقد انتهى عصر الحاجة للمطاريد وما كانوا يتكسبونه من أموال ترفع عنهم الفاقة والحاجة، تفتحت مصادر الرزق من كل اتجاه، مناجم الرخام والحجر الجيري وغيره، عيون الغرباء وجهت ناحية البلدة وما حولها، تجار ومستثمرون تفصح كلماتهم عن ملايين يملكونها، وكل قادم يعلم بأنهم أساس المنطقة ولا بد مَن يستجير بهم فينزلهم منازلهم ويشيد بهم ويرفع من شأن كبيرهم، بذكاء فرضوا وجودهم على كل قادم، المعتاد أن يفكر الناظر والكبراء في مصلحة أبناء البلد، يشغل بالهم الاستفاده بكل الطرق المتاحة من الرزق الحلال المتاح، معالم الحياة تدب في الجبل، تغير الحال فلم تصبح المراكب الشراعية هي الراسية على الشاطئ فحسب، مراكب كبيرة بهدير محركاتها تعبر وتسير في اتجاهات مختلفة محملة بالمواد المستخرجة من الجبل، ومعديات تعمل آلاتها بالسولار وتئن بهديرها الصاخب، تقوم بنقل الركاب من بشر وحيوانات وبضائع أيضًا ما بين الشاطئين، استعداد وترقب قائم بشأن تشييد الكوبري العلوي فوق النيل، أحلام وأماني وفيض رزق قادم، أكبر المتفائلين لم يتصور ما هو آتٍ، تتوالى الصور المتسارعة في مخيلة الناظر، يعود الرجل من صمت تأملاته وولده يشرح له الفوائد المتعددة التي ستعود على الناس، ويظهر جليًّا أن نادر سيكون أكثر استفادة، يوافق الناظر إرضاء لنادر، لم تكن دهشة الشيخ وطه كبيرة، فكل الأمور في البلد من حولهما تتغير، وأفكارهم قديمة.

***

عندما تجمعهم ساعة العشاء التي قليلًا ما تحدث، ينظر الناظر ليونس وكأنه يراه للمرة الأولى، تقطع صمته ونظراته نورا وهي تموج بالضحك قائلة:

- نحن هنا ... إيه؟

يضحكون، يبلع الرجل ما في جوفه، يقص عليهم حكايات يونس وهو صغير، كيف كانت أحلامه دائمًا متعلقة ببناء الكوبري العلوي فوق النيل، ويوم يزرعون أعمدة الإنارة في شوارع البلدة كلها، لم يتبق من أحلامه الكثير، كادوا أن ينتهوا من بناء المدرستين الجديدتين، كان يتحدث أيضًا عن بنايات بعد الكوبري تعادل أبنية الشاطئ الثاني والمدينة، أن يتعلم كل أبناء البلد وخاصة الفتيات، يضحك الرجل وهو يصف تنبؤات يونس وكيف أنها قاربت أن تتحقق كلها، الأموال في يد الجميع، كسبٌ حلالٌ ورغم ذلك الرجل يبدي تخوفه أن يصبح الناس أسرى الدنيا فقط، تتولى نورا الرد فتصف ما يحدث بأنه وضع طبيعي لمتغيرات الحياة، الدنيا تتطور كل يوم، يونس يبدأ حسابات جديدة في عقله، يحسب مدى تأثير تلك الحوادث في مكانة أبيه في قلوب الناس، هل تلهيهم المكاسب الهابطة عليهم، سيصبحون في المستقبل بلا حاجة له، يتذكر كيف كان يحارب من أجلهم، كان يشعر بأن جميع أبناء البلدة أولاده، هل يخاف أبوه أن يسحب بساط مكانته؟

كلمات الرجل لا تعكس تخوفًا على مكانته فيقول:

- تعيش الثعابين بين الزهور والرياحين، تنفث سمًّا ربما يمتزج برائحة العطر النفاذة، وكلنا تتغلب علينا رائحة العطر ولا نلقي بالًا، نسبل أجفاننا وننام ونستنشق العطر الممزوج ولا نتخيل أبدًا بما يحمله لنا، كلنا كبيرنا وصغيرنا أسرى لحلم، نعم قد يختلف من إنسان لآخر...

تململت نورا وبدا أنها تحب أن تشارك في الحديث، قليلًا ما تشارك أباها الحديث، نظر الرجل إليها وتعلقت عيناه بها وارتسمت ابتسامة مشجعة

فوق وجهه، خرجت كلماتها متلعثمة في البداية واستجمعت شجاعتها وتكلمت:

- أحس أن قلوب البشر نبتت بها أشواك.

صمتت في حياء فأكمل الأب، مبهورة بالمشاركة معه في الحديث ولكنها شبه مسحورة وهو يقول:

- إن لم يدخل الحب والإيمان في القلب فمن السهل أن تنمو الأشواك ... للأسف ستدمي صاحبها أولًا ... يقطع يونس الصمت:

- نباتات الأشواك في مستهل حياتها وبداية نموها لا أثر لأشواك فيها، على سبيل المثال نبات العاقول بكل ما به من أشواك في بدايته يمكن أن تأكله مختلف الحيوانات، لا أثر لأشواكه وعندما يكبر لا تقربه أي حيوانات سوى الجمل فقط، إنها كالطفل في مهده وكلما اشتد عوده إن لم تبذر داخله بذور الخير سيطفح الشوك فوق كل أجزاء جسده ...

يأخذ الحديث دورته، الناظر لا يهاب شيئًا ولكن يتخوف من غد قادم، كجبان يملك سلاحًا فتاكًا، الخوف من ثراء يغمر البشر في نعمة تغرقهم، أن ينسوا صلات الرحم والقربى، يمكن أن تزيد ثروة الإنسان يومًا بعد يوم وينسى أن العمر يجري وينقضي، تأتي الساعة التي لا مفر منها:

- هل كرهت إنسانًا؟

سؤال تطرحه نورا على أبيها بلا مقدمات، ينظر الرجل إليها:

- لا أذكر يومًا ... يمكن أن أكره فعلًا يأتيه ... أما ذات الإنسان فمستحيل، تظهر عظمة الخالق سبحانه وتعالى في التباين الغريب بين البشر رغم الأصل الواحد:

- هل يولد إنسان وقلبه مشبع بالكراهية؟

- طباع مختلفة ولا نستطيع أن نقسم البشر، فالحيوانات منها المفترس

ومنها المستأنس ... صمت أعقبه يونس قائلًا:

- تموت الخنافس من رائحة العطر، الغريب أنها تحب أن تمشي في القاذورات والنجاسات.

-٦-

المــولد

انتشرت الخيام والسرادقات وتنوعت، صخب غير معتاد، مكبرات صوت تتداخل أصواتها ونداءاتها، الشيخ رضوان له نصيب محفوظ في كل فعل وعمل، مكاسبه من وراء هذا المولد تأجير قطعة أرض خاصة به بمبلغ لم يحلم به ولمدة لا تتجاوز نصف الشهر، كان صاحب النصيب في الإيجار صاحب فرقة أكروبات وألعاب بهلوانية لم يعتد عليها سكان المقابر وما حولها، عندما هاج بعض الشباب الصغار على ما تسببه أصوات الميكرفونات ومدى تأثيرها على الآذان والصلاة، كان رد الشيخ جاهزًا وفتواه واضحة وقوية جلية، فأكد بأن جميع مَن في المولد حريص على الصمت أوان الصلاة أو الآذان في أي وقت، صمتوا وانسحبوا قانعين شكلًا وثورتهم كامنة في صدورهم.

زحام لم تشهده البلدة يومًا، أعداد غفيرة متباينة في كل شيء، اختلاف في مظهر وملبس، أبناء من الريف وآخرون من المدينة ووافدون غرباء، متسللون ولكن لا يستطيع أحد أن يؤكد إنهم من المطاريد، ألعاب متنوعة أكثرها مقامرات ولكنها في ساعات الليل الأخيرة، أما أوان النهار فإنها ألعاب مشروعة، يتوافد عليها الكثير من البلد أو الخارج، سرادقات لمطربين محليين، خيمة ضخمة تستضيف أحد المدَّاحين المعروفين على مستوى الصعيد كله، الدخول أحيانًا كثيرة بمقابل وأحيانًا تكون الليلة يقيمها أحد أهالي البلد أو بعض المعروفين من الجانب الآخر، ويُعلن عن المضيف ويتكرر النداء باسمه كدعوة للعاشقين والمحبين، دعوات محسوبة وخاصة لأصحاب الشأن ومن ينوون الترشح في الانتخابات، لقد أزيح الستار عن

البلدة فلم تعد مجهولة، ربما يكون المولد السبب في الإعلان، ولكن الحقيقة كامنة في مظاهر الغنى القادم والخيرات المدفونة في أرضها وفي المستقبل، لا يفصح الكثير ممن يفعلون ذلك عما تجيش به قلوبهم، كل يطمع في غد يكسب من وراء البلد وأهلها على حد سواء، مع القادمين تنشط حركات البيع والشراء، باعة يعرضون مختلف البضائع، لعب أطفال متنوعة يمتزج فيها القديم المحشو بالقطن وبقايا الأقمشة إلى الحديثة التي تدار بالبطاريات الجافة أو المشحونة من خلال زنبرك دوار، باعة للمأكولات تتنوع الأكلات من الفول والفلافل للمشويات بمختلف أنواعها، رائحة الدخان العبق برائحة الشواء الطائر النفاذ نتيجة لحرق الدهون فوق الجمرات الملتهبة تغرق المكان حولهم، رائحة طيبة مثيرة لأمعاء وبطون الزائرين والقادمين أو الأهالي على حد سواء، مناضد مفروشة في الخلاء منها الثابت ومنها المتحرك التي يفرشونها بسحب أجزاء عبارة عن قوائم متخفية، جديدة وأخرى متهالكة، أصحابها لم يشتروا أو يستأجروا مكانًا، يعرضون ويكسبون ويدفعون إتاوة متفق عليها، لنادر وأتباعه النصف، وللمستأجر الغريب ومن معه النصف الثاني، يساومون وفي النهاية يدفعون وعلى وجوههم علامات الرضا صادقة أو كاذبة لا يهم، لا يبرحون المكان، ساعات النوم القليلة التي يسرقونها بجوار بضائعهم المعروضة فيكتفون بغطائها وكفى، ينتظرون قدوم اليوم التالي ليباشروا أعمالهم من جديد، أكثر من نصبة للشاي ومختلف المشروبات الساخنة من حلبة وقرفة وسحلب محوج، روادها يكتفون بالجلوس على الأرض فوق مفارش متهالكة أو فوق مصاطب مؤقتة مصنوعة من رص بعض من قوالب الحجر الجيري واليوم ما أكثرها في الجوار، ربما يأتي آخرون بمقاعد قديمة أو دكك متهالكة يستأجرونها من أهالي البلد، ضباب الدخان الكثيف المتصاعد يملأ المكان، مواقد مملوءة بجمرات الفحم أو بقايا الأغصان الجافة وكل ما يلزم حجارة الشيش والجوز، في الخفاء تدور قطع المزاج المطلوبة، لكل شيء متخصص قائم بكل الاحتياجات حتى تسليك الغابة الخاصة بالجوزة أو لَي الشيشة واحد مسئول عنها، يستعين

بعضهم بمروحة كهربائية متنقلة يسلطها على الجمرات خوفًا من أن تخبو نيرانها، فساعة أن تصمت عن الدوران تُغلف الجمرات بغطاء شفاف من الرماد، مجرد النفخ أو التهوية أو تشغيل المروحة تتطاير آثار الرماد وتبزغ النيران وتتوهج الجمرات.

جو مفعم بالحماس والنشوة، يغلب على الوضع القائم الجديد والحديث على البلدة استعراض القدرات، شبابٌ، رجالٌ، شيوخٌ الكل يسعى، غرباء، أهالي يبدو على عيونهم المرح وعيون تبحث وتنقب عن جديد، نفوس تلهث وعقول تشرد وحركات للأيدي تختلف بقدر ما تحمله، أيدي خالية وأخرى متشابكة وأيدي تقبض على أسلحة وبنادق آلية متنوعة، من يسحب في يده طفلًا أو طفلة ربما صاحب أو صاحبة، كل الأمور قائمة وكل الأعمال مغلفة بشيء من الحياء، أغلب الرجال يمضون في الدروب المصنوعة بالخيام والسرادقات وفي أياديهم عصى تختلف حتى في أطوالها وتتنوع ما بين الخيزران وعصيان المعارك الضخمة الموشومة أطرافها بقطع من النحاس أو الحديد، وأحيانًا كثيرة مكسوة بذيل ثور ما تزال آثار شعره باقية.

كثيرون يعرضون بضائعهم بالنداء والغناء وأحيانًا يستعين أحدهم بطبلة أورق أو ما شابه ذلك، في المساء وقبل أن يحل الظلام تغمر الأضواءُ الأرجاءَ، عناقيد متنوعة من مصابيح الإنارة المتعددة الألوان والأشكال، تختلف الإضاءة ما بين الضعف والقوة، مصابيح صغيرة أضواؤها مستمرة وأخرى تلمع وتطفو مكونة مزيجًا جميلًا وجديدًا على المكان، كراسي للفراشة تتنوع من السادة والمبهرج حسب رؤية مقيم الخيمة، أفعال ظاهرة وثانية مخفية وأهمها زجاجات البيرة المتنوعة، إشارات متفق عليها وتختلف الأماكن، فغالبًا هناك أماكن أكثر أمانًا في الداخل، تتنوع الملابس ما بين الجلاليب والتي شيرتات، أغطية الرأس ما بين الشال الأبيض المعتاد أو الشال الفلسطيني ذي المربعات المنقوشة وألوانه ما بين الأحمر والأسود والأبيض، وكوفيات معتادة وطواقي وعمم بأحجام متنوعة أيضًا، ملامح

بشرية متنوعة، لهجات متباينة كلها تنطق بلغة واحدة، دهشة وإثارة وولع يبدو في وجوه الجميع، نساء القرية كسرنَ حاجز السجن فخرجنَ في حياء، اتشحن بالسواد وأخفين وجوههن تحت غطاء شفاف رقيق، ذهبت نورا ومريم وصحبتهما أم نمر وسيدتين كحارستين، وافقت نورا بتلك الصحبة رغم أنها تسافر شبه يوميًّا هي ومريم للجامعة في المدينة على الطرف الثاني للنهر، كان الدافع الأساسي لذهابها أن ترى ما حدث للقرية من تجديدات.

كثير من البائعين استعانوا بفتيات من المدينة لترويج بضائعهم، كانت رؤيتهم صائبة في فعلتهم، ظهرت بوادر صواب رأيهم في التزاحم على معروضاتهم دون الآخرين، أمواج من البشر تتدافع ولكل مأرب، كل وجوه الرجال تبحث لتتأمل وجوه النساء، كذلك النساء فلا يختلف الحال كثيرًا، قد تمتد وسط الزحام أصابع فتى أو رجل تعبث بجسد، من يقع عليها الفعل تُستفز فتبتعد، قد يطفح الخجل على ملامحها فتبتلع مخاوفها، ربما يثيرها الفعل المفاجئ فتشهق شهقة تختلف بقدر الفعل، من يستهويها الفعل ترسل إشارة تكون شبه صامتة بطرف عينيها، من تمتلك الجراءة ولا تثير تلك العملية سوى تقززها، فيكون رد فعلها صفعة فوق وجه الفاعل، وجوه في الغالب مشرقة يطفو المرح فوق محيَّا الغالبية، كما يقولون مولد وصاحبه غائب.

شحاذ بملابسه المرقعة البالية وبيده مبخرته التي تتصاعد منها رائحة البخور، ضباب كثيف معطر الرائحة، يلقي بحبات البخور بين الجمرات ويتمتم بكلمات لا يُفهم منها سوى كلمات التوحيد والصلاة على رسول الله، يرحبون به ويهبونه مما رُزقوا، يدور وتدور في يده المبخرة ببخورها القادم من مقام سيدنا الحسين أو السيدة زينب:

«شي الله يا أولياء الله».

بخوره يطرد الشياطين ويدعو الملائكة أن تحط وأن تتوافد الأرزاق والخيرات على صاحب الخيمة أو النصبة، ضحكات وابتسامات البائعات

من فتيات البندر تدفع الجميع للشراء، مساومات تنتهي دائمًا لصالح البائع، تعامل أهالي البلدة مع الفتيات الغريبات وطن فيهم رفع حاجز التكلف، تجرأوا في الحديث واستمتعوا بمواصلة المساومة، كانوا لا يتجرأون في الحديث مع أنثى ولو حتى حديثًا عابرًا، فيوم تتحدث إليهم فتاة أو أنثى مهما كانت درجة معرفتها بأي منهم فإنها تسحب طرف وشاحها لتغطي وجهها وخاصة منابع حديثها شفاهها وأسنانها، اليوم حتى نساء البلدة كثير منهن تحللن من تلك الأفعال القديمة البالية، فالمولد أصبح موسمًا ومؤكد في المواسم القادمة سيكون هناك تغييرات أكثر، مجرد أن شعروا بهذا النجاح منقطع النظير لهذا المولد سيصنعون ويخترعون أكثر من مولد وموسم، ليكن مع الأعياد أو ميلاد أو تاريخ وفاة الشيوخ والأولياء، فالمكاسب متعددة والأموال تغري النفوس مهما كانت صلابتها، عقول مشوشة برغبات تصب كلها في قالب واحد ... الثروة ... فالثروة وكل ما يبغيه الإنسان يستطيع شراءه بالنقود، المولد يحمل الفرح والسعادة بل أصبح أيضًا سوقًا كبيرًا فبضائع متنوعة يأتي بها التجار، حتى ماكينة سَنِّ السكاكين يدور حجرها بقوة تحت حركة أقدام صاحبها المتسارعة، تفرش شررًا نتاج احتكاك حجرها الدوار بسن السكين أو أي سلاح أبيض سواطير أو سيوف قديمة أو حتى المطواة قرن الغزال، من شراراتها المنثورة حولها تخطف الأنظار، بائعو السبح والعقود المختلفة الأشكال والألوان من كريستال وكهرمان تعشقه السيدات.

عيون مغامرة وأخرى متنمِّرة، فاجرة وهائمة، عيون تغمز وحواجب ترقص وشفاه تنفرج إعجابًا، كلمات تخرج من حيز الحياء فتتجاسر، أسراب تتوافد وأخرى تمضي، جلسات يتخفى أصحابها وجلسات معلنة، مطاردات ودعوات، تتلون أيامهم بألوان السعادة، إنها فرصة جديرة باستغلالها، يجدون في المولد الملاذَ لتقضية الوقت والتمتع بما وفروه من الأعمال طوال الفترات الماضية، كل الأشياء من حولهم تتغير، حتى الانتقالات ما بين ضفتي النهر لم تعد قاصرة على مراكبهم الشراعية فحسب، اليوم أكثر من معدية تقوم بعمليات النقل المختلفة سواء للبشر أو متعلقاتهم وحتى حيواناتهم،

أغلب الشباب متعلم أو غير متعلم لا يجيد مهنة محددة بذاتها، فكما يقولون يقلب رزقه ويمتهن أي مهنة تفتح ذراعيها إليه، يبحثون وبسهولة يجدون العمل متوفرًا وبمبالغ لم يحلموا يومًا بلمسها، قليلون جدًّا ما زالوا متعلقين بأعمال السابقين مثل بناء المدافن وتجهيزها، الغالبية العظمى يلملمون أرزاقهم من كل مهنة وعمل متاح، انتهى عصر قمائن الطوب؛ فالأحجار الجيرية البيضاء سواء المصقولة أو غير المصقولة كثيرة وهي المستخدمة هذه الأيام في أعمال التشييد والبناء، ليس للمساكن فحسب فحتى المقابر بنيت بتلك الأحجار، لم تفلح النساء في قصقصة ريش الرجال فحاموا في المولد، وعندما وجدن بدورهن الفرصة خرجن وبحثن عن متعة نظر وربما القليل منهن بحثن عن متعة فعل، إذا سنحت فرصة لهذا النذر اليسير منهن فيفضلن الغريب، يدركن العواقب التي تنجم من المعارف.

ينطلق المطاريد من الشقوق ملثمين، لا يتجاسرون فالعيون ترقبهم وأغلب العيون في المولد ملَّت المراقبة وبدورها تبحث عن مزيد من المتعة في أي فعل، ما يكسر شوكتهم اليوم القوة الأمنية الجوالة التي تعسكر قريبًا من المولد، يقودها أكثر من ضابط من أمن المديرية نفسها، معتادون على جلسة خاصة قام بترتيبها نادر على أحد جوانب المولد، يفيض نادر عليهم جميعًا من كبير لصغير بكل ما يتمنون، يوميًّا المأكل والمشرب رهن أيديهم، بل عليهم أن يطلبوا ما شاءوا والأنواع التي يفضلونها، عيب أن يطلب الضابط بنفسه، المعتاد أن يتكلم باسمه أحد المعاونين المساعديين له، لا مانع أيضًا أن يطلب من نادر قطعة من الحشيش أو الأفيون الخاص، المكسب محسوب منذ البداية، فأي طلب لنادر يحظى بموافقة الجميع، كل المشاكل حلها بيد نادر، تركوا له حرية التصرف، من قبض عليه الخفراء متلبسًا بالسرقة فالأمر معقود برؤية نادر، استطاع نادر أن يفي بكل احتياجات القوة الأمنية ويزيد، أضاف كل الحسابات مضاعفة على نفقة المستأجرين وكان واضحًا معهم، ومَن يستطيع أن يجاهر بعدم الموافقة أو يدعي بأنه دفع لهم من ماله الخاص؟ يصمتون ويكسبون جميعهم، المطاريد يتسللون يركبهم الرعب

والخوف، يتحاشون الأماكن القريبة من القوة الأمنية أو التجمعات الكبيرة.

***

تتخفى مهجة وتأتي شبه يوميًّا ولكن تحت رعاية نادر، لا أحد يعترض طريقها، أفعالها تصرح بها لنادر قبل أن تأتيها، لم يحدث ما يعكر صفو تحركاتها ومكاسبها القادمة سوى واحدة من فتياتها، قبضوا عليها في أحد شقوق الجبل بصحبة فتى غريب من الشاطئ الثاني، لو كان واحدًا من أبناء البلدة لاكتفوا بضربه وصفعه وإخلاء سبيله، لكنه غريب والفتاة غريبة أيضًا، جاءته مهجة وأخبرته، بسرعة أقنع الضابط بأن الفتى طالبٌ بالجامعة وقد يؤثر ذلك على مستقبله، والفتاة من البر الثاني لا يعرفون لها أصلًا أو فصلًا، ويُطلق سراح كليهما بإيعاز من نادر.

يطغى العنف على أفعال الشباب من أتباعه، يحذرهم من مغبة الأفعال التي يأتونها، ينتهون من ساعات الحب في لهفة وتسرع، يضحك على أفعالهم وكأنه يدربهم، فيتأهبون ليوم قادم جديد ولفعل حب أكثر تريثًا وهدوءًا، يغرق في الضحك ويلعنهم ويلعن أيامهم، يقبض نادر على زمام الأمور جيدًا، تعلَّم الكثير من الدروس واستفاد، لكن مستحيلٌ أن يقبض إنسان على الماء في راحة يده، فالمولد زاخر بالغرباء ومؤكد أن المطاريد يندسون ويتاجرون، يعرف بطرق غير مباشرة عن طريق فتيات مهجة بمن باع ومن اشترى ومن كان الوسيط، يطالب تابعيه بالتريث وعدم التسرع عندما يعرفون شيئًا من ذلك، قد يأتون أفعالًا متعجلة وألفاظهم لا يتحكمون فيها، بصراحة غريبة ينتقد أفعالهم ويطالبهم بأن الدنيا تغيرت من حولنا، علينا أن نتكلم ما بين الخشونة والنعومة ولا مانع أن نعامل أبناء البندر والمدينة برقة، يضحكون ويفصحون عن كثير من أفعالهم فيها تسرع وطيش وجري وراء غريزة.

كانت المقابر وخدمتها تحتل المركز الأول في جملة اهتمام أهالي البلدة، اليوم أصبحت في ذيل المهام، انفراجة لم يحلموا بها يومًا، وأرزاق هبطت عليهم من السماء، ما زالت للناظر مكانته المحفوظة في قلوبهم وخاصة الكبار، هذا

لا يمنع أن هناك أكثر من بناية شيدت حديثًا، هناك بنايات متعددة أصبح لأصحابها مندرة كبيرة ضخمة، وتعددت العائلات ولكل عائلة كبير، مشاكل كثيرة تطفو على السطح، وإن لم تحل فما زالت مندرة الناظر تجمعهم وإليها يتوجهون، تكلل المساعي بالتصالح بين المتخاصمين والمختلفين، العديد من المشاكل تُحل بعيدًا عن مندرة الناظر، الأفراح وليالي الذكر لم تتوقف على الساحة الكبيرة أمام بيت الناظر فحسب، نمو متصاعد مبشر بالخير في شتى الأفعال والأعمال، الشيخ رضوان يتربع فوق عقول الناس فهو الأزهري الأول، رغم أن هناك أعدادًا ممن تخرجوا في جامعة الأزهر من البلدة، بعضهم بل أكثرهم لا يأخذون بفتاوى الشيخ لكنهم مضطرون لمجاراته ولو كذبًا ...

يحاولون أحيانًا استثارته في أسئلة له رأي خاص فيها، فتاوى غريبة عن المنهج الديني، هو يصمم على رأيه وهم ينبشون ولكن بحذر بالغ، فالشيخ هو والناظر أكثر من الإخوة ولن يعجب الناظر التطاول على الشيخ، لا يستطيع الشيخ الصمت.

الشيخ رضوان من فوق المنبر يهاجم معالم الحياة الحديثة التي يسير أغلب الأهالي على دربها، يطالبهم بأن يعيشوا وفق منظومته القديمة، أن لا يتركوا تراث آبائهم وأهاليهم، فيستميل قلوب الناس للحياة التي كان سلفهم عليها، يدعوهم لنبذ المستجدات التي تعصف بذاكرتهم وألَّا يغيروا نمط حياتهم ...

فيضرب الشيخ الأمثلة قائلًا:

«يعيشون في شقق بها أدوات غريبة، يقولون للرفاهية والحياة السعيدة، يدمرون تاريخهم بأيديهم ويحرقونه، أي سعادة أيها البلهاء الجهلاء ... السعادة الحقيقية هي سعادة الآخرة، سعادة الفوز، يوم لا ينفع مال ولا بنون، يضعون فوق الباب جرسًا كهربائيًّا، يلمسونه فيدق، مصائب ترتكب تحت دعاوى المدنية الكاذبة، أجراس يلمسونها فتصدر أصواتًا، إياكم وتلك الأفاعيل وتلك الأجراس ... إن الجرس ... الناقوس ... يصدر أصواتًا

موسيقية، الموسيقى آية الشيطان، فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول ... إن الملائكة لا تدخل بيتًا به ناقوس ... يجب أن نطرق الأبواب ونقرعها بأيدينا أو بالعصى، ولو بالحجارة فهو أقرب للتقوى، تمهلوا ولا تستعجلوا حتى يأتي أصحاب البيت ويفتحون، فالعجلة من الشيطان وإن الله مع الصابرين».

تهتز الرءوس كثيرًا ويمصون شفاههم ولا يجرءون على مناقشة الشيخ الإمام، الشباب يستغلون تلك الأقاويل، المصيبة أنهم ينقسمون على أنفسهم هذا مع وهذا ضد، تتابع أعمال الجميع في نهم بادٍ غريب، اكتسب الغالبية جراءة في غير الحق، ووقاحة الفعل الذي يأتونه لا يشعرون بفداحته، أصبح الجميع يكسبون ويلهثون نحو المزيد، كثير من الأشياء الجميلة سقطت أثناء تسابقهم، يكذبون ويدعون وكثيرًا ما يقسمون كذبًا، كلٌّ يجادل؛ من يعلم ومن لا يعلم، كلٌّ يفسِّر الأمور كما يحلو له، يقسم الشيخ رضوان -وهو أكثرهم معرفة وعلمًا برجال الدِّين- بأنهم يفسرون كل شيء وفق أهوائهم ووفق المكاسب التي يمكن أن يجنوها من وراء فتواهم، يواصل هجومه بأن ما يفعلونه من فعل الشياطين وكل أقوالهم أباطيل وأكاذيب.

***

الفرصة سانحة والناظر انتهى من صلاة العصر، جلس فوق سجادة الصلاة يقرأ الورد المعتاد لبعد ختم الصلاة، ما أن انتهى وقبل أن يطوي السجادة ويقوم من مكانه، جلس يونس أمامه:

- حرمًا إن شاء الله.

- جمعًا بإذن الله يا ولدي.

- أما آن لك أن تريح عقلك وجسدك؟

- نعم يا ولدي، شاخ العقل والجسد.

- الروح والقلب لا يشيخان.

- الروح نعم ... أما القلب فمرهون بعمل تستنزفه الدنيا.

- أطال الله في عمرك، لقد امتلأ صدرك وقلبك بآلام الناس وشقاء البشر حولك، كثير من الأماني ظهرت بوادرها، جاء الخير من نواح متعددة، لم نتخيل يومًا.

صمت يونس عن الكلام، هناك حديث دائر في خلايا عقله يود أن يفصح عنه ولكن لا تأتيه الجراءة أن ينبس بكلمة منه، فيدور بكلامه على العمر والراحة وحج بيت الله ثانية، يدخل مباشرة:

- يا أبي العمر قصير... والراحة مطلوبة.

بعد ضحكة قصيرة وغير ممطوطة:

- من أين تأتي الراحة؟ هل تظنها في النوم؟ الراحة تختلف من فكر إنسان لآخر... فالراحة والسعادة بالنسبة لي توأمان لا يفترقان، فسعادتي وراحتي يوم أرفع همًّا عن إنسان.

- أظن أن فوق رأسك تاجًا من محبة البشر... يواصل يونس الحديث والأب ينظر إليه وتكاد تفر من عينيه الدموع، الفتى مهموم بتعب أبيه، يخاف عليه ويطالبه بالراحة ...

انظر حولك يا والدي، تغيرت أمور كثيرة، لترَكم تعداد من ذهبوا للجامعة، ها هي أعمدة الإنارة غرست في كل أنحاء البلدة ودخلت البيوت، كثير من المنازل استحدثوا فيها أرقى الأجهزة الكهربائية، استبدلوا حياتهم بكل ما هو جديد، خير قادم بلا حدود، الجميع يكسبون ...

يفصح يونس عن سعادته بتغيير حياة الناس للأفضل ولكن ما يخفيه حزن في أفعال أصبح كثيرون يفعلونها بلا حياء وكأن الله غير موجود، يبتلع حزنه على رؤيته لأطفال صغار يدخنون (الجوزة) ورائحة الحشيش

ظاهرة جلية، لا يقول ولا يشير لتلك الأفعال، يتذكر أنها كانت أمانيه التي يجهر بها للجميع، وماذا سيحدث عندما يتم الانتهاء من تشييد الكوبري؟ هل هناك مزيد من الانفلات سيسبح فيه الناس؟ كيف ستأتينا المدنية؟ أبالخير أم بشرور تذهب بالبقية الباقية من عاداتنا، يستعيذ الناظر بالله من الشيطان الرجيم ويقول متنهدًا:

- كم كانت الحياة قاسية يا ولدي، من تراهم اليوم أو أولادهم وما يتمتعون فيه من خير، لو رأيتهم في الأيام السالفة، ما يتغذون عليه تعافه نفوس أبناء هذه الأيام، قليل منهم يزرع أو يرعى ومن يصطاد قليلًا من السمك فهو أسعدهم حالًا، كانوا ينتظرون ما يجود به أهالي الموتى، يصبرون وتعجز أياديهم عن عمل جديد، ينتظرون وكلمتهم المتداولة بأنهم يبحثون عن ستر حالهم ودعواتهم أن يجمل الله حياتهم بالستر... صمت لا يطول وآهة عميقة ويسترسل الناظر من جديد:

يا ولدي كنتُ وما زلتُ أبلغ أقصى درجات السعادة يوم أدفع عن إنسانٍ كربًا أو أزيح غمًّا، أنام ملء جفني وأسبح في فيض خير ومحبة، أشعر أن صدري منشرحٌ وقلبي يدق بمعزوفة إيمان صادق، أشعر برضا المولى عز وجل عني، أشعر بأنني عبدٌ ساقه الله ليعين عبدًا من عباده في الدنيا ... وكلٌّ يا ولدي مسخر لما خلق له ... ما تراه يا ولدي وليمة يهبها ملك الملوك سبحانه لمن كانوا فقراء ومحتاجين، وليمة يسيل لها اللعاب، رائعة الملمس والمشهد والمذاق، ترى هل يشاركون بعضهم ويأكلون؟ أم سيحاول كل منهم الانقضاض عليها فيأكل حتى يصاب بالتخمة وربما تكون نهايته، أرى كثيرين من أهالينا جاد وأفاء الله عليهم بالخير، وجبات طعامهم اليوم لحم مشوي فوق جمرات الفحم المتقد برائحته الفواحة التي كانوا يحلمون بها، أدعو الله أن يشعر كل إنسان بالهبة والنعمة التي أرسلها الله إليه.

حديث طال، كاد الفتى أن ينسى فيما هو مقدم بسببه، كيف يطرق هذا الموضوع؟ إنه موضوع شائك، كيف يحدث أبيه عن علاقته بالمطاريد، كسر

الناظر صمت ولده وكأنه قرأ في عينيه سؤالًا لم يفصح الفتى عنه، وعلى غير توقع سأل الناظر:

- ما السؤال الذي تبغي طرحه؟

- لا ... لا توجد أسئلة.

حاول الفتى أن يدور بالحديث، ابتسامة الناظر شجعته، فطرح سؤاله في تردد وحياء، اهتزت رأس الناظر، ساق حكايات وأقاصيص عفا عليها الزمن، حاول أن يوجز في حكايته فالفتى يعرف وعاش بعضًا منها وهو طفل ربما لا يعي أغلبها، وفي النهاية عاهد يونس أن تكون الأيام القادمة نهاية لكل العلاقات القائمة بينه والمطاريد، ابتسامة واسعة فوق وجه يونس لم يتمالك نفسه، فمال على يد أبيه مقبِّلًا، وغرقت عيناه في دموع لا يدري كنهها، فاستأذن قبل أن تفضحه عيونه.

طال الحديث وتشعب، كانت متعة يونس في حديث الرجل وكلماته المصبوغة بأحلى معاني الحب، تتوالد الكلمات وتبزغ كحبوب لو طرحت فوق قلوب البشرية لأنبتت بلايين من أشجار العشق والمحبة، بستان بل جنة لا حدود لها، يستمتع وكأنه يروي ظمأ قلبه العاشق البريء، كم من الوقت أخذه ليتحدث في هذا الموضوع مع أبيه، اثنان لم يذهبَا إلى المولد ولو خلسة، الأول هو الناظر فمكانته تنفر من تواجده بين تلك الجموع، أما الثاني فكان يونس، فهو لا يعشق الصخب، يعشق البهجة ويتمناها ويحب كل من يصنعها ولكن في غير تكلف، فيهرب من عالم الضجيج لعالم أسراب الحمام، في حجرة الحمام يراقب ويتابع ويتأمل أحاديث العشق في بغام الحمام وهديله المتتابع، يلقي لها بالحبوب فتتجمع، لا يمل من الجلوس.

عندما يدعونه للغد أن يذهب معهم للمولد، يتمنع وهو يبتسم، لا يفرض رأيًا عليهم، عليهم أن يذهبوا وليتمتعوا:

- ويفوز باللذات كل مغامر... ويردد آخر.

- اليوم خمر وغدًا أمر... وتتتابع كلماتهم.

- الجنة على الأرض في المولد.

- علينا أن نغرق ونتذوق جمال الحياة.

- وفي الآخرة سندخل الجنة برحمة الله.

يضحكون ويضجون في أفراحهم ومرحهم ... لكنه ذكر الجنة ودخول الجنة فيجب الرد فيقول يونس ضاحكًا:

- أنتم تتمنون أن تدخلوا الجنة وأنتم متمسكون وقابضون بأيديكم على ذيل الشيطان.

يطلقون عليه مولانا العاشق ويسألونه المزيد:

- إذا ضاع الإيمان فلا أمان ... ولا دنيا لمن لا يحيي دينًا.

يصفقون ويطلبونه بمزيد من درر الحديث:

- الحياء شعبة من شعب الإيمان.

عزموا على الذهاب في الغد، اعتذر بأن هناك عملًا كلفه به أبوه.

***

قبضة غريبة في صدره، صدى كلمات أصدقاء دربه تعج بمفردات جديدة عليهم، آمالهم في فعل منكر مُحرم شرعًا، تتنازعهم أماني للولوج لعوالم المتعة المُجرَّمة، وكأنهم نسوا أحلامهم الرائقة ندية الهوى، يتحدثون عن آثام ينوون فعلها في زهو وفخر غريب عليهم، تراجعه ذكريات قديمة يوم كان طفلًا، الناظر وخوفه من الفقر الذي يرزح فيه الناس، الخوف من مطاريد الجبل والغد القادم، كيف ينظم الرجل صفوفهم، يتناوبون الخروج بأسلحتهم المختلفة التي تعددت أنواعها وأغلبها آلية سريعة الطلقات، بعد أن يرحل النهار ويحط الليل بستائره السوداء فوق البلد وما حولها، يحرسون

الأطراف والمداخل، يتخوفون من متسلل غريب فيترقبون ويسهرون، أشعر وكأن أبجدية الحياة لم تتغير، معالم المدنية الزائفة لن ترفع عن رءوسنا أفكارنا الجاهلة، تتسع مساحات القبور حولنا فتبتلعنا، ولكن في منازل جديدة علينا حديثة في كل شيء، هل تصير البلد قبرًا كبيرًا شاسعًا.

يهرب من تلك الأفكار السوداء التي تنهش قلبه، طيفها يسحبه فيهاجر من تلك الدنيا ... يرصد ذكرياته فيكتب:

عليك أن تزرع زهرة داخل قلبك، حافظ عليها ولا تدع أحدًا يقطفها، ستعيش لك وبك ولن تذبل أبدًا، ستمتعك بعبقها حتى نهاية عمرك، أشعر في وجودها أو طيفها بأنها وردة نبتت في قلبي، تغدق بعطرها على حنايا فؤادي فتورق أشجاري ولا تذبل ولا تسقط ورقة منها، تُكسب مرئيات عيني ملمحًا جديدًا ذا رونق وبهاء لم أستشعره من قبل، دفء وحنان يزيح برودة الشتاء وضبابه، أتمنى أن يطول عناقي لطيفها، أحسها تزرعني في سهول البراءة والطفولة، أنا لا أنام، في نومي تسحبني بإشارة من عينيها فأذوب في سحر الحلم، كم أنا في حاجة لراحة من عناء الأحلام العاشقة.

***

الناظروطه سبع الليل

لم يبق سواهما، فرك الناظر يديه فوق بقايا النيران المشتعلة في الموقد الطيني، قام من جلسته، استند طه على عصاه حتى وقف مشدود القامة، وبدوره اعتدل الناظر من مجلسه وما لبث أن أسند عصاه على الجدار، امتدت يد طه إلى البندقية المعلقة، قام بمسحها بطرف جلبابه ثم أخرج خزينتها ووضع بها طلقات وأعادها لموضعها السابق، علقها في كتفه، ألقى بحقيبة الذخيرة في الكتف الثاني بصورة عكسية، ألقى بعباءته المهترئة الأطراف فوق جسده وأمسك بعصاه، تردد وهو يقول:

- يا سيد الناس ... الجوبرد ... أنا أذهب إليه ...

لم يكمل كلامه، لم يعر الناظر أهمية لحديث طه، واصل النفخ في ماسورة مسدسه ثم فتحه وأغلقه وقام بتجربته بلا طلقات، أعاد الخزنة بعد حشوها بالطلقات، رفع زرار الأمان ووضعه في جيب الصديري العلوي، ثم تأكد من الخزنة الإضافية وتأكد من حشوها جيدًا وألقى بها في الجيب الثاني للصديري، ثم ألقى عباءته وتناول عصاته المعقوفة الجانب وانطلقَا.

عمود النور المزروع يرسل أشعته أمام المنزل، مضيَا في طريقهما، الصمت يعم الدروب الضيقة التي يمران بها، تعمدَا تخير طريق ملتو غير مباشر، يجابهما كلب بنباحه، لم يتعرف عليهما بعد وكلما اقترب انقطع عواؤه وكأنه أدرك وعرف رائحتهما فغمره الصمت وربما تمسح بقدمي أحدهما، انفرج الدرب قليلًا، يعرفان طريقهما جيدًا، يمضي الناظر ومن خلفه سبع الليل صامتًا، انتهت دروب القرية، ليست هناك ثمة أضواء سوى النجوم، لفحتهما الريح الباردة، نقيق ضفادع وصرير ريح، أشرفَا على الخلاء الصامت، المقابر أمامهما ومن خلفها الجبل كمارد ضخم بلون السواد، واصلا المسير، ابتلعتهما دروب المقابر، كل منهما يدرك ما عليه، السيد يمضي في الطريق ورغم أنه تعدي الستين من العمر إلا أن عينيه تمسحان المكان، التابع يحرس السيد وأذناه تلتقط الهمسة وبندقيته في يده، تعودت عيونهما الظلمة وعرفَا الطريق في ضوء النجوم التي تملأ السماء، صمت القبور يلقي في القلوب رعبًا وخوفًا، شواهد القبور رءوس أشباح مرفوعة للسماء، الأهلة التي تزين الشواهد المبنية فوقها كأنها فكي تمساح مفتوحتين عن آخرها في ظلمة الليل، حركة أقدامهما الرشيقة الخفيفة لا تعكس ملامح عمريهما، وكأنهما يمشيان على أطراف أصابعهما فلا صوت صادر، الطريق تتناثر فيه الأحجار الصغيرة، غير عابئين ببشر أو بشبح أو بموت، يحسبان حسابًا لحيوان ضار مما يكتظ به الجبل، فوحوش الجبل تهبط للمدافن وتواصل زحفها حتى أطراف القرية علها تعثر على بغيتها من فريسة أيًّا كان نوعها، توقفَا وأصخيَا السمع ثم مضيَا في حذر، خطوات قليلة واستقبلهما عواء ذئب طويل متقطع، رد طه بنفس الصوت والنغمة،

ثوان معدودة وبرز شبح من مقبرة قريبة، استقبلهما مرحبًا وشد على يد الشيخ بحرارة بالغة، اكتفى بتحية طه من بعيد، معروف عن طه بأنه لا يصافح أيًّا منهم، بادر أبو دراع طه قائلًا:

- أهلًا سبع الليل.

حتى مجرد التحية لم يردها فاستطرد أبو دراع:

خسارتك ... قيمتك عندي بوزنك ذهبًا.

ذهبت كلماته أدراج الرياح فلم يعره طه اهتمامًا.

تحرك الركب ناحية مدفن معروف للجميع في طريق ضيق لا يتسع إلا لفرد واحد يمضي، تقدم الناظرومن خلفه أبو دراع، تريث طه خلفهما ولم يُسرع بخطاه، يمسح جنبات المدخل وتمر عيناه فوق الجدران المنخفضة القريبة، باب حديدي قديم مفتوح عن آخره يؤدي إلى مجموعة من الحجرات ذات القباب وبدوره إلى فضاء متسع تتراص حوله القبور، الأرض رملية لا تخلو من الأحجار أو الصخور الصغيرة، آثار لبقايا نيران على شكل رماد يملأ حفرة في منتصف المكان، حول تلك الحفرة طالبهم بالجلوس، أشار لأحد التابعين فأسرع بإحضار بعض الأغصان الجافة، همَّ بأن يشعل النيران، أوقفه الناظر وحال بين يده وبها الشعلة الصغيرة والموقد، استغرب أبو دراع ولم يجد مناصًا سوى الانصياع لرغبة الرجل، همَّ بالوقوف لأمر ولكن كانت لهجة الناظر آمرة له بأن يلزم مكانه، في لهجة ساخرة خرجت كلمات أبو دراع:

- إيه يا ناظر؟ بتخاف تتسامر معايا ... خايف الشاي يكون مسموم ولا كبرت في السن!

في لهجة تقطر ثقة ولا تعكس عمر الرجل:

- أنا أحمد الناظر... مهما كبرت في السن يا أبا دراع.

- خايف يا ناظر!!

ما كاد ينطق بالكلمة حتى كانت فوهة بندقية طه في وجهه، في هدوء وبصوت يحتفظ بنبرته القوية، أمر الناظر طه أن يُبعد البندقية، لم تؤثر حركة طه على أبي دراع، لم يتحرك من مجلسه، نعم الجبل مسكون برجاله، لا تخلو مسافة إلا وراصد من رجاله مسلح يأخذ مانعًا، حاول أبو دراع أن يضحك لكنه حبس ضحكته فهو يعلم من الجالس أمامه ومن معه، فهذا الماثل أمامه هو من ساعده رغم كل الأبواب التي كانت مغلقة في وجهه هو ورجاله، يزفر الناظر وفي تريث يلقي كلماته، أبو دراع يستمع إليه ويكاد ينفجر من الغيظ، الناظر قادم إليه معلنًا مقاطعته الكاملة له، يطالبه بأن يحاول هو ورجاله العثور على مكان آخر أو بلد آخر، وحتى تلك المقابر المحيطة بالبلد لا يقترب منها، أمامه مهلة قد تمتد لشهور ولكن تحذير شديد اللهجة بعدم ظهوره هو أو أحد رجاله قريبًا من البلد، يحاول أن يرده عمَّا يقول ويسوق معاذيره، يصف له حال البلد قبل وبعد أن تصالحوا وتشاركوا، يحاول أن يعدد الخيرات التي هبطت على البلد، فيطرح مغريات أكثر وأرباح طائلة ستعود على الجميع في الفترة المقبلة، بلا تردد وبلا تجميل في الكلمات يواصل تهديده بأن عليه ورجاله أن يبحثوا عن وادٍ غير واديهم، يقومون بتوزيع ممنوعاتهم من مخدرات وسموم وأسلحة، الشيخ ماضٍ في حديثه لا يتردد، يحاول أن يُوقف سيل حديث الرجل، الناظر لا يسمع له وممليًا شروطه ولا مجال في كلماته لمساومة قائمة أو تفاوض مع ربح أكثر مما كان، يطرق شيئًا واحدًا ويضع خلفه خطوطًا:

«ظللنا نرفض مد أعمدة الكهرباء وظللنا في الظلام، ألا يكفي هذا وإلى متى؟ خوفنا وعهدنا معك أجبرنا أن نعيش خارج حدود المدنية، تستطيع الكهرباء أن تبدد الكثير، لقد امتدت خطوط الكهرباء ودخلت كل بيت، كل أبناء البلد متعلمون اليوم، عشنا أيامًا طويلة نساعدكم ألا يكفي هذا؟!».

أبو دراع يعرض مزيدًا والناظر ينهي حديثه معقبًا:

- الدنيا لم تعد مثل الأيام السابقة.

يحاول أبو دراع أن يطرق سُبلًا أخرى، ينهي الناظر حديثه، يرتفع صوت أبو دراع فيطالبه أن يستمع إليه:

يقف الناظر من جلسته وينفض عباءته وجلبابه.

- حاول تفهم، حضرت لك بنفسي، لن نفتح أحاديث عما مضى، ما كان انتهى، لك طريق ولنا طريق معاكس تمامًا لطريقك، مطلوب منك أن تبتعد عن كل أناس البلد وخاصة الشباب، شق الجبل مليئة، أنا أعرف أن كل زاوية من زوايا المدافن فيه رجل من رجالتك يقف بسلاحه، وأنا مهما كبرت ذراعي تطول الثعبان داخل جحره، وأنا من وافقت على مد أعمدة الكهرباء، لن أجبركم أن تمضوا بعد يوم أو شهر، أمامكم متسع من الوقت فلتستعدوا، يكفي ما فعلناه.

حاول أن يثنيه عن عزمه أو يجعله ينتظر ليستكمل معه حديثًا لم يكتمل، لم تجد محاولاته، لم يجد مفرًّا من الصمت فهو يعرف الرجل جيدًا، لم تمتد يد الناظر لمصافحته، فمضى الناظر ومن خلفه طه ولم تلتفت عيونهما للخلف.

يشعر بالحنين أن يُفرج عما في صدره، طه بالنسبة له هو ذاته أو قرينه، غالبًا في حدود معينة يستجيب ويحاوره، أغلب حياته صامتًا، كلمة الناظر حكم صدر بالنسبة له لا رادَّ له، يجلسان، ينظر إليه وكأنه يسأل نفسه ما هي الدوافع التي تجعل طه دائمًا منفذًا لكل أوامره بلا تردد؟ فيحدثه وهو يكتفي بهز رأسه.

- الساعة ممكن تطول وتقصر.

ينظر إليه لا تبدو معالم الدهشة على وجهه، موافقًا بكل ما يقول ولكنه ينتظر أن يقص عليه أكثر، هكذا بدت فوق ملامحه.

اللحظة بتختلف من جيل لجيل، الساعة زمان أيام شبابنا كنا نحسها يوم كامل، في هذا الزمان الولد بيكبر قبل أوانه ... عرق الرجولة يظهر عليه، بيدق بنبوته وكأنه بيشق الأرض تحت منه.

الولاد كبروا والزمن بيجري والخوف عليهم كل يوم بيزيد، عارف إبراهيم ابني ... الدكتور إبراهيم؟

يهز طه رأسه موافقًا فيكمل:

في نظري شاب صغير، لم يكبر بعد، دراسة بعدها دراسة وسفر داخل مصر وخارج مصر، أستاذ قال ودكتور، لكن بحس إن قلبه بارد وعمره بيتسحب منه، لو بصيت كويس هتلاقي شعر رأسه خف، وجهه ضمر وعضم خدوده ظهر.

يضرب كفًّا بكف وينظر لطه فيحسه مستجيبًا فيكمل:

تصدق عمره أربعين سنة، الأيام بتجري، زمان كان اليوم طويل أطول من سلبة مطلع النخل، من بعد صلاة الفجر لغاية ما نقيِّل الضهرية، ومن ساعة المغرب لآخر الليل ... يوم طويييييل

يصمت وكأنه يتحسر على الأيام والزمن.

صح الأيام بتختلف ... فيه بلاد سريعة وبلاد بطيئة، حتى الدخان ساعات بيتسكع في دروب البلد ويمشي بالراحة ... وساعات بيجري ولا فرس في سبق، السبب الريح ساعة ما تهب.

أكثر من مرة طلب من طه أن يمد يده ويصافح أبو دراع فيقول له:

- سامحني يا سيد الناس، لا أستطيع ولا أقدر، أحس أن إيده بترش سم وممكن يمشي في عروقي ويقرب ناحية قلبي، أنا بكرهه، عمر الخوف من الموت ما رعبني ولا حرك شعرة في رأسي، لكن أخاف أن يكون سمه سبب الموت.

يضحك الناظر.

يجد السلوي مع طه فيبثه كل همومه، لا يفشي يومًا سرًّا ولا يجهر بحديث كان مع أي إنسان، ما يراه في صحبة الناظر أو ما يسمعه يدفن في صدره، الناظر دائمًا في حاجة إليه.

طه سبع الليل اسم على مسمى، في ساعة من الليل كُلِّف بعمل أو أراد الناظر منه أن يصحبه في طريق، مجرد نداء ولو خافتًا ينتصب واقفًا، تبرق عيناه وينفض الخمول عن جسده، تتمرد خلايا جسمه وتنتفض ويكون رهن إشارة الناظر، قليلون تنطلق شجاعتهم مع حلول الظلام.

يشعر بما يملأ قلب الرجل، يكتفي بكلمات موجزة قليلة:

«كُلٌّ مسخر لما خُلق له ... جزاك الله عنا خيرًا».

رغم قصرها تخفف عنه وطأة الأحداث التي تمر به أو تسترجعها ذاكرته، هو الوحيد الذي يشعر بحجم معاناته، فالناظر دومًا تطارده أحلام وحشية قاسية ... مات الخوف في قلبه ويستهين بكل حدث مهما كان ... يخاف على الأولاد جميعًا، هل كان حديث يونس هو ما دفعه أن ينهي تلك العلاقة الآثمة القائمة بينه وبين مطاريد الجبل؟ ربما كان لها أثر كبير في نفسه، لكنه كان عازمًا على هذا الفعل من أمد طال، فتلك العلاقة رغم إثمها كان مضطرًا إليها، لقد تكسبوا من ورائها الكثير، يومها حط الفقر رحاله ولم يرتحل، استفاد الجميع من وراء فتح الباب لمساعدة المطاريد، نعم يعرف أنهم خانوا عهدهم أكثر من مرة، هذا بالنسبة لهم وضع طبيعي، أيامها كانت حياتنا محفوفة بالمخاطر وخاصة خطر الفقر والجوع، كان الغد غامضًا بلا ملامح وعلينا أن نعايش الظروف القاسية التي تحاصرنا، يلومني أحيانًا ولدي إبراهيم على حمل هموم الناس، مجنون من يفكر أن يعيش داخل قصر مهما كانت حصونه وحوله أهله فقراء، أهله يقتلهم الفقر والعوز، كيف يمكنه أن يعيش؟ إنسان بلا رفيق أو صديق أو أخ كذراع يمنى بلا

شمال والعكس، كنت كلما أفكر في شئون ومصالح الناس يقتلني الخوف عليهم ويرتجف قلبي هلعًا ورعبًا، والفزع والجوع يكاد يصرخ من أفواههم، أنتظر أن تجود الدنيا عليَّ بأي شيء لأرفع عنهم البلوى ومرارة الشكوى، اليوم يشيخ الجسد ولكن ما تزال الروح، تغيرت أشياء كثيرة وأصبحوا ذا شأن وملكوا وتملكوا، هذا يثلج صدري ويدخل البهجة إلى نفسي، اتسعت أعمالهم، قالوا إن المولد لن يكون كل عام، ممكن أن يكون هناك أكثر من مولد واحد في العام، سيندس أبناء الليل بكثافة، ولن تستطيع العيون مهما كان تعدادها أن ترقبهم أو تحدَّ من خطرهم، ومؤكد في الغد سينفرط العقد أكثر من اليوم ولن يهتم أي من الناس سوى بنفسه، في أسى بالغ يفصح ويتكلم إلى طه الصامت:

- تعرف يا طه حتى القبور درجات، فقبر من آلاف السنين ما يزال شامخًا، يحتفظ بجمال بنيانه ودقة صنعه وما زالت ألوانه تنبض بالحياة، وقبور محكوم عليها وعلى أصحابها أن تتساوى بالأرض وربما لا تكمل مائة عام ... محكوم على قبورنا بالفناء.

لم يفهم طه ما يرمي إليه الناظر، اكتفى بمصمصة شفتيه وهزَّ رأسه وصمت، ما يلبث أن يضحك الناظر بسخرية فيجاريه في الضحك، ضحكته تعكس صفاء قلبه، ينتظر منه الناظر أن يتكلم ويشاركه، فلكلماته عذوبة ورقة لا تنتمي لبيئته ويتألق دومًا بالبِشْر محيَّاه، تنفرج شفتاه في حديث شبه هامس فينصت الناظر باهتمام:

- نبدد أعمارنا في انتظار الغد ولا يجيء ... زمان كنا نمشي حفاة على الحصى ولا نشعر بالألم ... آآآآه

في كلماته رنة حزن ... يصمت الناظر ويتعمد عدم النظر إليه وكأنه يتمنى أن يواصل الحديث، تقارب كبير بينهما وطه بدوره يشعر بأن الناظر يحتاج في تلك اللحظة لمن يخرجه من أفكاره ويكسر حدة المعاناة التي تمسك بتلابيب أفكاره فيواصل:

يوم يمتلئ قلب الإنسان بالإيمان والهداية يستطيع أن يصل لمبتغاه بكل سهولة ويسر... يعقب ذلك صمت وما يلبث:

مظاهرهم كاذبة خادعة، أغلبهم جبناء، إنهم مثل الديدان التي تنكمش بقوة ثم تتمدد بأقصى قدراتها فتقفز، في النهاية ديدان تستطيع حوافر أي حمار جربان أن تدهسها ولا تشعر بها ... هون على نفسك يا سيد الناس ... أكسبتهم الأموال التي يخزنونها جبنًا وخوفًا ولا مثيل له ... يعمهما الصمت فيلقي الناظر رأسه للخلف وينظر لأعلى وكأنه يقرأ في كتاب مفتوح:

- أنا لا ألقي باللوم عليهم، أنا من فتحت الطريق.

- علك تذكر صعوبة العيش وقسوة الحياة والشقاء.

فيقاطعه الناظر ويكمل:

- ومن يتذكر الأمس أو ما قبل الأمس، أشعر وكأنهم فصحاء وعارفين بكل أمور الدنيا.

- لا داعي للقسم يا سيد الناس، إنهم لا يدركون معنى الكلمات التي يتلفظون بها أو ما وراء تلك العبارات والكلمات، يضج بضحك متقطع مرح فيثير الناظر ويضحكه وهو يقول:

تخيلني أنا طه الذي لا يفقه شيئًا في الدِّين عندما أصعد المنبر وأخطب في الناس، فماذا أقول لهم؟ ... يا سيدي النسيان صفة من صفات البشر، لكن هناك كثيرون ما زالوا على قيد الحياة يقصون ويحكون عما سلف، كنت بمفردك تحمل هم الجميع، نعم انفرط العقد وتبعثرت الحبات وذهبت كل حبة في طريق مغاير، تدحرجت وانفلت زمامها، تعلم وتعرف كل كبيرة وصغيرة وتغض الطرف عن الكثير من الأفعال، وتلك طبيعتك التي درجت عليها، لا أفشي سرًّا عندما أقول لك إن كثيرًا منهم ينتشرون في ظلمات الليل، يعقدون صفقات مع أبناء الليل، يبحثون عن مزيد من المال.

يكاد الناظر يخرج عن هدوئه المعتاد:

- ثراء حرام ... أموال.

لا يكمل عباراته وكأنه أدرك أنه أول من عقد الصفقات مع أبناء الليل مع زعيمهم، يهز رأسه ويستكمل:

أشعر وكأن صدري أحرقه الظمأ.

- أتتمنى أن آتيك بكأس من خمر؟!

مستهجنًا كلمة طه وباديًا على وجهه الدهشة:

- أجننت يا ...

لم يستكمل كلمته، فأسرع بدوره قائلًا:

- كأس خمر من خمر الجنة ... تعود البشاشة لوجهه.

إنها تلك التي قيل فيها لذة للشاربين يا سيدي ويطرح السؤال:

هل سيفي المطاريد بما طلبته ويرحلون؟

راح يقلب الأمر معه على كافة جوانبه، يبدو أن الأمر صعب للغاية والأسباب كثيرة، لقد اعتادوا الإقامة في هذا المكان، وهنا دون سائر بلاد الصعيد، الجبل محفوف بالمخاطر، شقوقه غريبة ومخيفة، لم يستطع إنسان يومًا أن يصل لنهاية نفق واحد منها، قالوا إنها متشعبة وتصب في فرع وشق أكبر لا يدري أحد نهايته، حتى لو قُدِّر للحكومة أن تأتي، فلن تصل لنهاية نفق واحد منها، كلها مرعبة وقد اتخذوا أكثر من مدفن مهجور ملاذًا لهم، إنهم ثعالب ماكرة، فالثعلب قبل أن يبني بيته يبحث عن الطريق الثاني للهروب ولو أي إنسان في مكانهم لفكر بنفس الصورة، ومنهم من سقطت الأحكام عنه لطول المدة، لكنهم اعتادوا تلك الحياة، والناس بعد أن تحسنت أحوالهم وتغيرت معيشتهم يطيرون ويثبون إلى هدف واحد محدد،

يخاف أي إنسان أن يعلن لأخيه عن وجهته وهدفه، وربما أفصح بشيء ولكن يداري الكثير:

- أين الإيمان؟

- الجشع قتل الإيمان داخلهم.

- هل ينسون الله؟

- يقولون كل لحظة الحمد لله، تلهج ألسنتهم بالشكر دومًا يا طه ولكنها ليست نابعة من القلب.

- من ينسى الله ينسيه اللهُ أمر نفسه.

- سيعانون من تيه في صحراء الحياة التي لا يعمر فيها إنسان، أصبحت صدور الناس هائجة حائمة لا تستكين، لا تقرأ الغد ولا تنظر للقبور المحيطة بنا من كل جانب وتتعظ وتعرف ما هي نهاية الحياة، مرة واحدة تفجرت ينابيع الخير، لا ينتظرون أن يزرعوا أشجارًا ليتغذوا بثمارها، أصبح في مقدورهم شراء الثمار مباشرة فعلام التعب، تركب رءوسهم أفكار جاهلية قد تدفعهم للحضيض - البصائر أظلمت.

- كم كنت أتمنى أن يبنوا سياجًا من الحب بأموالهم تقيهم الغيلان القادمة من فجاج الجبال ومفازاته.

تصدر منه آهة وزفرة عميقة وهو يردد:

من يعش طويلًا يحزن كثيرًا ... كم من الأحبة والأصدقاء فقدناهم في مشوار حياتنا؟!

- أطال الله في عمرك يا سيد الناس.

***

اجتماع غير معتاد، وأين في القصر القديم، نادر لا يحب مجرد الدخول

إليه، يونس يعشق رؤية الأشياء القديمة ويقلب فيها وكأنه يثمنها ويعرف ماهيتها، مجرد عشق لتأمل كثير من الأشياء فيها إبداع نقوش وزخارف، وعلى غير المعتاد تكون نورا مدعوة أيضًا لتلك الجلسة غير المعروف أسبابها ودواعيها، وكان مطلوبًا منهم أن لا يخبروا أحدًا بتلك الجلسة الخاصة بهم، كان له ما أراد فلم يعرف أحد بالموعد أو المكان، نظفت نورا المكان الذي سيجلسون فيه من الغبار والأتربة العالقة، هَلَّ الناظر بطوله الفارع وابتسامة تشع بالرضا، استبشروا خيرًا، نورا لم تقبِّل يده وإنما أسرعت ترمي نفسها في حضنه فهي قليلًا ما تراه، أما أخواها فيمكن أن يروه متى شاءوا، جلسوا حول مائدة صغيرة، في عيونهم تساؤل مطروح، بدا الرجل في طرح بعض أسئلة لا تخرج عما هو معتاد، راح يصف لهم كيف كان الماضي بالنسبة للبلد وأهاليها، أما اليوم فكل الأوضاع تغيرت، وكل البشر في بحبوحة من رزق مَنَّ الله عليهم به، عندما يشيرون بفضله على البلد، ترتسم فوق وجهه ابتسامة رضا، ينفي أنه كان يومًا سببًا في أي شيء، فسبحان الله يسخر البشر كلًّا ليؤدي فعله، يصف لهم صعوبة الحياة في الماضي وكلمة الحمد لله النابعة من القلب حقيقة ليست مجرد كلمة مرددة، فيطالبهم في حياتهم بالتريث والهدوء، أن يميزوا بين الغث والثمين حتى في الحديث والقول، التوتر في هذا الزمان يصيب الكبار قبل الصغار، العيون تصبو نحو خير ظاهر، وكثيرًا ما يكون من بين المآسي خير ولا يعلمه إلا الله، ينحرف بحديثه لجهة مغايرة عما بدأ به قائلًا:

- كل الناس بما فيهم أنا نلقي بتبعية ما يحدث وخاصة الأحداث السيئة على الزمان، نبكي على الزمان الماضي ... فنقول تارة أيام الزمن الجميل ... ذكريات الزمن الجميل ... مجرد اجترار لذكريات فحسب، لكل زمان جمال، أيام حزينة وأيام سعيدة لا يسير أي زمان على وتيرة واحدة، وكلٌّ يفسرها وفق رؤيته، فعين الرضا ستكون كل أقاصيصها مفرحة، عين السخط والضيق ستلون كل الأشياء والأحداث حولها بالسواد والحزن ...

وما لبث أن ضرب الرجل مثلًا، فيطالبهم أن لا يتعجبوا من تغيرات البشر حولهم، فعلى سبيل المثال يصف حالة ابن سلول بحقده ونقمته ونفاقه في صدر الإسلام، أسباب نغفل عن ذكرها، فابن سلول كان قاب قوسين أو أدنى أن يضع تاج مملكة فوق رأسه، جاء الرسول عليه الصلاة والسلام وتوافد أهل الخير من المهاجرين والأنصار تألقت وجوههم بالبِشْر والإسلام، فاستلب منه الإسلام ملكه وأمله وأمانيه، أسلم مرغمًا ونافق مدركًا، اليوم نضرب به المثل في النفاق، لكن هل انتهى النفاق في الدنيا بنهاية ابن سلول، تضاعف وكثر أتباعه، كثيرون يرفعون راية لا يؤمنون بها، لهم أغراضهم، ينافقون ويكذبون وتعيش داخلهم أحقاد ... لا يذهبون بعيدًا يعيشون وسط كل البشر، يبتسمون ويرسمون الحب مجرد صورة.

يدخل أمامهم حجرة المكتب الخاصة بالصاحب الأصلي للمدفن القصر كما يسمونه، يدعوهم للجلوس، يدفع إحدى الصور الكبيرة المؤطرة بإطار ذهبي باهتة ألوانها للجانب ولكن فوقها كم من التراب والغبار، بعد أن يهم بمسح التراب عنها فتسرع نورا للقيام بعملية المسح والتنظيف، الصورة كل من يراها يظنها ثابتة في الجدار، يحركها الناظر من أحد جوانبها بسهولة ويسر، يظهر خلفها ما يشبه بابًا في الجدار، يسحب الرجل مفتاحًا قديمًا يدور به في الباب ويسحبه فينفرج، أوراق قديمة مكدسة، بعض من أساور وقلائد ذهبية وفضية متنوعة ولكنها ليست بالكثيرة، قبل أن يطلب من نورا تنظيف المكتب قامت بنفسها بتنظيفه، وكذلك الكراسي المختلفة، تأمل خلخالًا فضيًّا ثقيلًا وراح يقلبه بين يديه، خلخال جدته وورثته منها أمه وخاف عليه فاحتفظ به، كتمت نورا ضحكتها، ارتسمت ابتسامة فوق محياهم ولكنهم لم يجهروا بالأسباب الحقيقية فقال الرجل:

- لا يوجد مثيل له اليوم.

كتمت نورا ضحكتها فسألها عن السبب فردت بسؤال:

- زينة ولا ؟!

ضحك الرجل فضحكوا بملء أفواههم.

نادر من بين ضحكاته، يصف الخلخال بأنه قيد مصنوع خصيصًا لجدته حتى لا تهرب من البلد، تتوالى تعليقاتهم المرحة، يشاركهم الأب وتطغي على جمعهم السعادة والبشر، يكلف نادر يونس باستخراج كل الأوراق من داخل الخزنة، يجلس هو على الكرسي الضخم خلف المكتب، تقوم نورا بتجميع القلائد وبعض الأثريات القديمة وتفصلها، كمية كبيرة من الأوراق فوق المكتب، راح الرجل يقلبها بالواحدة وعليهم تصنيف كل أوراق على حدة، فهذه تمثل عقد زواج فلان لفلانة، تلك تمثل قائمة بأثاث زوجة فلان بفلان، يقرءونها، يعلو صوت نادر وهو يفند الأثاث من صندوق لطبلية لحلل وأوانٍ نحاسية، يطالبه الأب بالإسراع فهناك الكثير، يضحكون من المبالغ المرصودة مقابل واحدة، وهذه شهادات وفاة وميلاد لأغلب عواجيز القرية، تلك معاهدة صلح بين عائلتين ووفق شروط مسجلة ومن يخالفها عليه جزاء من جميع أهالي القرية، وتلك خطابات قديمة، وتلك وثيقة فيها شجرة العائلة وامتدادها حتى يصلون للنسب الشريف لآل البيت عليهم رضوان الله، ينحيها الرجل جانبًا، فيسألونه، فيجيب:

- كل من لا تاريخ له يبحث.

- يعني كذب.

- النسب لآل البيت شرف.

يصمت الرجل، تتأمل نورا الورقة وتقول:

- لكنها موقعة من بعض علماء الأزهر!

يمتص الرجل ريقه:

- يقولون إن الملك فاروق أقنعوه بأنه الأولى بخلافة المسلمين، وأنه نادى بذلك وكبار شيوخ الأزهر فرحوا ونادوا أيضًا، بل إن بعضهم أطلق عليه

الملك المؤمن، ويقولون إنه أطلق لحيته لعامين متتاليين وإنه أمَّ وصلى إمامًا بالناس أكثر من مرة وكان بين المصلين رؤساء وملوك من دول إسلامية، كان من شروط الخلافة كما يقولون أيضًا أن يكون قرشيًّا، فبحثوا ونقبوا حتى أفتوا بأن جده لأمه ينتمي لآل البيت وأعلنوها:

- والحقيقة؟!

- يعلمها الله ... ويصمت الأب وتتقابل عيونهم في صمت لا يطول، خرجت كلمات يونس كعادتها هادئة:

- في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ... يصلي ويسلم وبدورهم يرددون بالصلاة والسلام ... فيواصل:

لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ... فكل الناس أمام الله سواء، كما أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سأل صحابته عن رجل يوليه إمارة، تتابعت اختيارات الصحابة وعمر يرفض، فسألوه عما يريد فأجاب ... رجل إذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم، وإذا لم يكن أميرهم كأنه أميرهم، سقطت كلماته جميلة ... وأكمل ... كنت أشعر بهذا في سلوكيات أبي.

يضحكون، تصف كل من نورا ونادر كلمات يونس عن أبيه بأنها تهدف لشيء ما، يقسم يونس، يطالبهم الأب بالهدوء والعودة لتصنيف باقي الأوراق، الأوراق أغلبها مكتوبة بخط جميل يغلب عليها القلم الكوبيا شبه الرصاص، أما صكوك الملكية فكلها بيع وشراء ما بين الباشا والناظر، عقود محددة عبارة عن بيع من الناظر لآخرين ولا تمثل عدد أصابع اليد الواحدة، عقود باسم طه والشيخ رضوان والهلول والمقدس سمعان، عقود بالبيع والشراء، كل أراضي البلد سواء أراضي زراعية أو فضاء ومحدودة ومحددة وفق شرائع البيع والشراء، حدود تتمثل من الجبل وحتى شاطئ النهر وحتى ارتفاع عشرين مترًا من سطحه ناحية الجبل، ومن الناحيتين الأخريين

المدافن لأهل المدينة أو القرى في الطرف الثاني للنهر، يصمتون وينظرون لبعضهم يستغربون:

- كل الأراضي ملكنا !!!! ... ومن سطح النيل إلى ارتفاع عشرين مترًا ... عندما يستغربون موضوع العشرين مترًا ارتفاعًا، يحاول أن يقص عليهم بأنه في يوم قرأ وصية قديمة، كانت تحد أحد حدود الملكية بسبع موجات في البحر.

في صوت واحد يطلقون عبارات تتسم بالدهشة، لا يطيل عليهم ويواصل حديثه الأساسي:

- تقضي الأمانة أن أقول لكم: إن الأوراق تقول ذلك. الحقيقة تقول النصف فقط والباقي لم نسدد قيمته، فقد سافر الباشا وأولاده إلى الخارج ولم أعرف لهم مكانًا، ولم يأت أي منهم ليسأل عن حقوقه، مقابل ذلك تركت من يبني ومن يزيد في مساحة بيته ولم أسأل مقابلًا لذلك، كل الأراضي الزراعية عقودها ها هي، كذلك عقد ملكية الطاحونة وعقد المشاركة بيني وبين المقدس سمعان، وهو مجرد مستأجر ولكن لا أحد يعرف ذلك.

- ولماذا؟ توقفت العبارة التي كاد يكملها نادر.

- إخواننا النصارى في البلد من أهم صفاتهم الأمانة، بعد ما تم بناء الطاحونة، قام على عملها غرباء وبعدها استعنت بأولاد وشباب من البلد، وعلمت بأفعال يمكن أن تؤدي لمصائب بين أبناء البلد، لأنهم يبتعدون عن المشاكل ويخافون، فأوكلت للمقدس سمعان عملها، وأن يستعين بمن يراه مناسبًا من النصارى.

بتردد تسأل نورا:

- اختلف حال اليوم عن الأمس.

بلعت باقي ما كانت تنوي أن تتفوه به فأكمل نادر:

- توسع الناس وأتى غرباء، بنايات بُنيت بالأعمدة الخرسانية وعلى أحدث طرق التشييد، فأولى أن يدفعوا حق تلك الأرض التي استولوا عليها بدون وجه حق.

- عليك أن تعلم أن هناك بنايات قديمة مرت عليها أعوام وأعوام وطبقًا للقانون تصير حقًّا مكتسبًا لمالكها.

- كل ما استجد في الأعوام الأخيرة.

قاطع الرجل ابنه وراح يقلب في الأوراق، فتلك أوراق ماكينة رفع المياه وصك ملكيتها، من استأجروا الأرض وزرعوها ها هي أيضًا أوراقهم وعقود الإيجار، وهي تُجدد كل فترة وليس لهم حق عمل حيازة بها، لا يتبقى إلا شيء واحد وهو أرض الجزيرة، وكان للباشا عقد مبرم بينه وبين وزارة الري بحق انتفاع بمقابل مادي معين وعلى الإدارة تحديده، وتنازل الباشا عنه لي بلا مقابل، وأظهر لهم إيصالات الدفع التي يدفعها عامًا بعام، وضع أرض الجزيرة غير ثابت، فأيام تغل أرضها خيرات كثيرة وأيام تغرقها مياه النيل ولا يتم الاستفادة بها، شرح أن تلك الأرض لم يتم الاستفادة منها إلا بوجود البهلول، لم يجرؤ يومًا إنسان على الحياة هناك، من تجرأ وذهب لم يعد، والغريب الذي أتى أيضًا اختفى، الوحيد الذي فتحت له تلك الأرض ذراعيها وباركته هو البهلول، أخرج صك كتبه للبهلول بحق الربع فيما تغله من محاصيل صافية، وكل التكاليف تقع على عاتق الناظر، أفصح لهم أيضًا بأنه ينوي أن يغير هذا العقد للبهلول ويجعله النصف، أرض الجزيرة العام السابق فاضت أرضها بخيرات كثيرة، يضحك الناظر وهو يقول:

- تخيلوا لم أجد من يستحق الصدقة في بلدنا إلا قليلًا، زكاة المحصول يجب أن تُدفع، الحمد لله دفعناها بما يرضي الله ووفق شرعه ولكن خارج حدود بلدنا.

ينظرون لبعضهم ويستطرد الرجل:

كان غالبية أهل بلدنا لا يجدون ما يعملونه، العمل الوحيد الذي يتقنونه بناء المدافن، وانتظارما يجود به عليهم أصحاب المدافن ممن هم على قيد الحياة من أهالي الريف في صورة غلال موسمية يدفعها أصحاب المدافن، أما أهل المدينة فيدفعون نقودًا بصفة شهرية أوسنوية كما هو متفق عليه، كان البشرينتظرون ما يجود به عليهم الزائرون للمقابر، في مواسم الحصاد والدريس نستقدم آخرين من فلاحين الجهة الثانية للنهر، بناء المدافن هناك مقاولون أيضًا لا يبنون بأيديهم إنما يستقدمون عمالة من خارج البلد، تغيرت حتى أنواع أطعمة الناس في بلدنا، التغييرطال كل الأشياء حتى الملابس.

يصمت وبدا على ملامحه الأسى، يحاول يونس أن يخرجه وهو يصف أنها سنة الحياة، وأن التغييرلحياة أفضل وأحسن للناس والبلد، يحاول أن يقص كيف في طفولته عالجته الجدة وهيبة عندما لدغته النحلة، يضحك وهو يصف الدواء المكون من طين من أسفل زير السبيل، راح يعدد أنواع العلاج المختلفة من قشر البصل أولبن التين أوورق الخروع، واليوم أكثرمن عيادة لطبيب موجودة داخل القرية حتى الصيدليات تعددت، السيارات الخاصة ستنتشر لحظة الانتهاء من بناء الكوبري، فلم يتبق له الكثير، وبسرعة تلقف نادر الكلمة:

- أنا حجزت سيارة من موديل حديث الأسبوع الماضي.

يعتذر للأب بأنه لم يخبره، فيبتسم الرجل، وينظر لكل من نورا ويونس ويسألهما:

- هل في نيتكما شراء سيارة أسوة؟

تسرع نورا بالإجابة:

- بالطبع ... تنظر إليهم وتدرك أنها تسرعت فتقول:

لا سأكتفي بالذهاب للجامعة في سيارة يونس، تنظر ليونس الذي يبتسم

بدوره قائلًا:

- أنا لا أحب قيادة السيارات، عليك أن تتعلمي القيادة.

- الله يرحم زمان ... بنت الناظر تقود سيارة!! ... يضرب نادر كفًّا بكف وهو يتكلم فيرد يونس:

- سيارة خاصة يا أخي وهذا ليس عيبًا.

طالت جلستهم التي تخللها أكثر من مشروب كانت تسرع نورا بتجهيزه والإتيان به، كأن قلوبهم كانت متشوقة لمجالسة أبيهم وبالمثل كان حال الرجل، لم يشعروا بالساعات التي قضوها مجتمعين، صنفوا الأوراق كلًّا على حدة، أخبرهم بأنه لا يعلم بمكانها سواهم، حتى أمهم لا تعرف ودكتور إبراهيم يعرف بعض ما تحتويه تلك الأوراق لكنه لا يعلم بمكانها.

-٧-

المســـافر

يتسارع نبض الحياة، مع كل إشراقة شمس هناك جديد، لا تستقيم الأمور على حالها، الحياة البطيئة الهادئة صفة من صفات الماضي لا وجود لها في دنيا اليوم، اليوم علينا أن نجري بأقصى سرعة ممكنة، كل أصحاب يونس يقرُّون بذلك، ولكن ما زالت وتيرة الحياة ليونس هادئة.

ينظر نمر إلى يونس ويتأمله وهو ذاهب وسابح في قراءة صفحات من كتاب في يده، يسند يونس ظهره على جذع شجرة قديم أمام بيت نمر، سحبته القراءة بعد أن انتهى من شرب الشاي في الكوب المخصوص المصنوع من الصاج المقوى الذي تعده دومًا له أم نمر، حدسه يدفعه أن ينحي الكتاب بعيدًا فقد استشعر من ينظر إليه، ينظر فيجد نمر ناظرًا إليه.

تتقابل نظراتهما وتتسع ابتسامة نمر، يسأله بلا كلمات ولكن بإشارة معتادة من يده عما يريد، يقترب نمر منه أكثر:

- بعد أن يموت الإنسان يعود من جديد؟!

- نعم.

بعدها يحاول أن يجمع كلماته بتريث، فيعيد كلماته فيفهم منها بأنه يسأله عما يحدث بعد الموت:

- هل يولد الإنسان من جديد؟

يحاول يونس بكل الإمكانيات أن يبسط له الحديث، فيحدثه عن الآخرة والجنة والنار والحساب.

هل أعود على نفس الصورة؟

بعد مجهود قليل يفهم ما يرمي إليه فيقول له:

- ستعود أو تولد على الصورة التي تحبها.

- أي صورة أحبها؟

- كما تشاء.

راح يصف ما هي الصورة التي يتمناها، وأي الصور يحب أن يكون عليها، الصفات التي يصفها تنطبق تمامًا على شكل يونس، الصورة المثلى للإنسان في نظره هي صورة صاحبه وأخيه كما تقول له دومًا أمه، فهما رضعَا معًا من ثديها، صمتٌ وترقبٌ من يونس أن يتكلم ولكن عيون نمر تحتضن يونس في مقلتيها وتمتلئ بالدموع، يتعانقان ويبكي نمر

- ستكون في الآخرة مع الملائكة يا نمر.

يمسح دموعه التي كادت أن تنساب بكم جلبابه ويتمتم.

- لا يوجد في الدنيا ملائكة سواك أنت.

كان نمر دائم السؤال ليونس عن الجنة والنار، ومن سيكون في الجنة؟ وهل يجد الإنسان من يحبهم معه في الجنة؟ لا يجد تذمرًا أو ضيقًا وهو يجاريه ويتبسط معه ويحادثه.

***

على الشاطئ ... يمرحون ويلعبون، قلوبهم صافية، أصواتهم في هرجهم ومرجهم شجية عذبة، أُخوَّة ومحبة يُضرب بها المثل، متغيرات كثيرة عصفت بأفئدتهم، تحولات في مسيرة الحياة وتسارع الأحداث، أغلبهم انساق في موكب التجديد، ما زالوا مترابطين بحبهم، يونس يتقلد موضعه المعتاد وصفاته الحالمة التي لا تتغير بسهولة، لم تتغير قلوبهم، يجتمعون كعادتهم

وتظللهم متعة اللحظة والصحبة، قلوب مفعمة بالسرور والمرح، يقصون على يونس بعضًا من ملامح المولد، عارفون بمتعته في القراءة والابتعاد عن الضجيج، يضحك لأفعالهم التي كانوا يأتونها ويتحدثون عنها في ولهٍ وجنون، لا ترضيه أفعالهم ولكن انتقاده لا يخرج من حيز ابتسامة فوق شفتيه، نمر يجري ويدور من حولهم، تتدلى شفته السفلى ويصدر أصواتًا متباينة لطيور مرة وأخرى لحيوانات أليفة وغير ذلك، يثيرهم بأفعاله، يضحكهم ويأتي بحركات بهلوانية غريبة وكأن به مسًّا من الجن، لا يهدأ وهمه أن يسمع ثناء يونس على أفعاله، يتوقف أمام يونس ويؤدي له تحية عسكرية قوية، ما زالت أقدامه حافية كما اعتاد، يبادله يونس التحية مبتسمًا، رفعوا الوقار عن أفعالهم وانتشوا في لهوهم ومرحهم، كانت الشمس تؤذن بالذهاب، ساعة الشفق وكست أشعتها الذهبية سطح النهر فانعكست، ومن الناحية الثانية أعالي الجبل وقممه تتلون باللون البرتقالي، تمتد ظلال النخيل على مرمى البصر منهم، نسمات الغروب الرقيقة وموجات المياه الهادئة تداعب الشاطئ في حنو ومودة، كان قرارهم بالإجماع ونهاية مطاف سعادتهم أن يسبحوا في النيل قبل حلول المساء وانتشار العتمة والضباب، كانوا يعرفون مواضع الشاطئ كلها، يبتعدون عن مناطق بها صخور انزلقت من زمن قديم للنهر، فنما فوق سطحها طحالب وأعشاب زلقة خضراء وتميل للون الأسود غالبًا، يتخوف الجميع أن يسبحوا قريبًا منه، فمن يقف فوقها أو يحاول أن ينصب عوده يكون نصيبه الانزلاق والسقوط ويمكن أن يصاب بسهولة، يتخيرون أماكن نزولهم للنهر، ما زال الحياء يعيش داخلهم، لا يخلعون كل ملابسهم، يظلون بالسروال الداخلي، أول السابحين نمر كعادته، يغطس ونفسه طويل للغاية، يحاولون مجاراته غالبًا يفشلون، تكون سعادة نمر لا حدود لها وهم يشجعونه وينتظرونه، مداعبات بينهم بالمياه أو حتى بقطع الطين اللزجة المختلطة بالرمال، يغطسون يصعدون، يتحاشون الإصابة، ستائر الليل تهبط رويدًا رويدًا، أسراب الطيور العائدة من رحلة النهار، ملامح لأنوار المدينة وقد بدأت في الظهور، هدير محركات

آخر معدية تُبحر ساعة الغروب ونفيرها القوي المتتابع، رحلة العودة لمرسى المدينة في الناحية الثانية للنهر، اعتادوها فلم تخرجهم مما هم فيهم، يتوالى اللعب وتمرق لحظات السعادة، يغطسون ويعومون.

يونس لا يطفو على السطح بينهم!!

يتساءلون بعيونهم؟!

كل يستجير بصاحبه أن يتكلم، أن يلفظ كلمة.

نظراتهم حيارى.

يغطسون وتتوالى غطساتهم ولا يعثرون عليه.

يساورهم قلق ولكن لا يفصحون، تبدو فوق عيونهم معالم خوف ويبحثون، فوق صفحة الماء لا وجود له، يغطسون، نمر لا يطفو إلا قليلًا ويعاود الغطس من جديد، دقات قلوبهم وكأنها طبول حرب تدق، يصرخ أحدهم لا إراديًا، تتوال الصرخات وتتتابع، نداءات تخنقها عبارات باكية من يسمعها لا يدرك معانيها جيدًا، يخرج واحد منهم إلى الشاطئ طالبًا المعونة، يصرخ ويهيل التراب والرمل على رأسه، ينتفض يتكور ... يقفز يبكي... يولول ... يندب ... ، يصرخون ويطلبون المعونة بنداء خائف مرعوب مجنون، في دقائق جموع تتوالى، مع هبوط العتمة والظلام، مشاعل تتقد وتنطفئ، يتزاحمون ... يتدافعون ... صخب.. اضطراب ... صرخات ... أنين وقلوب تنتفض وتنقبض، مشاعل محلقة فوق الرءوس، روائح بقايا حريق المشاعل تتصاعد، لا أحد يشعر بالرائحة المنبعثة، دعوات إلى الله، يتصادمون ويحتشدون فيتزايدون، بكاء وعويل، دموع تملأ العيون، تخبو نيران مشعل فيشتعل أكثر من مشعل وشعلة، كل المراكب كبيرة وصغيرة فكت حبالها من مراسيها، تناثرت في أرجاء النهر، بدت صفحة النهر مشتعلة، نيران وأضواء تنعكس فوق وجه الماء، ضربات المجاديف تعزف لحنًا جنائزيًا حزينًا يتوازى ويواكب ما يطبق على الصدور من حزن، أي لعنة لحقت بتلك

البلدة، نمر يسبح ويغطس فيصرخ وينادي، يبكي تختلط دموعه بلعابه بمخاطه، يضرب صفحة الماء وكأنه يدخل في صراع مع النهر، سحبٌ من الأحزان تتكاثر وتتكاثف والسماء تبدو ضبابية سوداء ولكنها لا تمطر سوى مزيد من الحزن والألم، يغوصون ويعاودون ولكن لا يعثرون ليونس على أثر، يتحركون مع اتجاه التيار صوب الشمال، يبحرون ويبتعدون، يواصلون زحفهم وبحثهم، على الشاطئ يمضي الناظر، يحترق قلبه ولا تسقط دموعه لتسكن شيئًا من الحريق، يمشي في اتجاه الشمال، حوله زخم من البشر، لا يعي من معه وكأنه وحيد لحظة عذاب يتلقاها بمفرده، يقع شال عمامته عن رأسه لم يشعر به، تسوقه قدماه فقد ذهب نور عينيه، هي المرة الأولى في عمره كله أن يمضي عاري الرأس في الطرقات، غاص نعلاه في طين الشط فتركه أو ربما لم يشعر به، خلفه وحوله يمضون، أنين قلوبهم يسير وفق خطوات أقدامهم، يدارون دموعهم رحمة بالرجل الكبير، يرفعون ما سقط منه، عيناه تطفح منها الدماء وبالدموع تمتلئ ويحاول مداراتها، تفضحها أضواء المشاعل المتذبذبة والساقطة على وجهه، لا أحد يهتم أو ينظر ولا تخرج الكلمات من الشفاه، صدر الرجل مخنوق بعبارات ولكنه لا يستطيع إخراجها لحيز الوجود، في نظره أن اللحظة بالنسبة له هي نهاية العالم، نهاية أشياء كثيرة للرجل ... دمار... خراب ... خنجر مغروس في قلبه، لا يتوقف العويل والصراخ، البلد كلها عن بكرة أبيها على حافة النهر، فُكَّ أسرُ المعديتين من الشاطئ الثاني للنهر، أكثر من قارب بخاري جاء، كلها تطوف وتلقي أنوارها في شتى الاتجاهات ولا ظهور، صيادون من الناحية الثانية للنهر قادمون بشباكهم يفرشونها فوق سطح النهر وينزلون بأنفسهم، كثيرون يمشون مع التيار، لا يشعر أحد بالوقت، تتحرك النجوم من مواضعها فينظر العارف بأحوالها ويعرف أن الفجر قد قرب، خيوط الفجر تحاول أن تكسر حدة الظلام الكثيف والمشاعل الذابلة، خيوط النور والضوء الخفيف تتسلل، العيون مسهدة وساهرة طوال الليل تبحث ولا تجد ما تبغي، أشباح الكائنات والجمادات تظهر الثابت والمتحرك منها،

يونس ... يونس ... يصرخ نادر بكل قواه مناديًا باكيًا، صرخته تشرخ قلوب من حوله، أصبح كمجنون، يبحث ولكن أين؟ يسأل النهر أين يونس؟ يكاد يغرق، كلهم من حوله في الماء، يُغشى عليه، يرفعونه فوق أيديهم، يضعونه فوق أحد المراكب، يرفس بيديه ورجليه، حالة تشنج لم تصبه من قبل، يلتفون حوله، يقلبونه على وجهه ليفرغوا ما في جوفه من مياه، زفراته من حنايا قلبه، يفيق من غفوته فيعاود صراخه، يحاول النزول للنهر، ينزلونه على الشاطئ، يلتفون حوله لا يتركونه يشاركونه البكاء ولكن يظهرون التماسك، عيناه زائغتان مفتوحتان ولكن لا تبصران، إحساس بمرارة يمتصها ويستحلب رحيقها وكأنه يطلب مزيدًا من المرارة أو الموت، كم يتمنى أن يذهب بعيدًا عن مرمى عيون كل البشر، مكان لا يراه فيه أحد، فيهيل على رأسه التراب ويصرخ ما شاء له الصراخ، يبكي في حرقة لكنه يحاول أن يستجمع قدراته أن يقف على قدميه، أن يبدو أمام تلك الجموع متماسكًا، يلعن نفسه ويلعن كل الجموع في داخله، كل العيون ترقبه ولكنه لا يرى سوى صورة الملاك الطاهر الذي يسمى يونس، تذوب كل معالم الحياة من أمام عينيه وتنزوي، أخيرًا يقف على قدميه، يحتفظ بثبات وقفته، هل تخبو وتنطفئ كل المشاهد الجميلة في الحياة؟ وكأن كل الألوان طُمست ولم يتبق سوى اللون الأسود يرفرف ... ظلام ... عتمة ... ضباب ... خراب، عقارب القلب توقفت وسكنت وتوقف الزمن عند تلك اللحظة والساعة، حزنه الغائر في الصدر تفصح عنه آهاته المكتومة والدموع التي تسقط قسرًا، أحاديث دائرة من حوله، شفاه تتحرك في عبارات مبهمة لا يجتمع شمل كلماتها ومعانيها في أذنيه، كلمات مبعثرة فيسافر الصوت المنبعث من الصرخات من أفواه المتشحات بالسواد، يلوذ بظهره إلى جذع نخلة قبل أن يفقد توازنه، تتقابل عيناه بعيني أبيه، يهتز قلبيهما ويداري كل منهما عينيه، الصباح قادم كعادته، سحابات سوداء تحوم حزينة فوق كل المحزونين ولا ماء النهر توقف ولا مطر أزاح شيئًا من جفاف الحلوق، المطر الوحيد الذي هبط مطر حزين مباغت جبار، يشعر الناظر وكأن أحدًا أسقط أجمل

أوراق عمره الخضراء، ثلاثة أيام، ستائر الهموم لم ينفذ منها ضوء الرحمة، بلاءٌ لم يسبق له مثيل، لم يعثروا على جثته، أبحروا مع التيار وسافروا عشرات الأميال، لم تطف على السطح حتى بعد ثلاثة أيام كالمعتاد، شقاء ومعاناة للجميع، تعرضوا لكثير من النوائب ولكن تلك الأكبر والأقوى، كيف يدفعون هذا اليأس الجاسم فوق قلوبهم وصدورهم؟ ليس هناك مرفأ من تلك الأحزان سوى ساحة الإيمان، الشيخ رضوان يأكل قلبه الألم، يتماسك ويرفع عقيرته بالصياح ويطالب الجميع بذكر الله، وما يونس إلا أمانة أخذها بارئها وخالقها، يحاول أن يُبعد بالجميع عن الوساوس الشيطانية التي تركب الرءوس، يؤكد أنهم رهن إرادة الله فلا تجعلوا أنفسكم فريسة ورهن أفعال الشيطان، يطلب الرحمة ويطالبهم، أم إبراهيم زوجة الناظر، تبكي وتعاتب النهر، ليوم كامل ونورا منهارة تساند أمها وتحاول، من حولها كل النساء يندبن ويبكين، شعرت أم إبراهيم أن قدميها مقيدة بسلاسل لا تستطيع الفكاك منها، تحاول أن تحرك أيًّا من قدميها ولا تستطيع، تتحمل ولا تجاهر، يمكن أن يكون شللٌ أصابها، تتمنى أن يكون الشلل أو الموت ويعود يونس، مجرد آمال، ما لبثت أن خارت قوى المرأة، فشحب لونها وسقطت على الأرض، هرب الدم من وجهها وضعف نبض قلبها وظنتها بعض النسوة ممن حولها بأنها في طريقها لمفارقة الحياة، عيناها الثابتتان يقترب شكلهما من عيون الأموات، وكأنها لم تجد من يغمض جفنيها، حملوها إلى المنزل، كارثة غير متوقعة، حزن مبرح، يصرخ أحد البكائين:

«ما نأتيه أفعال مرزولة وكأننا لا نرضى بحكم الله ... وحدوا الله وا ستغفرو ه».

ورغم هذا يواصل هو البكاء، قاسوا جميعًا وكابدوا.

يقوم طه على رعاية الناظر الليل والنهار، ينظر الناظر إليه، ينتظر منه حديثًا أو مشاركة، كلماته لنفسه لا تخرج لحيز السمع، نعم عيناه ثابتة صامتة ويقول لنفسه:

«حاسس وكأن البلد خلعت توبها ... توبها كان بيشع نور ... ويوم ما سافر يونس لبست توب الضلمة ... صوت بوم وغربان بتنوح».

لم يأت دكتور إبراهيم واليوم الخامس يمضي، قالوا إنه خارج حدود مصر، لم يستدلوا على مكان هو فيه، كانت من عاداته المذمومة قلة اتصاله بأهله، أكلته الدنيا هكذا يصفونه، لا يعرف أحد نيته أو الطريق الذي يمضي فيه.

***

يشعر نادر بأن هناك شيئًا ينقصه، هو لا يتخيل البلدة كلها بدون سماع صوت يونس أو ضحكته أو حديث الناس عنه، نمر أيضًا تائه حزين دامع العينين طوال الليل والنهار، يبكي بلا صوت، يمرق في جنبات القرية، في نهاية اليوم يجلس على حافة النهر، لا يصدق أن هناك حياة بدون يونس، من يذكر أمام نمر أن يونس مات، يقسم بكلماته المتعثرة المعتادة بأنه لم يمت وأنه سيعود، فذاكرته تعي جيدًا حكاية سيدنا يونس عليه السلام وحياته في باطن الحوت، ما الفرق فيونس ابن الناظر ليس بشرًا عاديًا، عندما يعون كلامه يواسونه ويشاركونه ولا يناقضون كلماته فالجميع في انتظاره، يوم سافر يونس كما تقول أم نمر وفقًا وتماشيًا مع كلام نمر، وجدت ملابسه على الشط فأخذتها إلى البيت، عثر عليها نمر فلفها ووضعها في حقيبة بلاستيكية، كل يوم في ساعة الغروب يسحب الحقيبة بما تحتويه ويجلس على حافة النهر، يحافظ على حقيبته بجنون لا يستطيع أي إنسان أن يقترب منها، ولا حتى مجرد فتحها، فيوم يعود يونس سيجده في انتظاره على حافة النهر، على مقربة منه يجهز أغصانًا جافة وحطب قطن يكومها فوق بعضها، لا ينسى أن يحمل معه يوميًا علبة ثقاب، عندما يعود سيحتاج أن يستدفئ وبعدها يلبس ملابسه، أما نورا فقد أسلمت أمرها لله، الأم ما زالت في نومتها ولم تفارق الفراش من يومها، الأب يحاول أن يتماسك، لا يدخل البيت مطلقًا، أغلب يومه في الديوان وبرفقته طه غالبًا، لا تنقطع الزيارات

شبه اليومية، عشرات من البشر يأتون ويذهبون، المندرة الضخمة تمتلئ ولا تسكن من ضجيج القادمين والذاهبين، أمام الدار لا تجد مكانًا لقدم طوال اليوم، كلمات قليلة مبعثرة لا تحمل أي معنى، يسيطر الحزن على المجلس غالبًا، لا يستقبلون عزاء، تحاول نورا أن تتجسس وتتسلل لترى أباها ولكن لم تكلل مساعيها بالنجاح، مرة واحدة وكان يهم بالوضوء، تقابلت عيونهما، فتح ذراعيه لها، ارتمت في أحضانه، شعرت بزفرات قلبه وأنينه، بكت، ومسحت الدموع من عيون أبيها، وهربت من بين يديه لتستكمل نحيبها بمفردها، لا تندمل الجروح العميقة بسهولة، لا شيء يعوضها عن غيابه، ما زالت روحه تؤنس وحدتها، تتساءل:

هل هان على الأسماك أن تأكل جسد يونس؟

أم هل عشقته عروس النيل وأخذته؟

أفكار وأفكار تتنوع حسب ما تستطيع أن تتخيله.

تأتيها كلماته:

«الأفكار هي أجمل زهور الإنسانية، على الإنسان أن لا يتركها تذبل وتنتهي، ارو أفكارك كل يوم».

«غالبًا ستدخل اليرقة الشرنقة ... ستسجن ... لن يطول سجنها ... ربما راحة لبعض الوقت ... ستخرج الفراشة بجناحين جميلين وستحلق في السماء ... تفاءلي واسبحي في الغد»

كانوا يقولون عنه نبتة صغيرة مزهرة لم تتفتح أوراقها للنهاية، انتظروا فالغد مرهون به

هل كانت مثالياته غريبة على واقعنا المعاش؟

تردد كلماته وتمتلئ عيونها بالدموع، يدور الحوار بينهما أغلب ساعات نومها إن نامت، تحاول أن تنام لتلحق به.

كم كانت كلماته إليها زاخرة بالمعاني الجميلة، كان دائمًا وكأنه يستحيي أن يقول إنها من نبت أفكاره، غالبًا كان ينسبها لآخرين، أو ربما قرأها في كتاب أو قول لمؤلف معروف أو أديب، عندما تسأله عن الفرصة التي لا تأتي دومًا فيقول:

«إذا كانت الشمس موجودة والجو صحو فعلينا استغلال الشمس والتشبث بأشعتها والانطلاق ... علينا أن نسرع ونحن نتسلق أشعة الشمس... فأي سحابة ثقيلة يمكن أن تقطع الطريق علينا ولا نستطيع الوصول ونعود لموقع البداية».

عاش سجين ضميره الحي ومشاعره الإنسانية الفياضة، ذهب يونس ولم ينقطع همس كلماته الطيبة، ذكراه نغمات حزينة مجرد ذكرها يبلل الشفاه اليابسة، كم كان يفيض بالحب ناحية الجميع، عندما تسأله عن علاقته بنمر، لا ينكر أنه أخوه في الرضاعة، وهو يحبه كثيرًا جدًّا، ويستطرد قائلًا:

«العيب كل العيب أن نجعل من بشر خلقهم الله سبحانه أداة للسخرية، فقبل أن ننتقد الآخرين ونصورهم وفق رؤانا ... فهذا مملوء ككيس قطن وهذا نحيف مثل عود القصب ... وهذا ... وهذا ... علينا أن نتخيل أنفسنا أولًا في حجرة المرايا العاكسة، علينا أن نتأمل صورنا المشوهة المتغيرة المثيرة للسخرية والضحك داخل تلك المرايا الضاحكة».

كان يدعو أن نوفر أي تعليق بذيء بإنسان، فأي قصور في إنسان علينا أن نعوضه بمزيد من الحب والاحترام فربما كانوا هم الأفضل.

***

يتأمل طه الصامت الناظر بعينيه الذابلتين الشاخصتين نحو المجهول، يتمنى أن يذرف شيئًا من الدموع، محزون على الرجل ويعرف أن قلبه يبس فلم يجد ما يزرفه من دموع، لا يشعر الناظر إلا بأنه أسير أطلال وكأن يدًا وحشية دمرت كل جنبات المكان، يحاول أن يبدو متماسكًا، أسفل عينيه

وكأنها جيوب سوداء حديثة الظهور، يشعر بخدر غامض في جسده يصيبه بخمول حتى في تذكر أسماء الموجودين برفقته أحيانًا، يعالج ذلك بصمت وسكون وانتظار، أحيانًا كثيرة يحاول أن يخرج خارج البيت، كأن الجدران تطبق على صدره وتخنقه، يلتمس نسمة هواء تحرره من قيود حيطان المنزل المدفن، نحيب مكتوم وزفرات ملتهبة، ألم بلا صوت وعينان تتطلعان بعيدًا صوب مجهول وشحوب يغطي معالم الوجه ... يسأله طه الصبر:

«يسكن حزني على يونس يوم أدخل القبر...».

***

ما يزيد عن عشر سنوات لم يأت للبلدة ولم تطأ قدماه أرضها، أتى ليشاركهم أحزانهم على أخيه، أخوه كان في الصف الأول من المرحلة الإعدادية تقريبًا يتذكر ذلك، هو يتذكر نادر جيدًا، ربما ضاعت الكثير من المعالم من ذاكرته، لم يصدق عينيه، بنايات حديثة وكهرباء ومياه ومعديات تستطيع حتى نقل السيارات الكبيرة إلى الجانب الآخر والعكس، ملامح الحياة كلها تغيرت، بدايات للكوبري الكبير فوق النيل، سيغير وجه الحياة كلها، وكأن الأحزان تجددت، لا ينقبض قلبه ولا تطفح عيناه بالدموع، لا غصة في حلقه ولا ألم يعشش داخله، في أحضان أبيه هم يبثه إليه فيجاري أباه في مشاعره، آهة أبيه ملتهبة حارقة فتصيبه بأثرها، تنزلق دموعه قسرًا عنه، في قبلاتهم وكلماتهم مواساة له لا تهز كيانه، يتصنع الحزن ويحاول أن يمسح دموعه القليلة التي هبطت تماشيًا مع انفعالات اللحظة، عندما يصل خبر عودته تستقبله الصرخات، في المندرة الكبيرة الرجال ينظرون إليه وتعود إليهم ذكريات يونس فيتألمون، يحاول ألَّا تصطدم عيونه بعيون أبيه أو نادر أخيه، فجسده تأخذه الرعشة ولا يستطيع التحكم في مشاعره غير المتوازنة، تسقط دموعه تفاعلًا مع مناظرهم لكن بلا انفعال حقيقي من داخله، يصرخ الشيخ رضوان بكل ما آتاه الله من قوة:

- أين الصبر؟ مات رسول الله وكل الأنبياء لقوا ربهم، هل لا نرضى بحكم

الله، هل نحن أفضل من رسله وأنبيائه؟ هل نضب صبركم هل طاش عقلكم؟ ارجعوا إلى الله ... كلنا من التراب وإلى التراب نعود، إنا لله وإنا إليه راجعون.

يسلمون بكلماته فيصمتون، يصل صوته إلى الداخل فتخرس الألسنة ولا ينقطع النواح والندب، العيون تفقد بريقها فلا تبصر جيدًا، هكذا كان حال أغلب الموجودين حتى الشيخ رضوان نفسه، الذي يسحب منديله من جيب جلبابه في هدوء وكأنه يسرقه ليرفع عن وجنتيه دموع، تحتشد الجموع وتمضي، ما زالت كثير من معالم الزمن الماضي ماثلة أمام عيني الدكتور، تمسح عيناه الوجوه الصامتة الحزينة، يتمنى أن يطرح أبوه سؤاله عليه، لماذا تخاصم بلدك وأهلك وناسك؟

لا يأتي السؤال من فم أبيه الصامت فيطرح السؤال طه.

لا يستطيع نسيان طه، هو من طاف به ربوع القرية وهو يحمله فوق كتفيه طفلًا، حمله وتسلق النخلة يوم بكى وعمره لم يتجاوز يومها السنوات الخمس، ربطه فوق صدره وتسلق به النخلة مستعينًا بسلبة شحاته طالع النخل، تناول التمر يومها بيديه كما طلب يومها يحكي بها ويتحاكى، لا يجيب سؤال طه ولم ينسه أيضًا، لا يقدر أن يجيب بصدق فيحاور في الرد، مجرد أن يفكر في الحضور إلى شق الجبل، تتمثل أمام عينيه كل ملامح التخلف والجهل، وكأن يوم يركب ليسافر إلى بلده وموطنه فإن عقارب الساعة ترجع به للوراء، كأنه يمشي عكس عقارب الساعة، كأنه ينتقل من عصر إلى عصور جاهلية أولى، ينتقل من دنيا تشع وتعج بالحياة إلى عصر ظلام وكآبة ووحشة، مشاعر لا تحمل أيًّا من معاني الوفاء للبلد والموطن الذي عاش فيه، يجابه نفسه أحيانًا، فيحاول أن ينفي هذا التفسير، يطالب نفسه ويطالب الجميع أن يعيشوا الحياة، فالموت هو الحقيقة الوحيدة في الدنيا، من يستسلم للأحزان فمجنون ولا يجد في آفاقه ثمة خاطر جديد، أحاسيسه شبه ميتة فلا يتعاطف لحدث حزن أو فرح، وكأن المحسوسات

لديه أصبحت كالأطراف الميتة، كأظافر يمكن قطعها دون ألم، هل مجموعة مفارقات الحياة حوله فعلت به ما فعلت؟ هل عدم قدرته على مجاراة المتغيرات ترك أثرًا سلبيًّا على حياته؟ هذا الإنسان الذي وصل لأعلى الدرجات العلمية، من سافر داخل وطنه وخارجه، من شاهد وعرف وقرأ وخاض تجارب متعددة!!! هل استسلم ليأس من فعل وأفعال حدثت أو ردود أفعال، عندما يغمض عينيه لا يجد تعاطفًا مع البشر من حوله، طينته مغايرة عن هؤلاء، يرى الأغنياء الأثرياء كلهم بلا أي تمييز في عينيه، كل من يعرفهم أدنى منه منزلة، يشعر وكأنه من جنس أرقى، هو يفوق كل البشر من حوله، فالأغنياء مجرد حفنة من اللصوص والمتسلقين، الفقراء ميتون بالحياة وهم يستحقون الموت كونهم مستسلمين بهذه الطريقة.

لا يعرف للأنين معنى، لا يعزف عن تهكم وسخرية من أقرب المقربين إليه، هل حالة نفسية تعتريه؟ لقد تعدى الأربعين اليوم، لا يشعر سوى بالاستياء والوحدة والعزلة، يعيش كابوسًا مرعبًا لا يستطيع أن يذكر تفاصيله جيدًا، يجافيه النوم كثيرًا فيتقلب في فراشه، يعاني من غربة في موطنه ومحل ميلاده.

دائمًا يعقد مقارنات بين حياته وحياة الآخرين، رغم بزخ الحياة التي يعيشها يشعر بالفقر، حياته في المهد وكيف أنه كسر القيود وحقق ما لم يستطع بشر يومًا تحقيقه، عشق ذاته وقلل دائمًا من شأن الآخرين، يتذكر ولا تضيع من ذاكرته أيامه الأثيرة في ربوع أوروبا، لا تضيع من ذاكرته مشاهد البشر من حوله نساء وأطفال وعشاق يفعلون ما يحلو لهم في الحدائق الممتدة على مرمى البصر أو في أي مكان يتواجدون فيه، ملامح الكلاب المنتقاة الجميلة، عشق النساء خاصة للكلاب، في سخرية لاذعة يعقد مقارنة بين تلك الكلاب الأوروبية وجمالها ونظافتها وروعتها وكلاب شق الجبل القذرة الضالة.

عاش أسير أحلام لم يتحقق منها إلا النذر اليسير هكذا يقول، يسيل لعابه

على كل ما يراه وليس ملك يديه، ما زالت تعيش في ذاكرته أيام الشقاوة في شق الجبل، يرن في أذنيه حديث زميل أيام شبابه ذلك الإنسان الفقير الضحوك عندما يستضيفه في منزله، منزل عبارة عن حجرة واحدة ومن داخله زريبة، وبسعادة غريبة يصف له حاله قائلًا:

«كل ما تتخيله موجود، فحجرة الاستقبال ها هي ... الحصر والمفارش فوق الأرضية، وها هي الوسائد لتسند ظهرك كما تريد، أما حجرة الطعام فنفس المكان تضاف إليه طبلية صغيرة ويلتف حولها الجميع، أما ساعة النوم فعليك بسحب الأغطية من فوق هذه الدكة وفرشها».

يومها سأله: ويوم تريد زوجتك؟! ... يضحك صاحبه وهو يقول له:

«يا سيدي حتى لو كان فوق السطوح».

وفي الشتاء:

«لا تشغل بالك بتلك الأشياء التافهة ستُقضى بإذن الله».

كانت تسبح في البداية أمانيه مشفقًا على البشر:

«ناس بلدنا كائنات بشرية محبوسة في قفص، سقطت بشريتهم في أسر الحاجة والفقر... يندفعون ولا يعرفون للغد طريقًا، يلوحون لهم فيردون التحية في سعادة مفرطة ويلوحون، يفتحون لهم الأبواب فينطلقون وتلتهمهم النيران».

بعد أيام عاشها مع ناس من طينة مغايرة عن أهله الذين يلفظهم كثيرًا في سره، اليوم وقبل أن يأتي للبلد مشاركة في عزاء أخيه تخيل أن الحال كما تركه، يوم كان يردد في ساعات الزيارة المحدودة لا أرى سوى ... روث البهائم الذي يملأ الطرقات، الصبية بثيابهم الرثة الممزقة، أصواتهم الصاخبة، جلسات المصطبة عندما كان الصيف يطرق الأبواب، الدخان وهو ينفذ للخارج من البيوت المتاخمة المتلاصقة من طاقات صغيرة أعلى الجدران

الطينية أو من الأبواب، الأسطح المصنوعة من أغصان الأشجار، طلقات الرصاص التي تقض مضجعه، يتناوبون إطلاقها مرة من قِبل مطاريد الجبل والثانية ردًّا من رجال البلد، كلما مرت عليه تلك المناظر يشعر بغصة في حلقه:

«أشعر وكأن للمقابر نداء يلفني، ترتجف أوصالي، أحاول أن أغلق آذاني فيطرق نداؤها قلبي، أسافر مسرعًا خائفًا مرتعشًا ...».

في حواره مع نفسه يواصل ويردد:

«نعم أعرف أنه لا ثوابت في الدنيا، التغيير والتنوع أساس الحياة، أشعر وكأن هذا التغيير ظاهري فحسب، ما زالت أفكارهم الجاهلة تتحكم فيهم وفي أفعالهم».

لا يتذكر أنه عاش حياة مرفهة قياسًا بأقرانه من البلدة كلها، كانت كل طلباته مجابة، كان قرة عين للأب والأم معًا، مجرد أن يشير على شيء ما إلا ويصبح ملك يديه، كعادته تركبه النقمة فتركب رأسه أفاعيلهم زمان، الأفعال الجاهلة التي يأتونها، فيتذكر أن الكثير منهم ما زالوا يضعون الجريد الأخضر مع المتوفى في قبره أو فوقه، يتذكر طرق العلاج البدائية التي يستخدمونها، حديثهم الذكوري الذي يدور حول ماء النخيل ساعة أن تُقطع ففي قلبها يسكن ماء الحياة من يشرب منه يعيش بحيوية الشباب حتى يموت، يتذكر قباء الطين المغلقة من جميع الاتجاهات، له فتحة علوية وحيدة تصب فيها الحبوب، من الأسفل توجد فتحة جانبية صغيرة، يفتحونها ويأخذون منها الحبوب ساعة احتياجهم إليها، يحاول أن يتذكر اسمها، تقريبًا كانوا يطلقون عليها الصوفة، أما حكاية السبوع الخاص بالطفل، يتذكر كل المفردات التي يقومون بها ولا ينسى أبدًا دق الهون قريبًا من أذن الوليد، ويفسرونها بأن ذلك يقوي قلب الولد أو البنت فلا يخاف من الأصوات العالية وخاصة طلقات الرصاص، حتى الأكلات التي يتناولونها يذكرها بقرف بالغ ... الملوخية الجافة والبصارة والفول النابت والعدس

ويعدد أنواعها، لا يعرف كيف يلتمس الأعذار:

«هل يشفي البكاء والعويل الصدور الحزينة؟ نلج بأقدامنا بحور الضلال والكذب ونبحث عن دواء لعللنا ولا نجد فالبكاء أولى».

***

تسكن الكلمات في جوف نمر، لا تخرج، مسجونة ولا يعرف كيف يخرجها فيتألم ويبكي، يتمنى أن يذرفها، تتحشرج المعاني وتتداخل، مجرد نواح خارج بلا معاني لا تحمل سوى الألم، هو بطبيعته مخارج حروفه وكلماته غير مفهومة، ينظر للسماء، يشعر باقتراب السحاب ناحيته، وكأنها تحيطه من كل جانب فيدور حول نفسه ولا تفارقها عيناه، يخرج من بين غبشها يونس ضاحكًا، يتوقف عن الدوران، يهم بأن يحتضنه فلا يجد شيئًا، يبتعد وهمهماته تعاتب الضباب الذي يتحرك، يبتعد ويجري خلفه، تذوب وتنزوي معالم الضباب، الدهشة والحزن فوق وجهه، يرونه ولا يملكون له سوى الدعاء، يداه مفرودتان بقوة تجاه السماء، تبحث عن شيء مفقود، عيناه مصوبة لأعلى، يجأر ولا معنى محدد يدركه الناس حوله، لا يتحسس الطريق فيجري خلف دعوة مجهولة، ينادي وينتظر الرد ويعاود النداء، تلتقط آذانهم اسم يونس من بين الكلمات المبهمة، يصطدم قدمه الحافي بحجر صغير، يقع على الأرض، جرح في قدمه، ينزف دمًا، ينتصب من جديد، لا يعير الجرح أو الدماء النازفة اهتمامًا، لا ينفض جلبابه، يواصل المسير والنداء للمجهول، يتألمون للأفعال التي يأتيها، هل يمضي صوب النهر؟ إنه مسلوب الإرادة في فعله، مجنون أصابه خبلٌ لا يدرك أفعاله، تصرخ أمه وتستجير، صرخاتها تخرجه من حالته النشوى، تسحبه لدنيا الواقع الملموس فيستجيب قهرًا للنداء، ترتد عيناه للأرض وتدور في فلك المحسوسات حوله، ينظر حوله متأملًا وكأنه العائد من سفر طويل غريب، تستوي ذراعاه بجانبه، يتوقف وكأن أقدامه شدتها الأغلال إلى الأرض، أعادته صرخة أمه لحيز الدنيا والوجود، ينظر فيجد أمه أمام عينيه، يجري

ناحية أمه باكيًا، يأخذها بين ذراعيه، يشعر بدوار فيتراجع للخلف ويخر صريعًا على الأرض، تلطم خديها وتجلس فوق رأسه، تضع رأسه في حجرها وتبكي، تغسل دموعها وجهه، لكن لا يستيقظ، يستعذب النوم في حجرها دقائق ويرفس بقدميه، تتشنج أعصابه ويفرز الأنف والفم إفرازاتهما وتمسحها الأم باكية، يتجمعون حولهما، يقبض هذا بقوة على ذراعه وآخر على الذراع الثاني، قرابة عشرة من الرجال يرقدون على جسده حتى يسترخي وتتوقف تشنجاته، رويدًا رويدًا يشعر بالدنيا من حوله، يضربون كفًّا بكف ويمضون، عيونهم حبلى بالدموع ويتصنعون الثبات أمام المشهد وذكرى يونس على فم نمر ترهقهم وتزيد معاناتهم فيخبئون دموعهم، تسحبه الأم فينقاد، تحجبهما حيطان البيت عن الناس، يستلقي فوق الحصير الممدود، تضع تحت رأسه وسادة، ينظر إلى أمه ولا يتفوه بحرف واحد، يدس وجهه في الوسادة، صار أسير هواه الذي رحل وسافر، صرخاته لا تفك أسره ولكن تنهك قواه فينام، فوق رأسه تربت بحنو فوق شعر رأسه، تحفظ قليلًا من آيات القرآن ترددها وهي تمسح رأسه وكتفيه، ينام ويتصاعد شخيره المعتاد، يرى صورًا غريبة مبهمة غير مترابطة وكلها برفقة يونس، في دنيا أخرى لم يرها من قبل، يسبح معه في جو مفعم بالسعادة والمرح، صور جميلة أمام عينيه، أغانٍ وشدو بلابل، حديقة ممتدة الأطراف لا يدرك لها بداية أو نهاية، أزهارها متنوعة وعبيرها نفَّاذ منتشر، رائحة عبقة وبخور تستطيبه النفس فيستنشق بعمق، أطعمة لم يرها من قبل مرصوصة تنتظر أن يمد يده وهو ينتظر أن يبادر يونس بالتذوق، ما أروع طعمها وأشهاه، كل الأشياء ملموسة ومحسوسة، نعيم مقيم ... يتقلب فيصحو، يفتح عينيه فينظر لأمه التي ذهبت في سبات وما زالت آثار دموعها فوق وجنتيها الضامرتين الشاحبتين، يمسح عن وجهه بقايا دموعه ودموع أمه، تسرع الأم بصناعة كوب من الليمون بالسكر، يتمنع فتتوسل إليه، مرغم يحتسي الشراب، لا يطيق طعمه ولا يستسيغه، يتمنى أن يعود أدراجه لحلمه السابق، ينتفض جسده وتركبه رعشة، تربت وتمسح أمه على رأسه وكتفيه، تسمي بسم الله،

يزداد نحيبه، يتمنى أن يغرق في سباته في أحلامه الحلوة الرائقة الجميلة، تقرض الفئران حواف لحاف الحلم فيتعرى فيصحو ولا يغفو ثانية، حلم متكرر، يأتيه في البداية ضبابيًّا ولكن بملامح حبيبه، توقظه أسنان الفئران العابثة.

ماذا تفعل أم نمر؟ لمن تلجأ وتسأل؟ من يمد لها يد المعونة اليوم؟ الجميع مهمومون وللحزن مستسلمون، يتجمعون حولها للحظات، ويتركونها لحال سبيلها، يأتي البهلول يبكي بجوار رأس نمر ويهبها كل ما يملكه، البهلول لا يحب الجلوس بين الناس، يعيش وحيدًا في الجزيرة، يخاصم كل الناس إلا قليلًا يفسحون له مكانًا، أطواره غريبة، تسأله أم نمر ماذا تفعل؟ يهز رأسه ولا يدري، يشير عليها أن تفعل ما تريد، ترك لها كل ما يملكه وكان كثيرًا في نظرها، عيناها تشعران بمدى الأسى في كلماته، تطالبه بالبقاء في المنزل معهما، تهبط دموعه ويتركهما ويمضي، يعود بقاربه إلى الجزيرة موطنه.

لا مفر أمامها، الجميع أشار عليها باستقدام شيخ يقيم طقوسًا ترفع عن ولدها مس الجن الذي أصابه، إن لم يكن شيخًا فعليها بقس وهو يأتي مرة واحدة في الأسبوع كل يوم أحد، غالبًا يبيت ليلة واحدة في بيت المقدس سمعان، سمعان رجل طيب ودائمًا بشوش الوجه، هو محب أيضًا لنمر ولن يرفض لها طلبًا وسيرحب بأي عمل لمصلحة نمر، تذكرت أن المقدس سمعان ابنته مريم مريضة أيضًا وذهبوا بها لأطباء ولا تغادر فراشها، ابتلعت أحزانها وعليها أن تصبر، كل يوم تزداد حالته سوءًا عن اليوم السابق، تبحث عن شيء يخرجه من الهوس الذي أصاب عقله، يأتونها بشيخ غريب، يطالب بأشياء متعددة من بخور متنوع وأنواع من العطارة لا تعرف المرأة أن تنطق اسمها، يشترونها نيابة عنها، ويأتي الشيخ ويقيم طقوسه وبدوره يحضر القس ويتولى رش البيت والقراءة، للأسف لم تفلح كل تلك الأفعال في عودته، كلاهما لعنه وأعلن أن الشيطان الذي يركب رأسه متمرد وخطير، يصرخ، يقذف بأواني البخور ويهرب، لم تفلح أي محاولات، يذهب البهلول

خلفه يستطيع أن يحمله فوق كتفه ويعود به للبيت.

خاف البعض من منظر نمر وهو يجري بلا هدف، الفتيات تراجعن عن الخروج في أوقات كثيرة، رغم أنه في أقسى حالاته لا يأتي فعلًا منكرًا أو يتهجم على فتى أو فتاة، تدعي إحدى الفتيات بأن نمر كاد أن يضربها في الطريق، تشكو لأخيها وهو واحد من صحبة نادر، نادر لا وجود له هذه الأيام فاتخذ هو القرار، فقرر أن يحبسه بعد أن يوثقه بالحبال ويسجنه في بيته فلا يخرج، بعد تردد وافقوا، قلق يستبد بهم وتخوف من لحظة جنون تركب رأس نمر فيطيح بأكثر من واحد منهم، لن يشكرهم الناس على فعلهم ولكن سيلاقون عتابًا شديد اللهجة.

يمضي نمر في الطرقات زائغ العينين، يحدق في كل الأشياء، يتحدث لكل أنواع الأشجار من نخيل لصفصاف للبخ حتى شجرتي التين العجوزتين، في نهاية مطافه يسند رأسه على أي جزع شجرة أمامه وينام فيذهب في أحلامه التي يتمنى ألا يفيق منها، وبعد أن يستيقظ يواصل حواره مع جذع الشجرة، فيسألها عن يونس هكذا سمعوا وحكوا عما سمعوه، بعده يذهب في بكاء ونحيب قد يطول، يواصل طريقه فيقترب من حمار مربوط في وتد قريب، يميل على أذن الحمار ويحدثه، يبكي، ينفض الحمار رأسه بقوة ولكنه يواصل الحكي له، فما كان من الحمار إلا أن دار وأعطاه مؤخرته ورفسه بخلفيتيه معًا، من وجهه سال الدم وتكوم على الأرض يئن ويتوجع، خافوا الاقتراب منه فقد قالوا إنها ساعة جنونه وعليهم الابتعاد، نادر قادم ومن خلفه مجموعة من أتباعه، كانوا قد همسوا في أذنه بالخوف العالق في صدور الناس من أفعال نمر، قادم وفي نيته أن يصب غضبه فوق رأس نمر وقد يلهب جسده بالضرب، يعرفون أن نمر مهما يفعل معه نادر فلن يرفع رأسه ويستسلم لأفعاله وأوامره، سيضربه ويسحبه إلى بيته ويقيده هناك ويصدر حكمًا عليه بألا يخرج من البيت، سينصاع لأوامره، رسموا خطتهم، في نفس اللحظة التي يتألم فيها نمر ويتقلب على الأرض ووجهه ينزف من

الدماء، من بين الدماء التي غطت وجهه صرخ قائلًا:

«... الحقني يا يونس ...».

اخترقت الكلمة والنداء أحشاء وجسد نادر فتقلصت كل أعضاء جسده، يعاود نمر النداء ويمد يده ناحية نادر، ضربات قلب نادر المتسارعة وأنفاسه وزفراته تئن في وجع:

«أما زال يونس على قيد الحياة».

تنثال دموعه غصبًا عنه، يسرع ناحية نمر بعد أن يرمي بالعصا التي كانت في يده بعيدًا، يميل على نمر الذي يبكي وهو يردد:

«يونس ما متش يونس راجع يا نادر».

يأخذه بين ذراعيه، يحاول أن يرفعه عن الأرض لا يستطيع، يسرعون ويتشاركون في حمل نمر ويذهبون به إلى البيت، كلف أحدهم بأن يسرع للجزيرة وليحضر البهلول، ويرسل نادر واحد آخر لطبيب الوحدة وعليه أن يأتي به فورًا، أو من ينوب عنه، أسرع المكلفان، تحاول أم نمر أن تقبل يد نادر فيسحبها ويحتضنها ويقبل رأسها، ينظرون ينكسون رءوسهم، يود أن يقول شيئًا لا يستطيع إخراج الكلمات فيبتلعها وينظر في تعجب ودهشة إلى نمر، ينظر إليهم بعتاب صامت وئيد ويقطع دابر الجملة التي كانت تهم أن تنطقها شفتاه، يأتي الطبيب ويقوم بواجبه وكلما هم نمر بالنهوض والابتعاد، كانت همهمات نادر القوية تجعله يتراجع، بعد جهد طويل وتحت تهديد نادر ينصاع ويترك الطبيب يداوي جراحه ويخيطها بالسلك بعد أن خدره موضعيًّا، ويأتي البهلول الذي يقف صامتًا، ينتهي الطبيب، فيأخذ البهلول ابنه بين ذراعيه وهو يواصل الصراخ، يبكيان معًا وخارج الدار تهبط أيضًا دموع نادر، أكثر من واحد منهم سقطت دموعه، جلس على حجر ضخم صامتًا، لا يبدد صمته سوى سيجارته التي تتآكل بقوة وتنتهي فيأتي بغيرها، يحاول البهلول أن يصحب ابنه للجزيرة ولكنه يرفض بشده، فهو في

انتظاريونس القادم، يعود البهلول بمفرده إلى الجزيرة باكيًا، يطلب منهم أن يذهبوا، تركوه ومضوا، جلس أمام باب المنزل بعد أن طلب من أم نمر أن تعد كوبًا من الشاي، صنعتها له ولكن نمر قفز وسحب الكوب من يديه وهو يبكي قائلًا:

«كباية يونس».

يهم نادر بالمشي يتعلق نمر برقبته ويجلسه، ويحتسي الشاي في كوب آخر، بعد أن يدفع يده في جيبه ويخرج نقودًا يهبها لأم نمر، تحاول أن تشكره ولكنه يطالبها بالصمت، بعد أن يقلب ما أخرجه من جيبه يجد لفتين، أحدهما حشيش والثانية أفيون، يتأملهما ويقلبهما بين يديه متسائلًا:

«هل أبحث عن النسيان؟».

وهل مثل يونس يُنسى؟ يبكي في وحدته ويلقي اللفتين بعيدًا، ماذا يفعل حيال هذا الحزن والقلب المقبوض؟ هل يذهب إلى مهجة ربما ترفع عنه بعضًا من الحزن؟ حوارات لا تنتهي:

«الأموال تملأ الجيوب».

«القلوب فارغة».

«يأكلون ويشربون ويسمنون لماذا؟».

«خير كبير ... تزداد الأجسام شحمًا ولحمًا ودود الأرض في الانتظار ... الديدان تنتظر الوليمة القادمة».

***

ترصد في تأنٍ وتريث معالم الحزن المخيم على البلد كلها، فرصة مواتية جيدة، تأتيها الأخبار بكل ما يجري، تدفعهن للحراك، ليس هناك من يراقب حركتهن، يطرقن طرقًا غير معتادة، أصبح الهاتف النقال متاحًا للجميع، حددن المسار وأبناء الليل ينتظرون، عليهن بالذهاب، كلل مسعاهن الأول

والثاني بالنجاح، في الجولة الثالثة كانت مهجة على رأس من ذهبن، كانت ليلة حتى الصباح تمتعت وأمتعت حبيب القلب أبو دراع، فتياتها رقصن وتحول ليل شق الجبل إلى فرح، لكنهم حريصون ألا تنقل الرياح معالم الفرح إلى المحزونين من أهالي البلد، حراسة وحراس لا يكلُّون، عيونهم ساهرة يتناوبون حتى المتعة والسعادة، لكن تركت تلك الليلة جُرحًا غائرًا في صدر مهجة، صدق حدسها فقد لاحظت العناية الفائقة التي يبديها أبو دراع لهند إحدى فتياتها وأحدثهن في الانضمام لسربها، قبيل الفجر استعدت للمضي وتابعاتها، نهضت من الفراش لم تجده في الفراش بجوارها، شيء معتاد، جمعت أشياءها وتسللت على أطراف أصابع قدميها تستدعيهن، في ضوء خافت في أحد الجحور التي صنعوا منها حجرة مؤثثة بكل لوازمها، وجدت أحدث فتياتها بين ذراعي أبو دراع، امتصت ريقها وآلامها وحنقها وصنعت ابتسامة، انتفضت الفتاة، بكل برود طلبت منها أن تسرع فقد أزف موعد الرحيل، عليهن السفر قبل شروق الشمس بساعة على الأقل، أخذ الجميع أهبتهم لتوصيل مهجة وفتياتها والبضاعة التي تم لفها بعناية فائقة، كانت الجمال هي الوسيلة لاختراق الطريق إلى شق الجبل، لكن المعتاد أن لا تصل إلى مقرهم، على الجانب الغربي وعلى الطرف قرب النهائي من جنوب المقابر، منزل شحاته الجمال، يمتلك قطيعًا من الجمال ووفقًا للمواثيق التي اتفق عليها الناظر وأبو دراع قديمًا أن تحملهم ببضائعهم إلى الشط، تغير الحال منذ غزت القوارب ذات المحركات الآلية والمعديات وغيرها، ساروا في طريق متعرج قصير لا يعرفه الكثير وسط شقوق مرعبة، مشاعل متوهجة حتى خرجوا من بوابة أحد الكهوف، وجدوا أنفسهم قريبًا من الشاطئ، أطفئت المشاعل وامتدت يدا صاحب القارب الحديث تسحبهن بتريث وهدوء، طوال الطريق صمدت مهجة ووأدت كل الدموع التي كادت أن تطفر من عينيها، ما أن وطئت قدماها المركب، سالت دموعها غصبًا، غبش الفجر وعتمة الليل لم تنته بعد فحالت بين رؤية دموعها في عيون الأخريات، كيف تعاتبه على فعلته؟ هي تعلم جيدًا كيف تعرفت عليه،

كانت تبيع جسدها كل يوم بل كل ساعة، وهو ساعتها هارب ينتظر الموت كل لحظة، آوته وعاش معها وهو يعرف كل صغيرة وكبيرة، كانت تتمنع عن نادر بخبرتها وحنكتها ليصير دائمًا ولهًا بها، كاذبة حتى في سيل دموعها أمام نادر، لكنها تتكسب من وراء حمايته الكثير ولا يطلب منها أكثر مما تهبه، تقول عنه مهما يفعل فما زالت طيبة القلب تتحكم فيه، لا يجيد فن التعامل مع المرأة، تقسم له بشرفها ونادر لا يعرف أي شرف تقسم به، فأي شرف يبقى للمرأة بعد أن ترمي ورقة التوت الأخيرة من فوق جسدها أمام أكثر من رجل، هل تقسم لأبي دراع عن مدى الألم الذي سببه لها؟ هل تتجرأ وتقسم بشرفها أمامه، لن يصمت ستدوي أصداء ضحكته الأرجاء وسيكون نصيبها صفعات بكل قوته فوق وجهها، نعم هي عاشقة لصفعاته وركلاته، يدمي وجهها وجسدها أحيانًا في لحظة نشوى وعشق أو غضب يعتريه للحظة، تتوسل إليه وتتمسح في أقدامه ولا تجرؤ أن تعاتبه، تعلم بأنه يمكن أن يخونها كل يوم ولكن من خلف ظهرها، أما أمام عينيها ومع فتاة التقطتها من الشارع، لا تساوي بالنسبة لها قلامة ظفر، هل تعاقبها وتلقيها للشارع ثانية لتأكلها كلاب الشوارع، تقرر أن تستبقيها بل في نيتها أن تغدق عليها بمزيد من العناية، هي المعروفة لأسيراتها من الفتيات بسلاطة لسانها وأوامرها ونواهيها وقدراتها التي تتنوع في مجالات متعددة، الجميع يخافونها، تتألق عيناها ببريق مخيف غريب، تتنهد بعمق وتداري مشاعرها الفياضة بالشر، وما تلبث على هذا الحال كثيرًا، تستنشق عبير الفجر من فوق صفحة النهر فتنفرج أساريرها ويبدو أن قريحتها وافتها بفكرة جديدة استهوتها وقرت في صدرها، يتألق وجه مهجة رغم أن النجوم شحيحة الضوء وما زالت عيون الصباح مغلقة.

يأتي الخبر لنادر بما حدث بالأمس، تهتز رأسه فيعرف محدثه بأن خبره قديم وسبق له العلم به، هو جديد لكن ليس هناك ما يرفع عن وجه نادر الهم النائم فوق وجهه وبين مقلتي عينيه، يبحث عن كلمات يشارك بها في الحديث مع الجالسين معه في المندرة الكبيرة أو في الساحة الأمامية للبيت،

يدخل لإحدى الحجرات الداخلية، الناظر مستلقٍ في مخدعه ليس نائمًا فيسند منتصف جسده على حافة السرير، تتقابل عيونهما، شيء يدفعه للخروج لا يستطيع الانتظار كثيرًا، يخرج طه خلفه، يسحبه لمكان قصي في الدوار وبصوت هامس:

- أبو دراع سيأتي ليلة الغد معزيًا؟!

- هذا الإنسان مُحرَّم عليه أن يخطو داخل البيت، إنه قسم الناظر منذ أمد بعيد.

- الناظر طلب منا جميعًا أن نستقبله؟!

- لا أستطيع.

- سيكون أبوك بنفسه على قائمة مستقبليه؟!

- مستحيل.

- لكنه أمرني بذلك؟!

- كيف؟

- أَمَرَ وسأنفذ أمره، سيلبس ملابسه بالكامل وقد أمرت الست نورا أن تجهزها بالكامل، وأرسلت في طلب مسعود المزين ليحلق له ذقنه ويخفف له شاربه كالمعتاد، يا ولدي إنها فرصة سيحاول أن يقف على قدميه وسيحاول أن يبدو قويًّا صلبًا، علينا أن نساعده.

- الأمر متروك لك ... لا تنس أن دكتور إبراهيم.

- اعذرني يا بني فدكتور إبراهيم يبدو أنه نسي كثيرًا من تقاليدنا وأعرافنا، وكأنه غريب عن المكان.

- كيف يدخل أبو دراع منزلنا؟

- لنستقبله في الخارج، ننصب مجلسنا في خارج الدار في الوسعاية أمام

الدوار.

دكتور إبراهيم ولي العهد كما يطلقون عليه، جالس يغلبه الصمت ولا يستطيع أن يكسر حاجز الحزن المرسوم فوق الوجوه، إن تحدث فمن خلال الدِّين، فما زال يحفظ الكثير من آيات القرآن والأحاديث الشريفة، أغلب المقربين منه يعلمون أنه يعاقر الخمر ليلًا ونهارًا، يجاريهم وفق رؤيتهم، ما زال يسكن داخله أن الجميع متخلفون ولم يتغيروا، عيناه ترصد المتغيرات الحادثة والأجواء الجديدة والرياح التي تهب على شق الجبل، أشياء غريبة ومعالم حديثة ومستثمرون قادمون ويتحدثون بلغة الملايين، أثارت تلك الأقاويل انتباهه، لا يستطيع أن يلج تلك الأبواب المثيرة لشهيته، هؤلاء الجهلاء يتحدثون بالملايين، يمتص لعابه مستنكرًا ويصمت، هو قادم ليستقبل العزاء في أخيه، لم يقيموا عزاء، اكتفوا بحلقات الحزن الملتفة حول الناظر في حجرته أو باستقبال القادمين في المندرة الكبيرة وأحيانًا يجلسون خارج الدار فوق الدكك والكراسي المرصوصة، السيدات في داخل الدار حول مخدع أمه التي فقدت النطق، وحديثها الذي لا يتعدى الإشارة، ونظرات عينيها الذاهلة والذاهبة إلى سطح الحجرة، دقات قلبها يمكن أن يسمعها محدثها، مرة واحدة التي استطاع أن يدخل عليها، مال قبَّلها ولم تعرفه إلا بعد أن لمست أناملها وجهه، دارت راحتا يدها تمسح فوق رأسه ووجهه وراحت في بكاء لم يطل وغابت عن الوعي، لم يفكر في الدخول عليها ثانية.

حاول دكتور إبراهيم أن يرتدي جلبابًا فلم يفلح، اكتفى بلبس بدلة خفيفة دون رباط عنق، لم يستغن عن نظارته الشمسية العريضة في تجواله خارج الدار أو نظارته الخاصة بالقراءة.

كعادته دومًا لا يتراجع نادر عن قرار اتخذه، قرر أن يذهب إلى مهجة الليلة، ليعلم كيف استطاعت هي وبناتها أن يأتين دون الرجوع وأخذ الموافقة منه، راح يصفها بأقبح الصفات في الدنيا، يخاف من الغد فقد

يسقط من موقعه، ها هي لا تهتم بإخباره وتأتي وبصحبتها فتياتها، يقضين ليلهن وتبيع وتشتري دون الرجوع إليه، ما زال متحكمًا في أشياء كثيرة، نعم الدائرة اتسعت والغرباء جاءوا للسمرة وللبيع والشراء، يتحكم في العديد ويرجعون إليه في أمور كثيرة، بتلك الفعلة تستطيع مهجة أن تسحب البساط من تحت قدميه، عليه أن يجابهها ولو وصل الأمر سيضربها، اتخذ العديد من القرارات بينه وبين نفسه، بعد صلاة العشاء تسلل نادر بمفرده من الباب الخلفي للمنزل، كان النوبي في انتظاره كما أشار عليه بعيدًا عن المرسى المعتاد، وكان قد استحدث لقارب النوبي الصغير محركًا آليًّا جديدًا، أسرع النوبي يأخذ بيد سيده كما اعتاد أن يلقبه، رغم نسمة الليل فوق صفحة النيل رائقة هادئة لم تتغير ملامح وجهه، سابحًا فيما هو مقدم عليه وكأنه يسترجع الدرس من جديد، ماذا سيفعله؟ عليه أن يلقنها درسًا لن تنساه في حياتها، عليه أن يؤكد لها أن قدراته وسطوته ما زالت، لو وصل الأمر لضربها ليكن، سيمنعها من عبور النهر في أي يوم وإن خالفت أوامره سيكون نصيبها الدفن والمقابر تستوعب الكثير ولا أحد يسأل، سيمنع عنها ما كان يهبها إياه من ممنوعات كانت تتكسب من ورائها الكثير، سيفعل ... توقف حديثه مع كلمات النوبي:

«حمد لله على سلامتك يا سيد الناس».

قفز من القارب إلى الشاطئ بمساعدة النوبي وفي مكان غير مرتاد كثيرًا، توجه مباشرة إليها، عندما يراها يسترد وعيه المفقود ويتغير حاله، مجرد أن تمثلت أمامه واقفة وفاتحة ذراعيها، لهث قلبه وتسارعت ضرباته، ألقى بنفسه في حضنها، استطاع أن يوقف سيل دموعه التي كادت، بكت هي مواسية له، قادته لمكانهما المفضل، تتبعها في استسلام غريب، انتهت كل الأفكار السابقة، صار وديعًا صامتًا ينتظر منها أن تجود عليه، هي امرأة لا تسلبها غرائزها التفكير والتدبير، تقلب الأمور جيدًا قبل أن تدلي برأيها أو تفعل فعلة ربما تندم عليها، تتحاشى التسرع في أي حوار، هذا لا يمنع أنها

تمتلك جراءة منقطعة النظير، لا يستطيع إنسان أيًّا كان أن يقرأ ما يدور في سريرتها، الوحيد الذي أسرها كان أبو دراع، يمكن أن تضحك وهي تخفي شكوكها المعتادة في كل البشر من حولها.

- أنا محتاج إليك ...

ضمته إلى صدرها أكثر وفي همس عاشق قائلة:

- لن أتركك ثانية.

تشعر بلهيب مشاعره، زفراته، جسده يرتعش بين ذراعيها، تشاركه اللحظة للحظة، يعودها تماسكها وقدراتها، تقص عليه كيف ذهبت إلى شق الجبل، يتصنع عدم المعرفة في البداية، تشرح له الظروف القاهرة التي تمر بها، كانت في أمس الحاجة للنقود، تقوم من جواره فيحاول أن يثنيها عن التحرك، تمضي وتذهب مباشرة وتأتي بكيس بلاستيكي أسود وتعطيه له.

- ما هذا؟

- نصيبك وحقك؟

معتاد أن يترك لها حق التصرف في عمليات البيع والشراء الخاصة بهما وأن تحسب نصيبه، ها هي لا تنسى حقه ونصيبه، كأنه يعاتب نفسه على ظلمها، إنها من طينة بشرية مغايرة لكل النساء اللائي يعرفهن، كانت تستطيع أن تلتمس الأعذار في مهارة لا تبارى فيها، كلماتها تخرج معجونة بتوسل ومحبة عجيبين، تبدد شك وضيق نادر، بل إنه عاتب نفسه في ظنه السوء عنها، تخفت حواراتها وكلماتها حتى تصير همسًا، فتخرج كلماتها وكأنها مناجاة، تتبدد سحب التذمر الذي كان، فيبثها حديثه بدوره همسًا وغرامًا، نظراتها الغازية تُشعل نيران غرامه المتقد الصامت ظاهريًّا والمعلن عنه داخليًّا، يشعر بأن حواسها ومشاعرها تناديه، تتفتح مسام جسده وكيانه، فيقترب منها ويضمها، تذهب معه في حلم، تتوهج مشاعره في تراخي ذراعيها، تسحبه لدائرة نفوذها فتتنافر أعضاء جسده، تقبض على جسده

بذراعيها، إنها اليوم تدعوه للولوج إلى حديقتها، موافقة وهائمة باللحظة أكثر منه شوقًا، لا يعبأ وينسى الحزن الجاثم على صدره، يتذوق في شوق وحب من مَوَاطن الهوى، تقصيه في لحظة عنف تتملكه ولا تلبث تغمره بعناية مثالية، وكأنها تعلمه كيف يخط هواه فوق تضاريس جسدها الفائرة، لا يشعر بوقت فيسافر في وله وجنون كم كانت أمانيه بها ...

يردد لنفسه ... حقًّا إنها رائعة.

***

كان الجميع يرفضون استقبال أبي دراع، هم لم يقيموا عزاء، لكن كل الأيام عزاء متصل، كانت أوامر الناظر وعليهم جميعًا تنفيذها، تحامل الناظر بعد أن ارتدى ملابسه كاملة، خرج إلى الساحة الخارجية متحاملًا على عصاه، طه لا يبتعد عنه كثيرًا وكأنه يخاف أن تخونه قدماه فتنزلق، أو تضعف يده في القبض على طرف عصاته، جلس على دكة مفروشة خصيصًا له، لملم أطراف جلبابه، عينا طه لا تفارقه، كل العيون تنظر إليه وتواسيه، أما عينا طه فتراعيه وتخاف عليه، امتلأت الساحة بالمريدين من البلد وقد تلمح بينهم غريبًا، إنها المرة الأولى التي يتلقى أمرًا له من طه، الذي همس له:

«ليس عيبًا أن تستقبل القادمين جالسًا».

اهتزت رأسه بالموافقة على كلماته، انسحب طه بعيدًا بعض الشيء، فمن المستحيل أن يصافح أبا دراع أو أي من رجاله، جلس الشيخ رضوان على نفس الدكة وعلى التالية لها كان دكتور إبراهيم، وبعيدًا بعض الشيء نادر وأكثر من واحد من مريديه يجلس ويهمس في أذنه بكلمات ويحل محله آخر.

تخلى أبو دراع وحوالي خمسة من تابعيه عن أسلحتهم قبيل الدخول للعزاء، جلس واحد منهم على مسافة لا تبعد كثيرًا عن بيت الناظر وقد رص بجواره أسلحتهم وغطاها بملفحة كبيرة خاصة به، كالعادة استقبلوهم

وقوفًا ما عدا الناظر، فقد تصنع همومه بالقيام ولكن أبا دراع أسرع وأقسم عليه أن يظل جالسًا، لكنه لم يجرؤ على الجلوس بجواره، أخذ أبو دراع مجلسه بجوار دكتور إبراهيم، لم يتبادل معهم سوى كلمات العزاء التقليدية، تحرك أبو دراع ناحية نادر وبكلمات قليلة مقتضبة أسر إليه بأنه ترك نصيبه في العمليات التي قامت بها مهجة معها، اهتزت رأس نادر بلا كلمات ولكن عيونه تسللت وتلصصت لترى وقع تلك الحركة في عيون الآخرين، كانت كل العيون مصوبة تجاههما وخاصة دكتور إبراهيم، تعمد أبو دراع تلك الحركة، وهذا مؤكد بنسبة عالية جدًّا، لم يتجاوز جلوسهم ربع ساعة أو أكثر قليلًا، وبعد أن احتسوا قهوتهم استأذنوا ومضوا بكلمات الوداع المعتادة في العزاء عمومًا:

«ربنا يجعلها آخر الآحزان».

يبادر طه من تلقاء نفسه فيطالب الناظر بالراحة والاسترخاء، يرفض أن يمد أحدهم يده إليه ليساعده على النهوض، يتحامل ولا يظهر معاناته ويتوكأ على عصاه ويتحرك، الجميع وقوف إلا طه الذي يتتبع خطاه عن قرب، يستأذنهم داخلًا للبيت وفي إثره طه الصامت، قليل من الجالسين، انقسموا إلى مجموعات تتداول وكأنها تخاف أن تفشي سرًّا، اقترب الدكتور إبراهيم فجلس بجوار الشيخ رضوان، دارت حوارات وكلها تتعلق بالحياة عامة.

حياة متلونة، إنها سنة الحياة وعلينا أن نجاريها، وثنية في عبادتها للمال، وللمال عبيد يقتاتون بجثث الموتى ويشربون ويتلذذون باحتساء دم الفقراء والتعساء، لم يستطع إنسان أن يقص أظافر وأنياب المال، يترحم الشيخ على الأيام السالفة ويتواصلان في نقد الدنيا حولهما، يقص الشيخ على مسمعه بعضًا من مآثر الناظر، وكيف كانت معاناته وسعادته في الحياة، لا يبتعد عن الناس، يفكر الليل والنهار في معاناتهم وظروفهم، لا يترك شيئًا، يتأمل الشيخ وقع الكلمات على الدكتور، يشعر في ثنايا وجهه عدم الرضا ولكنه

يواصل الحكي عن الناظر، فيصفه بالإنسان الوحيد الذي كان حلمه أن ينسج ابتسامة فوق وجه الأرض والبشر، رغم أن الأرض ميتة وفوقها رماد وبقايا البشر والحيوانات وحرائق النباتات الجافة فكان عاشقًا لها، يبتسم إبراهيم وهو يصف ما أصاب البلد من تغيرات، وعلى كل إنسان أن يفكر في ذاته ومستقبله، يشعر الشيخ بمفاهيم غريبة تسكن صدر الدكتور، يحاول أن يداري انفعالاته، فيتحدث عن يونس رحمة الله عليه وكيف شرب أفكار الناظر وكم كانت أحلامه، يتململ الدكتور ويترحم على يونس، فيدور بحديثه لجهة أخرى، وكأن الدكتور مصممٌ ألَّا يخرجه من هذا الحيز من الحديث، فيصف نادر للشيخ بأنه شاب يائس من الحياة ومتهور، تبدو رعونته حتى في كلماته، لغته لغة هوان وضعف وتخاذل وعدم إلمام بكل ما يحدث حوله، يبتلع الرجل الكلمات، ولكن ثقلت على قلبه، ففاض في تريث يصف، كيف كان نادر يتحمل عبء ومشاق الحياة في البلد، كيف نصَّبُوه كبيرًا منذ ما يقرب من عشرين سنة، كيف كان يقف في وجه أبناء الليل ومن حوله من شباب، وكأن الكلمات والصفات لا تلاقي قبولًا في صدر إبراهيم، نصب الدكتور نفسه عالمًا وعارفًا بكل أسرار الدنيا، يعود يلوك سيرة نادر، يتردد الشيخ كثيرًا، يود أن يجابهه، أن يقول له أين أنت مما كان يفعله نادر، يخاف أن يشعل نيران الفتنة بين الأخين، نعم نادر هذه الأيام كل من يراه يشعر بمدى انكساره وعزوفه عن مجاراة الحياة وبصوت يقترب من الهمس يردد الشيخ:

- لكن هذا لا يدعونا أن نبخسه حقه ... . يصمتان.

- ما هي العلاقة بين نادر وأبي دراع؟

أطلق إبراهيم سؤاله، تقابلت عيناه بعيني الشيخ الغائرتين اللتين تشع منهما ملامح الثبات، تمالك الشيخ أعصابه واعتدل في مجلسه فأصبح في مواجهة إبراهيم مباشرة، بلا تردد ولا تكلف راح يتكلم:

- نادر من أهم صفاته أنه يصارح الناظر بكل كبيرة وصغيرة في حياته، حتى

لو ارتكب معصية أو خطا خطوة ولم يستطع أن يقول للناظر كان يتحدث إليَّ ... إنه قلب لا تأكله النار.

- كان سؤالي محددًا يا مولانا!

- لقد أجبتك عليه ...

نفض جلبابه وهم بالمضي قائلًا:

أخوك وعليك أن تسأله ستجد عنده الجواب.

انفضَّ جمع الليلة وكلٌّ ذهب إلى بغيته.

في خطوات متثاقلة وبعد أن أغلق طه الباب الخارجي اقترب من مخدع الناظر، يستأذنه أن يذهب للنوم، رأى في عيني الناظر سؤالًا لم يطرحه، قرأ السؤال فأجاب على الفور:

- هذه الأيام يجب غلق الأبواب.

لم يعتد الناظر غلق باب الديوان الخارجي ليلًا أو نهارًا.

-٨-

الضباب يغمر البلدة

لم تتغير أفكاره، عندما يصف شق الجبل وما فيها من بشر، فكلهم كما يصفهم يعشقون انتهاك الفضيلة ولكن في السر، شهواتهم المكبوتة تدفعهم لكل الأفعال القذرة، لن تتغير رائحة العفن العالق بهم لو سكبوا فوقها ملايين القوارير من العطور، منهم تتسرب القذارة محملة برياح الكذب والنفاق والشر، يتمرد على كل الأوضاع القائمة، يحاول مداراة كلماته هذه الأيام بعض الشيء نظرًا للحزن المسيطر على الجميع، يتحدثون عن الحب رغم أن الحب سلعة غير متداولة في تلك البلدة الملعونة، يحاول ألَّا يبوح بمشاعره ولكن تخرج بعض الكلمات عفوًا، يقول عن كل الأصوات التي تطرق أذنه بأنه يحسها كنعيب بوم، فالبشر من حوله مجرد دمى حية، بقايا بشر ويحملون في أفعالهم بعض أحاسيس البشر، نظراته إليهم تحمل تأنيبًا على كينونتهم!!! في صمته استبداد وتعالٍ وترفع، يفضل عدم مجاراتهم في فعل أو حديث، أن يصنع ساترًا يحجبهم عنه فهو يفضل ذلك، لم يهتم بنظرات الريبة والشك التي تتألق في عيونهم وبخاصة المقربون إليه من أهله، نعم يشرب الخمر وما العيب في ذلك كلهم يدخنون الحشيش ويمضغون ويستحلبون الأفيون وكلاهما محرم، يفصحون بأفعالهم ولا يكترثون وينتقدون الآخرين، ليس عليه أن يجاريهم أو يهتم لأمرهم، ردود أفعالهم متباينة من ناحيته ويشعر بذلك فلا يلقي لهم بالًا، نظراته تشع بتوهج غريب وكأنه حيوان مفترس يجابه فريسته، احمرار مقلتي عينيه من تأثير الخمر أحيانًا كثيرة مخيفًا.

نهيق الحمير المتواصل يقطع نومه، زقزقة عصافير الصبح تؤذي أذنيه،

تداخل أصوات الصبية وصراخهم ولعبهم يذهب عنه الراحة، رغم ما يلقيه على أذنيه من وسائد لا فائدة،

عدد غير قليل من أهل البلدة يصنعون تمثالًا للجسارة لأبي دراع، يخافونه ويهابونه ومن خلفه رجاله، يصورونه في حكاياتهم كأخطبوط له أكثر من ذراع، صورة أفعى خرافية لها أكثر من رأس إذا قطعت إحداها نمت أخرى بسرعة غريبة، يخافون مواجهته ولا يملكون جرأة الحديث إليه، نعم هو مختفٍ غالبًا عن الأنظار لا يظهر إلا قليلًا، رجاله يمثلونه، يقيمون لهم حسابًا، يجيش في قلوبهم خوف ويدارونه، كانوا يخفون أنفسهم غالبًا في عباءة الناظر، يسترقون السمع والنظر من بعيد.

تصل كثير من الحكايات للدكتور، يشيدون بالدور الذي قام به الناظر قديمًا، أغلبهم لا ينسون دور نادر في حماية البلدة من المطاريد حتى في المولد، يتحدثون عن مبالغ ضخمة يتقاضاها نادر وأصحابه حتى من الغرباء الذين يتمنون أن يستثمروا أراضي الجبل في مشروعاتهم، يأتون إليه ويتوددون ويدفعون عربونًا لصداقته مبالغ قد تصل لملايين، يستنكر الدكتور تلك الأحاديث ويعتبرها ضربًا من ضروب الخيال ... ملايين!!! لمجرد صداقة لماذا؟ تتردد داخله أسئلة مريرة:

«كم راتب الأستاذ الجامعي؟ حتى لو كان يبيع الامتحانات لطلابه، لا تصل لما يقولونه».

يقولون إن العامل البسيط الذي لم يحصل على أي شهادة دراسية لو عمل بالمحاجر يوميته قد تصل لمائتي جنيه، من يتولى الجلوس والعمل على المنشار القاطع راتبه الشهري لا يقل عن عشرة آلاف جنيه، من يقومون بشحن الناقلات أو تفريغ الحمولات المختلفة يكسبون كثيرًا، كم يكسبون من استغلال تلك المحاجر، هل حقيقة أن نادر يشارك بنسبة؟ قالوا إن نسبته مقابل تأمين المكان واستجلاب العمال للمحجر، يدقق ويرتدي نظارته ويفتح أوراقًا ويخط خطوطًا، حسابات ومكاسب رهيبة،

كمٌّ وحشدٌ من الأفكار المختلطة المتضاربة والمتباينة تمثل شبكة عنكبوتية فوق خيالاته، فلا يستطيع منه الفكاك. أنا لا يكفيني راتب الجامعة الذي اتقاضاه، كنت أسلك طرقًا ملتوية حتى أكفل لنفسي حياة محترمة بين الدهماء والغوغاء، أخيرًا حدث ما حدث، أنا أكثرهم موهبة وذكاء، لماذا لا أتقلد منصبًا يتناسب وقدراتي؟ ولماذا لا أحوز مكاسب تكفيني وتكفل لي الحياة الحرة الكريمة؟ أصحاب الأموال يشترون كل شيء هذه الأيام، من يمتلكون يحظون بالسلطة والنفوذ. كم كنت بليدًا جاهلًا بأمور كثيرة، كلهم يبرمجون الدنيا والحياة حولهم وفق رؤاهم الشخصية المجردة، يرفعونها ويصورونها وكأنها قضية عامة. يقلب أمورًا كثيرة، يشعر بالمرارة في حلقه، يبحث عن بقايا زجاجة الخمر لا يجدها، يقلب الأشياء والموجودات بالحجرة رأسًا على عقب، لا أثر لها، يحاول أن يتذكر ربما أتى عليها ونسي، هو متأكد بنسبة تقترب من المائة بالمائة بأن الزجاجة لم تكن فارغة بل كان بها ما يزيد على النصف، ماذا يفعل في تلك الليلة الغبراء؟ كيف يستطيع الصمود حتى الصباح؟ لا يغلف أي أفعال عنده بالصبر، إلى من يذهب ليوقظه من النوم ويسأله؟ ماذا يقول له؟ في الغالب ستكون واحدة من أخواته، الوحيدة التي تشرف على تنظيف الحجرات هي نورا، لا يبالي لو سألها، لكن كيف يوقظها تلك الساعة، جميعهن بجوار مخدع أمه ينمن، نورا هي الوحيدة التي يمكن أن ... ، يفكر ولكن كيف يذهب إليها ويسألها؟ نورا مضرب المثل في الحنان، جريئة وجرأتها تتسم بالحياء، لها وضع خاص حتى في قلب أبيها، تكسر كل قوانين الحريم الصارمة، جامعية ولم تعرف الدلع ولا حركات الفتيات الصغيرات، لا تنعزل عن الدنيا، في السابق وقبل هذه الفاجعة التي حلت بهم كانت تقطع حبال الصمت، ضحكاتها وأقاصيصها المرحة تبعث السعادة في قلب الناظر، لا تجيد التلون فكلماتها تتفق وخلجات قلبها، من يسمعها وهي تتحدث كلماتها ومفرداتها هي نفس النبع الذي يستقي منه يونس أحاديثه، أي وكأنها تتحدث بلسانه، اليوم من يراها بشفتيها اليابستين ووجهها الشاحب وعينيها شبه الغائرتين لا يمكن

أن يصدق بأنها نورا مصباح سعادة تلك الأسرة، تقول فات الأوان، تأسرها الهموم، لا طريق أمامها ولا مكان لتخفي فيه تلك الآلام المبرحة التي تقبض قلبها وصدرها.

في قمة ثائرته، ينفرج الباب بعد دقات خفيفة مؤكد لم يسمعها، لم تعتد يومًا أن تدخل أي حجرة دون استئذان:

- لماذا لم تدقي عليَّ الباب؟

- ورحمة الغالي فعلت.

يلفهما الصمت، تتحرك ناحيته وفي يدها زجاجة الخمر وهي تمد يدها بها ...

- اتفضل ... همت بالمضي استوقفها سؤاله:

- من أخذها من هنا؟

- أنا.

- لماذا؟

- حضرت الست أم محسن وابنتها وقاموا بالتنظيف، توقعت ربما تكون تركت بعض الأشياء ملقاه كعادتك ووجدت تلك الزجاجة فأخذتها على أن أعيدها لمكانها ثانية ونسيت، وها هي.

تهم بالخروج، يحاول أن يجد حديثًا ... همهم:

- الدنيا تغيرت يا نورا.

- سبحان الله.

- حتى القلوب.

- قالوا سموه قلبًا لكثرة تقلبه من فعل لفعل ومن فكر لفكر.

يحاول أن يرسم ابتسامة وهو يقول لها:

- أجدتِ وأحسنتِ.

تتجه ناحية الباب للخروج وهي تسأله إنها رهن إشارته في أي طلب منها، يُسلِّك منابع صوته بنحنحة فتنتظر ما يجود به من حديث فتتوقف عن الحركة، وكأنه يود أن يفتح حوارًا معها ولكن لا يجد الكلمات فيقول:

- تخيلي ... لمحت عيناي من يومين سابقين، مجموعة من الأطفال الصغار جالسين فيما يشبه دائرة في أحد أركان شارع شبه مظلم، يدخنون سيجارة ولكنها ليست سيجارة عادية، إنها أعيد لفها من جديد، رائحة الحشيش ظاهرة جدًّا، الغريبة إنهم يتناوبون تدخينها ولا يسعلون، يخرجون الدخان من أفواههم وأنوفهم في تلذذ واضح ويضحكون، نظرت إليهم فلا يهتمون مطلقًا ويواصلون، سحبت نفسي ومضيت.

- تغيرت أشياء كثيرة وخاصة في سلوكيات البشر من حولنا.

- لم يولوني اهتماما يُذكر.

- لو كان نادر لفروا هاربين.

تدور على عقبيها وتتجه صوب الباب، يعرف بأنها غير راغبة في مزيد من الحديث، أما كلمتها الأخيرة فقد أثارته ودفعت إلى رأسه مزيدًا من التساؤلات، «لو كان نادر لفروا هاربين»، إلى أي شيء تشير أو تتمنى أن تشير، أصبح نادر هو الأساس والآخرين مجرد خيالات، يرشف قليلًا من الخمر، يلقي بجسده على مقعد كبير مريح ولكن لا يشعر بالراحة، كان لا يصدق الأحاديث المتداولة عن شخصية نادر، ملامح شخصيته داخل وخارج المنزل، هل يصمت وعلى المركب أن تسير كما شاء لها، هل يدير ظهره لكل تلك الأحداث والأقاويل، لكنهم يقولون إنه يكسب الملايين، لي الحق في تلك الملايين، هل يجابه نادر؟ إنه الأكبر وبكل المقاييس لا يستطيع نادر أن يعصي له أمرًا، يحاول أن يجد الثغرة التي من خلالها ينفذ للحديث، معروف عن نادر عناده

وصلابته وعدم تنازله في أي موقف يكون، جرأته يتحاكون بها، لكن أنا الأكبر وأُملي أنا كلَّ القرارات، وأنا لي حق في كل أملاك أبي مثله تمامًا، أنا الأكبر، وكأنه تذكر شيئًا غائبًا عن أفكاره، فالناظر ما زال على قيد الحياة، هل يعود أدراجه للقاهرة ولعمله وينسى؟ هل يكتفي ببضعة آلاف من الجنيهات شهريًّا ويصمت؟ وهنا يتكسب أخوه الملايين، ليذهب عمله وراتبه الشهري إلى الجحيم، هنا تبدو طرق الثروة أسرع وأسهل، أفكار وآمال كلها تدور في مجال الحصول على المال، حتى المناصب اليوم يمكن شراؤها بالمال، يقلب في شتى المجالات نعم من يملك المال يركب ما يريد، نعم المال رهن يديه وكل المطلوب منه أن يستعيد مكانته ليصير هو رقم واحد بالأسرة، نادر حريص دائمًا أن لا يتقدمه بخطوة واحدة حتى في الطريق، أن لا يسبق حديثه حديث الأكبر، ألَّا تتناقض أفكاره وأفكار أخيه الأكبر ولو أمام الناس فيعتبر أن هذا عيبًا يحسبونه عليه، يضع في حسبانه دائمًا أن هذا حقه والواجب يحتم ذلك، يقلب الدكتور الأمور كلها في رأسه يجد أنه من الأفضل الصمود والتريث، عليه أن يحول عمله الجامعي لتلك المدينة، فعلى الضفة الأخرى للنهر المدينة الكبيرة وجامعتها بها مختلف التخصصات والمجالات، يأتي إلى هنا ويراعي مصالحه وأملاكه ربما تنهب وهو بعيد، إنه يسمع أن أسعار الأراضي ستصل لأرقام فلكية خاصة بعد انتهاء تشييد الكوبري، ستزحف المدينة من الشاطئ الغربي للشرقي بكل ما فيها، خاصة أن أغلب الأراضي التي يمتلكون أغلبها كلها ترى النيل، بوادر كثيرة ظاهرة وأحاديث متداولة بين الأهالي، لكن كيف يواصل الحياة بين هؤلاء؟ ما زال يعشش داخله التفوق والرقي الفكري عن سائر البشر، عندما يجلس بينهم فيأخذون رأيه في أشياء تافهة، كيف يتحمل هذا الهراء والجهل؟ يشرد بفكره، منذ طفولته يسعى أن يكسب المزيد والمزيد، كانت أحلامه بالثراء معلقة، ثم استهوته فكرة أن يكون كبيرًا من خلال ثقافته وفكره، يتذكر تفانيه وعشقه الذي كان للقراءة والكتابة، وجد الجميع يحولون دفة أفكارهم وسعيهم للثراء، يقولون بملء فيهم:

«إن شراء الكتب وقراءتها نوع من الرفاهية».

ملعون أبو الكتب والثقافة والمثقفين، الناس منهكة تحت الظروف الحياتية القاسية، مفردات اللغة تاهت، ويقول المثقف الكبير عندما استضافوه في ندوة ثقافية بالجامعة، بعد أن طرح عليه طالب متمرد من إياهم:

«هل تكسب من وراء بيع كتبك؟».

المثقف الكبير أحد رجال السلطة، أي سلطة تكون وفي أي زمان لا يهم أن يجاريها فكريًّا، يقلب دفة أيدلوجيته الفكرية والثقافية وفق رؤاهم، قلمه رهن الإشارة، يستضيفونه فيبدع ويعلي من شأن السلطة الحالية ورجالها، يحوز الجوائز الخاصة بالدولة ويسافر ممثلًا للدولة وناسها، رغم كتبه التي لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة وتدور في فلك واحد، بلغة غريبة وكأنها لا تنتمي للعربية حتى أساتذة الجامعة منه يتقربون ويطرحون كتبه للنقاش والترجمة ودراسات للحصول على الدرجات العلمية، يقول بلا تردد:

«ليس عيبًا أن تكون مثقفًا ثوريًّا، لك مشاريعك الخاصة التي تدر عليك الربح والثروة».

استغل اسمه ومناصبه التي تقلدها فجمع من ورائها الكثير، يصيبه الصداع من تردِّيه في الأفكار والجنوح بمركبه في اتجاه واحد، يقلب في كتاب بجواره.

كثيرًا ما يحجب الشيطان اختراق أشعة الخير لجسد الإنسان، رغم سطوع الشمس تغرق قلوب البشر في الظلام، لقد تجسد الشيطان كيانًا ماديًّا ومعنويًّا، وقف أمام البشر، تجسد في لباس خير، تحدث عن عدل، أشاد بالأفعال الطيبة، تمايلت رءوسهم إعجابًا واستحسانًا، غضوا بصرهم عن أسنانه الظاهرة الجلية التي يقطر منها الدم، لم ينكروه بل فاضوا وهتفوا له، كادوا يسجدون في حضرته.

ألقى بالكتاب جانبًا وحاول أن ينام بعد أن ثقل جفناه.

***

بعد الغذاء يتجمع كل من إبراهيم ونادر في الصالة المؤدية لحجرة الأم، يجلسان وبعد أن ألقى نادر بتعليماته بتجهيز كوبين من الشاي، واحد خاص به وهو كالمعتاد أسود ثقيل بقليل من السكر أما الخاص بالدكتور فخفيف وسكره خارجًا، يدور حوار تكرر من قبل في سبيل السفر بالناظر إلى القاهرة لعرضه على طبيب خاص من الأساتذة المشهورين، الدكتور يشير بأنه كرر هذا المطلب كثيرًا ولكن الأب رفض حتى مجرد ذكر السفر أو الطبيب، يتداولون أحاديث من موضوعات شتى، ولكن دائمًا الحديث الغالب عن الناظر وكيف عاش وكيف تسلق أفئدة البشر، تستأذنهما نورا قادمة بصينية الشاي، يطالبها الدكتور بالجلوس، ويواصلان حديثهما الذي انقطع، فنادر ما زال يثير حماسه مجد أبيه السالف وقدراته وتربعه في القلوب، فيصفه بالأسطورة التي لا تتكرر ولا يجود الزمان بمثلها، الدكتور يزم شفتيه ولا يستطيع أن يقول العكس، لكن يتسلل بكلمات يحاول أن يضيف عليها مصطلحات علمية وفكرية، فيصف بأن الحديث عن الماضي هو حماس زائف، وأن صناعة التاريخ تبدأ من بين أصابع البشر ومع ما يتوافق ومصالحهم وآفاق خيالاتهم، يحاول أن يضرب أمثلة لنادر من تاريخ الإسلام خاصة، فهناك تاريخ كتَبَه الأمويون وآخر كتبه العباسيون وكلٌّ منهما مغاير للآخر، يسوق أدلة وبراهين، نادر يستوعب كل كلماته، ولكن يستغرب مشاعر أخيه بالنسبة لأبيه أو ربما يداخله الشك وربما أخوه لا يقصد ما وطن داخله، كيف يستجلي هذا الأمر؟ هل كلماته محاولة أن تقلل من شأن الرجل أم ماذا؟ فيسأل:

- هل تظن أن أباك أفل نجمه؟

- تظهر النجوم في الظلام.

ويصمت بعد تلك الجملة القصيرة، تتقابل عيونهم جميعًا، وكأنها تعيد طرح نفس السؤال فيكمل إبراهيم:

بعد أن عمت الكهرباء ودخلت كل البيوت، بل إن الكثير من البيوت أصبح أكثر في استخداماته للأدوات الكهربائية المتعددة من بيوت المدينة نفسها، ارتفاع الدخول، كل العيون لا تنتظر المساء لتتأمل القمر والنجوم، الناس نسيت أن هناك قمرًا أو نجومًا تسطع في المساء، انتشت القلوب والعقول بالأموال وبريقها فسُحبت بدورها العيون والأبصار... مطلوب أن نفيق وإلا سيتركنا قطار الحياة فوق رصيف الزمن الماضي.

يتحدث عن كم وتعداد العاملين بالمدافن اليوم، من بناء وتجهيز المقابر يمكن أن يكون عددهم من أبناء البلد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، ذاكرته لم تخنه فيصف أشياء ويستعرض ما كان قديمًا يفعلون، نعم هو أكبر سنًّا وحضر الكثير من أيام البؤس والشقاء التي كانت تحط برحالها فوق حياة كل أناس البلد، فكأنه يطرح سؤالًا ولا ينتظر إجابة فيجيب هو:

اليوم أو بالأمس علمت وعرفت أن أبناء بلدنا عزفوا عن أعمال جدودهم، أليس كذلك؟ إننا نكري عمالًا من المدينة والقرى التي على الضفة الثانية للنهر، حتى عمال البناء الذين يبنون المقابر نؤجرهم ونكريهم باليوم، نسي أبناء بلدنا صناعة القمائن من الطوب اللبن أو صناعة الطوب من الطين المعجون بتبن القمح أو تبن البرسيم (الربة).

فما زالت ذاكرته تعج بذكريات الطفولة، يتذكر حلقات الذكر وحفظه للكثير من الأناشيد والتواشيح الدينية، يتذكر حكايات العمة وهيبة رحمها الله وكل الأقاصيص وحكايات أولياء الله الصالحين.

يتكلم وهو يرشف الشاي بلا صوت، لكن نادر وكأنه متعمد أن يشرب ولكن يصدر صوتًا يقول نادر:

- لكن ما زلنا نركب ...

لم يمهله أن يستكمل جملته:

- نركب مركبًا شراعيًّا متهالكًا حتى ساري شراعه مكسور ودفته في يد لا تعرف عن البحر شيئًا، فمن حق الرياح أن تتلاعب به وتدفعه حيث تشاء.

لا تتحدث نورا ولكنها تستمع للحوار الدائر ولا تشارك بكلمة، تكتفي بأن تختلس النظرات بين الحين والحين لوجهي أخويها فتقرأ في انفعالاتهما أشياء غريبة.

يستجمع نادر أفكاره وينتهي من شرب الشاي وهو يقول:

- حقيقة ... أنت دكتور ... تقلب الأمور على كافة أوجهها، لكن بأمانة أنا لا أعرف أين تذهب بأفكارك؟

- في الواقع.

تهتز رأس نادر ويقطع الحديث:

- الواقع والحاضر مر مرارة الحنظل.

بلا تردد يجيبه إبراهيم:

- في هذا الزمان وتلك الأيام عليك أن تتاجر وتكسب وتربح ... بعد صمت قليل ... تبيع المر وتربح وتكسب من ورائه.

لا يهتم نادر بالحديث كثيرًا فيعتبره مجرد اجترار لذكريات، يعلم بأن أخاه صاحب عاطفة هوجاء متقلبة، يرجعها لاعتداده الدائم بنفسه وأسفاره المتعددة، فهو لا يعرف المزاح ويحاول دائمًا الابتعاد عن مواطن ضعفه المتعددة في كثير من الموضوعات وخاصة التي يتداولونها في بلدهم، هو يبحث عن مجد وأن يركب رأس الناس بدرجته العلمية وآفاق فكره، لكن عواطفه غريبة ومشبعة بمفاهيم مرعبة، فعندما يصف الحب وأنه سبب مباشر للشقاء والبؤس وما هو إلا مجرد لذة عابرة يفتقدها الإنسان تنبعث من شفتيه وعيون كاذبة مدعية، يسترعي انتباه نادر ونورا معًا أحاديثه عن

الثراء وأهميته وخاصة في الزمان الحالي، يشير بصورة استفزازية لحسابات نادر ومكاسبه ولكن بطرف خفي يتعمد فيه استظهار مباركته في أفعاله، يتحدث بوعي وفكر ناضج ويحاول أن يصيب الهدف بدقة بالغة، يغلف الحديث بأن المستقبل والغد مقاييسه مادية محضة، من يمتلك المال هو السَّيِّد، ينوه في استعلاء عن خبراته وقدراته ومعارفه في مختلف مجالات الحياة، نادر يستوعب الكلمات جيدًا ويقلبها في رأسه، وبعد صمت لم يدم كثيرًا يطرح سؤاله:

- ما مدى علاقتك بأبي دراع؟

مفاجأة غير متوقعة، نورا تنظر لوجهيهما، فإبراهيم يطرح سؤاله وهو يولي وجهه لناحية مغايرة، ونادر بدت معالم الضيق فوق وجهه وحاول أن يبدو طبيعيًّا وهو يجيب

- أنا ليست لي أدنى علاقة به.

- لكن مال عليك وهمس بكلمات؟!

ليس نادر بالفتى اليافع الصغير، مشهود له بالذكاء:

- قال لي ... أنت البركة ... وأنت مطرح أبيك ... صمت قليلًا وكأنه ليرى وقع الكلمة على وجه إبراهيم وأكمل:

قلت له: إن هناك من هو أكبر مني وهو الأحق:

- لكنه لم يتحدث معي.

أشار نادر ولمح للدكتور بأنه يعرف الاتفاق القديم الذي كان بين الناظر وأبي دراع، الظروف التي جعلت الناظر يمد يده لأبي دراع وراح يصف أشياء جميعهم يعرفونها، في كلمات قليلة ومجرد أن أنهى نادر كلامه، وقفت نورا وهي تسحب صينية الشاي وهي تقول إن الناظر قال ليونس:

- إنه أعطى لأبي دراع مهلة ليبحث عن مكان بعيد عن بلدنا.

لم ينكر نادر الواقعة فقد أكدها له طه، وأن طه كان بصحبة الناظر يوم ذهابه إليه، في كلمات متوسلة وعيون امتلأت بالدموع ولكن لم تنساب على وجنتيها، تماسكت نورا وهي تطالبهما بألَّا يفتحَا تلك الحكاية على مسامع أبيهم، فكثيرًا ما يحسب الرجل أن البلوى التي ابتلاه الله بها فيما افتقده يرجع كونه مد يده واتفق مع رجل من مطاريد الجبل، تتركهما وتمضي.

معاناة مريرة تشعربها نورا، هل تبتعد؟ وكما يقولون تجعل أذنيها واحدة من طين والثانية من عجين، لا تشارك في حديث حتى وإن دُعيت له، تتأمل الحوارات السابقة وتسترجعها وهي جالسة بمفردها، وتقول لنفسها:

«لا أعرف السبب في أنني أشبِّه أخي إبراهيم بالقط الذي يهرب من الفأر ويحاول أن يجابه الكلب».

فتدور كلماته غير المباشرة وهو يلمح بأشياء كثيرة ولا يفصح عنها علانية وتتساءل هل أصبح إبراهيم أسير أطماع معينة؟ وما يريده وإلى أين يسير؟

عندما تتكرر مقابلتها له، غالبًا هو من يدعوها للجلوس معه، يحاول أن يسحبها لأفكاره وأمانيه غير المعلنة صراحة، ينظر إليها متفحصًا وأمام صمتها شبه الدائم معه، تكون نهاية حواره معها وهو ينظر إليها متفحصًا ومعاتبًا، عدم استجابتها لكثير من أفكاره يلعنها في سريرته ولكن في نظراته تقليل من شأنها وفكرها، ما يلبث إلا ويتركها ولا ينتهي حديثهما.

تتوجس الشر ولكن لا تهتم كثيرًا، الفاجعة التي تعيشها في فقدِ يونس لا تجعلها تهتم بشيء في الدنيا، لكن أفعال وكلمات إبراهيم فيها نفور وتمرد على وضع قائم، تشعر وكأنها عصفور معلق في شبكة صياد ولا تدرك سبيلًا للفرار والهروب، وكأن الصياد نصب شبكته ونسيها ونسي الصيد داخلها، تستسلم!! وإن استسلمت تقف في أي جانب؟ فيبدو أن أخويها لن يتفقَا والبوادر ظاهرة جلية من الآن، إبراهيم غير واضح وكلماته ومطالبه غامضة، تغمض عينيها وتغلق أذنيها وتحاول أن تتصنع الغباء وتتجاوز عباراته،

وكأنها تستدعي يونس وتقص عليه وتسأله كما اعتادت:

هل يتربص الأهل يومًا ببعضهم؟ هل يمكن أن يتقاتلوا؟ أي دمار إنساني بشع يمكن أن أتخيله!!!!

يشعر إبراهيم باستياء ووحدة وعزلة وبعد جرعات قليلة من الخمر الخاصة التي يأتي بها من المدينة تنطلق أمانيه:

«لا تنخدع ببساطتهم المقنعة، انطلق لتحقيق آمالك، كثير من المخاوف التي تسيطر عليك كاذبة ... لا تتردد ... انطلق ...».

***

أخيرًا يرتدي الدكتور إبراهيم الجلباب مثل أهاليهم جميعًا، فاليوم انتقلت أم نمر إلى رحمة الله، أمام بيتها الكائن قريبًا من النهر أمر الناظر بإقامة سرادق للعزاء، كعادته لا تفوته تلك الأشياء، صمم أن يجلس بنفسه في العزاء، ما أن ينتهي المقرئ من قراءة ما تيسر، في تلك الاستراحة ترتفع عقيرة نمر بالصراخ، لا يستطيع البهلول السيطرة عليه، يقترب منه نادرو بكل هدوء تمتد يده فيسحبه للخارج بعيدًا عن السرادق، يشير طه بطرف عينيه للناظر أن يقوم من العزاء ويكفيه وجود ولديه، فالدكتور وهي المرة الأولى يلبس الجلباب ويستقبل العزاء بجوار أخيه، لم يصدق أغلب من جاءوا للعزاء أن الدكتور إبراهيم يجلس مستقبلًا للعزاء ويجلس بجوار البهلول، يمضي الناظر بصحبة طه وبإشارة وكأنه متفق عليها ينتظر الشيخ رضوان لنهاية الليلة، يحاول الشيخ أن يقطع صمت الجالسين، ينام نمر بين ذراعي البهلول وفي صدره، يفترش البهلول الأرض المغطاة بالسجاجيد ويأخذ ولده بين ذراعيه، نمر كطفل يغفو، فينظر الشيخ إليهما ويتحدث عن حياتهما وأنهما وأمثالهما مرفوع عنهما القلم والحساب، وينهل من أحاديث وروايات أغلبها تعتبر من الأساطير المرددة عن الواصلين والسالكين ومن يلتمسون عندهم رفع الكروب التي تحل بهم، رغم أن أغلبهم ... يبتسم ابتسامة ذات

مغزى ... تعني كلمته التي لم يتفوه بها بأنهم مصابون بالبله وأنهم للجنون أقرب، أغلبهم يشيحون بوجوههم بعيدًا حتى لا تتقابل العيون فمنهم منكر وآخر مؤمن، أغلب زملاء وأصدقاء يونس تربطهم بنمر أيضًا علاقة طيبة، فكثيرًا ما كان نمر رفيق سهراتهم وحبيب فقيدهم، تهامسوا فيما بينهم ولم يصدقوا أن الدكتور يجلس طوال الليل بينهم، رغم أن البلد اليوم بها الكثير من المتعلمين والحاصلين على درجات علمية توازي درجة الدكتور في مختلف التخصصات، يتربع الشيخ ويواصل سرد القصص والحكايات عن أولياء الله الصالحين، يراعي الشباب كيفية استقبال القصص المردد فوق وجه الدكتور، عيونهم لا تفارقه ودلائل إعجاب وتيه بكلمات الشيخ ظاهرة جلية فوق وجه الدكتور فتهتز رأسه ويسبل جفنيه بين الحين والآخر، كانت هناك إشاعات ربما حقيقة يرددها كثيرون ولكن من خلف عيون وأسماع المقربين كثيرًا لبيت الناظر بأن الدكتور يَسَاري، هذه الكلمة كانت تعني للكثيرين الكفر والخروج عن الملة، تطور الأمر أخيرًا فقالوا عنه ليبراليًّا وهي تحمل نفس المعنى حتى للكثير من المتعلمين أيضًا، أحاديث كثيرة والشباب يتوقون أن يتقربون منه، مجرد أن يتحدث إليهم هذا المسافر دائمًا والمهاجر إلى بلاد حفظوا من السابقين بأنها «بلاد الجن والملائكة»، كمٌّ في جعبته من ثقافات متنوعة، نظرات تحمل كل معاني الدهشة والإعجاب رغم كل ما يثار عنه من أقاويل.

يقول الشيخ بلا تردد وبقوة وثبات داعيًا:

«اللهم اجعلنا من واردي وساكني جنتك».

يصول ويجول متحدثًا عن الجنة، ففي الجنة الأشجار من ذهب وفضة ولؤلؤ وزبرجد، من شواشي الأشجار تتألق الثمار، لا يتحمل ساكن الجنة عبء الحركة من مكانه، إشارة من إصبعه وتأتيه الثمار التي يتمناها طوعًا، يخوض في وصف الحور العين والغلمان، وكم وكم ... يتململ الشباب الجالسون، يبدو استنكار واضح فوق وجوههم، يتحلل أحدهم من خرسه

ولا إراديًّا:

- من وصف الجنة بذلك؟

وبسرعة عالجه الشيخ رضوان:

- في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، على كل إنسان أن يتخيلها كما شاء، أنتم عقول غضة لا تعرف عن الدينا شيئًا وتخوضون وتتكلمون بلا علم.

يحاول الدكتور امتصاص حدة الحديث الدائر قائلًا:

- يا شيخنا لا أحد ينكر فضلك وفضل الأزهر في علوم الدنيا والدِّين، وهم من حقهم أن يحاجوك ويتعلموا منك وكلنا نتعلم منك.

يشعر الشيخ بالزهو وهو أيضًا لم ينكر على الشباب حقهم في الحديث، يستطرد الشيخ قائلًا:

- إنهم لا يفقهون شيئًا يا دكتور، جَهَلَة، الوحيد الذي كان يعي ويفهم ما يقول يونس رحمة الله عليه وكلهم كانوا يتوارون في ظلاله ... يبتسم إبراهيم:

- وهل يواري الظل إنسيًّا يا مولانا؟

يقيمون الدكتور من خلال الحوار الدائر، لا يجدونه صاحب الوجه العابس والنظرات التي تقطر استعلاء وكبرًا، يرسم ابتسامة تشع الدفء في محيط وجودهم، يصغون باهتمام فيقول:

- الإنسان ابن الطبيعة، الطبيعة مجنونة متقلبة، لا تسير على نهج واحد ولا وتيرة واحدة، فكيف مطالب البشر وخاصة الشباب رمز الثورة وشعلة الغد أن يظلوا على حالة واحدة، على فكرة ثابتة يطلقها الجدود والآباء ... التغيير قادم ولا مفر.

يدغدغ بأحاديثه قلوبهم المفعمة بالأمل، تبزغ معاني وأطروحات تنبت

داخلهم ثمارًا، ينصتون وهو يقول:

«علينا أن نفض اشتباكنا مع أنفسنا ونحدد مساراتنا ونفك قيود عقولنا المغيبة بالخرافات ... فكل الأشياء والأفعال السيئة نبتت من خلال حدائق الفراغ».

ذهول ودهشة تبدو فوق وجوههم، هو عارف بطبيعتهم، فكونهم شبابًا يميلون للثورة وبمعنى أدق يميلون إلى كل ما يشذ عن مألوفٍ اعتادوه وتربَّوا عليه.

المعتاد والمألوف أن كل وجبات الطعام لا تخرج من بيت صاحب المأتم، وفد شديد ابن الشيخ رضوان ومن خلفه أكثر من خمس صواني ضخمة بالعشاء، ومن بعده جاءت أكثر من صينية ضخمة، طعام يكفي الحضور ويزيد، نُصبت الطبالي أو وضعت الصواني على الأرض، والْتفَّ كلُّ الباقين من المعزيين حول الطعام، لم يتوقع أحد أن يأتي للعزاء في تلك الساعة إنسان، ألقى أبو دراع ومن خلفه ما يزيد عن عشرة من الأتباع بالتحية، في ذهول ودهشة طفحت فوق وجوه الجميع، استردَّ الشيخ رضوان رباطة جأشه بعد أن توقفت لقمته في حلقه قائلًا:

- وعليكم السلام ورحمة الله ... لا سلام على طعام ... هيا عليكم أن تكسروا الزاد، جلس أبو دراع بجوار الشيخ وبين كلٍّ من نادر وإبراهيم وتناثر أتباعه على باقي الصواني والطبالي، لقيمات وأنهى أبو دراع طعامه، حامدًا الله وشاكرًا على النعمة، تلقى البهلول عزاء أبي دراع ورجاله، نمر ذهب في الأكل ونسي كل ما يدور حوله، مجرد أن سنحت فرصة استأذن الشباب ومعهم شديد ابن الشيخ من المأتم، طلب منهم الدكتور أن يأتوه في أي وقت يريدون، أعداد قليلة باقية، بين رشفات الشاي يتواصل حديث وكأنه من جانب واحد فيقول أبو دراع إنه قرر منذ فترة أن يلجأ للدكتور شاكيًا الناظر، فهو يعلم بمكانة الدكتور ابنه البكري والأولى بمكانته من بعده أطال الله عمره، هو لا ينكر محبته وإعزازه لنادر وتقديره، لكن في وجود الدكتور

يكون نادر من بعده بطبيعة الحال وطبقًا للمعمول به بين أبناء الأصول، يتوجه إليه نادر بالشكر، تهتز رأس الدكتور موافقًا وهو يعطي له وعدًا بأن كل الأمور سيدرسها، ويقسم أبو دراع بأنه رهن إشارة الدكتور في أي وقت يشاء وفي أي مكان يريد، بين ثنايا كلامه يحاول أن يلمح ويشير للمكاسب التي يحظى بها نادر وأتباعه من خلف عيون الناظر، وليست المكاسب من طرف واحد فحسب، هناك أكثر من طرف يتكسب من خلاله، وكل كلماته تدور في حرص بالغ وبصورة غير مباشرة، دوائر الشك تتكاثف داخل عقل الدكتور، يحاول أن يكون هادئًا رزينا فيدعي أمام أبي دراع ورجاله بأن نادر يقص عليه كل شيء، بالطبع هو كلام منافٍ للحقيقة، حسابات كثيرة تدور في رأس نادر، كل الدلائل والمؤشرات من حوله تشير لقدرات نادر ومن يلهثون خلفه، فقد نصب الكثير من الناس لنادر تمثالًا أيضًا، يكاد يضحك وهو يردد كم عدد التماثيل التي يصنعها أناس البلد، وكأنهم مصممون للعودة للجاهلية وبمرور الوقت يمكن أن يعبدوا هذه التماثيل رغم كثرتها، يشعر نادر بأن الدكتور يلقي في أشياء كثيرة عليه باللائمة، وكل فعل يفعله لا يلاقي استحسانًا في رأيه، يبتلع الكلمات ولا يبدي اعتراضًا ولكن بلا تنازلات، فلا يتردد في رأيٍ ولا يتنصل من فعلٍ، عادته التي درج عليها وهي العناد والتشبث بالرأي، أما حدة الطبع فغالبًا لا تظهر أمام أحد من أسرته كبيرًا أم صغيرًا، الوحيد الذي يكبح جماح أفعاله الناظر، ولكن الناظر دائمًا حريص ألا يحرجه أمام الناس، يبارك الكثير من أفعاله والقليل جدًّا يطلق عليها ثورة شباب.

***

كل منهما يبحث عن أدلة يُدِينُ بها الآخر في أفعاله وأقواله، وكأن كلًّا يرصد للآخر، نادر يتحدث عن عدم إدراك أخيه للأوضاع القائمة والمتشابكة في البلدة، ولا ما يدور خلف جدران بيوتها، الدكتور كان كثيرًا ما يصب نقمته وقرفه وألمه من البلد كلها، كان يصفهم بالكسالى الأغبياء، اليوم غير الأمس،

أحاديث كان لا يشارك فيها أبدًا، اليوم يفتح حوارًا مع شباب في الجامعة، ويجالس البهلول وابنه نمر، لا تتأفف نفسه ولا يجاهر بالتذمر ويتبسط ويتحدث لأبي دراع كبير مطاريد الجبل، تأكد للدكتور أن هناك علاقة ما بين أخيه وبين أبي دراع لا يعلم أحد عنها شيئًا، هكذا صرح كبير المطاريد أمامه، يشارك ويتكسب الكثير من الغرباء القادمين للاستثمار، أسعار الأراضي التي قفزت بجنون بالغ كل تلك الأشياء يديرها نادر وخاصة اليوم بعد ما ألمَّ بالناظر.

***

نورا مجبرة أن تتدخل في حديث معروف نهايته، لا يتقبل أيٌّ من الطرفين انتقدات الآخر، تحاول أن تقرِّب في وجهات النظر فيبدو ذلك مستحيلًا، ولا يستمع أي منهما لما يقوله الآخر، نورا حائرة بينهما تجادل بكل الطرق الممكنة لديها، خرجت من أحزانها قسرًا فقد فقدت واحدًا فتخاف على أخويها الباقيَين، فلمن تلجأ وبمن تستجير؟ ليس هناك مَن له المقدرة على السيطرة عليهما، خاصة أن الناظر ما زال طريح الفراش غالبًا، قد يتحامل ويحاول الخروج والظهور لكن بعد معاناة وألم مبرح، يعود فيلقي نفسه في مخدعه وطه لا يفارقه، تنظر ناحية الأم الجالسة في أحد الأركان مستغرقة في آلامها وأفكارها، عينى الأم تدور في مآقيها وبداخلها حزن آخر وكأنها تنتبه أو تدرك ما يدور بين ولديها، همس يصل لأذني نورا بأن هناك صراعًا على تركة الناظر، صراع والرجل على قيد الحياة!!! وتتساءل عن الشائعة ومصدرها، وهل تختلف الشائعة عندما تنطلق في الريف عنها في الحضر والمدينة؟ نعم... تؤكد لنفسها ... فيوم تنطلق شائعة في الريف فمن الصعب التحولق حولها وحصارها ومنعها.

بدا جليًّا أن كل من أخويها يتعامل مع الآخر في حذر، ترتاب، لا تستطيع أن تفسر كل شيء جيدًا، لكن ما هي الأشياء التي تدعو للريبة؟ هناك مسئولية ملقاة على عاتقها كونها عرفت، فصمتها وسلبيتها جريمة لا تغتفر، عليها أن

تواجههما بكل ما تحمله من صراحة وشجاعة وحب.

يتبادلان أحاديث كثيرة فارغة بلا مضمون أمامها، رغم أن عيني كل منهما تتألق ببريق غريب، تبدو نظراتهما حائرة، الأصغر والأكثر قربًا منها نادر، تبدأ بمجابهته، يبتسم ويقبِّل رأسها ويمسح عليها في حنو بالغ قائلًا:

«أحاديثه غالبًا فيها جفاء ولا ترقى لمستوى أخوتنا».

تحاول أن تجد له المعاذير، فحياته بعيدًا عنا أكسبته صفات لا تتوافق وحياتنا، وتطالب أن يلتمس الجميع له العذر.

«أين ذهبت تلك القلوب الطاهرة والنفوس الراضية المطمئنة، هل ننسج حبالًا بأيدينا ونصنع منها مشانق لأنفسنا، نأتي أفعالًا غبية، لسنا مجبرين عليها ونعكر صفو أيامنا بأيدينا».

تهمس بتلك الكلمات في صوت خافت، تطرق كلماتها أذنيه وصوتها في رنته وصداه الهادئ الرزين، يكاد يكون صوت يونس تمامًا، يتنهد بعمق وتتقابل عيونهما وهي مملوءة بالدموع، تنفرج أساريره ولا تبوح بجديد.

يضع الدكتور خططًا فوق الورق، مجرد خطوط تنسجها يده بإيعاز من عقله، عند الصباح تتصادم مع الواقع والحقيقة فتبهت ألوانها ويضيع حبرها من فوق الورق وتعود الورقة مصقولة بيضاء من جديد، عليه أن يعيد الكَرَّة ولا جدوى، عليه أن يتخذ من الليل ستارًا وفي حذر يذهب ليقابل أبي دراع بمفرده، عليه أن يؤكد لأبي دراع أنه الأولى بمكانة الناظر، الغريب أن الخوف يتملكه مجرد أن تقوده قدماه ناحية المدافن، أين ذهبت جسارة الأمس؟ ذهبت وعصفت بها حياة المدينة اللاهية اللاهثة، يتجرأ وبمفرده يتقدم كاسرًا وممزقًا الستائر المسدلة فوق قلبه، تأخذه رعدة من أشكال القبور، فتتمثل أشباحًا فوق شواهدها وقبابها في وضح النهار، فكيف تكون بالليل؟ أعمدة الكهرباء منتصبة في أغلب ربوع القرية حتى حدود المدافن، فلا أثر لأضواء سوى القمر والنجوم، يبدو أن القمر والنجوم قد خاصما

بضوئهما الشاحب البلدة أيضًا، يقارن بين جنونه الشبابي يوم فكر في سرقة خبيئة المطاريد، يتذكر أنه ذهب بمفرده وبلا وجل أو خوف ودخل في جوف شق الجبل، ماذا حدث له اليوم؟ يجفل مجرد أن تأتيه الذكرى، يفتقد الجرأة كلية، يرتعد خوفًا وهو لم يتقدم خطوة إلا في أحلامه، يشعر بأن قراراته متخبطة ومشاريعه التي تعج بها رأسه مجرد هلاوس، فلا قدرة له على تنفيذها، يصيبه القنوط والتذمر فينعكس هذا على معاملاته، يسجن نفسه في حجرته لأوقات طويلة، عليه أن يستعيد قدراته، مزيد من الخمر لا يصلح رأسه أو فكره إنما يذهب به لمتاهات لا تنتهي.

بعد صمت لا يدوم كثيرًا، تنفرج أساريره ربما أتته فكرة جديدة ترفع عنه الكدر العالق، لقد عرض أبي دراع بنفسه أن يأتيه في أي مكان يريد، لا يتبقى سوى من يكون رسوله إليه.

نمر لا يقبل أن يعيش في البيت وحيدًا، يحاول البهلول أن يعود للسكنى في البيت، اعتاد البهلول على الفضاء والهواء والنهر ونجوم المساء والقمر الذي يسكن قلبه قبل أن يسكن السماء، كل ليلة ينام نمر ويجافي النوم عيني البهلول، الحوائط وكأنها تنفث نيرانًا ودخانًا يشعر بالاختناق، يسرع بالخروج، يجلس أمام الباب حتى يتسلل النور ويفرش المساحات الفضاء حوله، يذهب البهلول لبيت الناظر، يقبِّل يد الناظر ويجلس تحت مخدعه ويجأر بالبكاء، يمسح الناظر على رأسه ويستند ويقوم خصيصًا لأجله، لكنه جليس فراشه لم يغادره، يحكي له والناظر وطه يدركان ويعرفان كل ما يقوله، يصف حالته وكيف يشعر بالغربة بعيدًا عن الجزيرة بل لا يستطيع النوم، نادر يذهب مباشرة إلى نمر تلبية لأمر الناظر ويأتي به، في النهاية يوافق نمر أن يذهب إلى الجزيرة مع أبيه، لكنه قرر أن يأخذ ملابس يونس معه حتى ينتظر هناك على شط الجزيرة، يلقي نمر تحذيره للناظر والموجودين جميعًا بأنه لن يترك يونس يأتي إلى البلد، يوافقونه وقلوبهم تتحسر في صمت ولوعة وأسى.

كانت رحلة وداع غريبة، لفة من قماش بها بعض من ملابس لنمر وكيس متعلقات يونس، وكيس من الخيش متوسط الحجم به مجموعة مخلفات لأواني هي كل المتاع الذي يأخذونه، يرقب نادر وداعهما لحوائط البيت ودموعهما تسيل، يهجران بكل متاعهما من الدنيا، ما زالت عقولهما بكرًا لم تلوثها بعدُ أماني البشر الجامحة، يشعر نمر بحسرة غريبة وما أن ينطلق القارب، تلفحه نسمة من مياه النهر الطيبة، فينظر إلى صفحة الماء الهادئة يناجيها ويحدثها حتى أبيه لا يعرف ما ينطق به، كأنها تسابيح مغناة لطائر يشدو بمعان لا تصل للبشر، لم يفه الرجل ولم يطرق سمعه سوى كلمة عرفها باسم «يونس»، ويواصل نمر في حوار دائر بينه والنهر.

ينظر نادر للقارب وهو ينطلق وساعدي البهلول يضربان بالمجدافين، يضرب بواحد ويسكت الثاني فيدور القارب متخذًا وجهته المعتادة، يبتعد القارب، يسافر البهلول ونمر إلى الجزيرة ومعهما تسافر أفئدة المودعين، ألمٌ غريب ينهش صدر طه ونادر، وافقَا مجبرين على مضي نمر مع البهلول، ارتباط نمر غير التقليدي بيونس، أحاديثه طوال اليوم التي تتناثر في دروب القرية عن انتظاره ليونس، كيسه الذي لا يفارقه وبه ملابس يونس، عندما يشاهدونه يتألمون ويلوذون بالصمت، صمت مصحوب بحسرة على الفقيد المسافر كما يدعي نمر، أحيانًا يصدقونه بأنه عائد، طه آخر إنسان يمكن أن يوافق على سفر نمر مع البهلول، لكنه مجبر على أن يوافق، أحاديث نمر لا تنتهي وتقلب المواجع في قلب الناظر، نمر لا يمكن أن يحُولَ بينه وبين الدخول على الناظر حائلٌ، فمن يهم بمنعه يصرخ ويولول ويصل صراخه لقلب الناظر حتى وإن كان الألم المبرح يتملكه، يئن من الوجع ويطالبهم أن يأتوا به، يجلس تحت قدمي الناظر وهو يقص عليه أي حكايات بينه وبين يونس، المهم أن تكون قصته هو ويونس، دائمًا يقص عليه سفره بصحبته والأفلام التي يشاهدها في المدينة وخاصة التي فيها معارك وخيول، يضحك وهو يصهل مقلدًا الخيول، يمسك عصا مرة يركبها، ومرة يمسكها كسيف يحارب به الأعداء، يطعن بها في الهواء فتطعن قلب الناظر فتسيل دموعه

دمًا، يحاول أن يوقف زحفها، يتحامل الرجل ويتركه حتى ينهي كل أقاصيصه وحكاياته، وطه الوحيد الذي يتأمل كلاهما ويتحسَّر على الناظر، لو كان الأمر بيد طه لمنع نمر من الدخول نهائيًّا على الناظر، الناظر أقسم عليه ألَّا يمنع نمر ولا يجعل أحدًا يمنعه من الدخول، يشعر طه أن نمر يجدد أحزان الناظر، فالرجل يفتح ذراعيه له لكنه يكتفي بتقبيل يديه ورأسه، يسحبه طه بعد جهد ومداعبة قد يطول أمدها ويكاد طه أن يفقد أعصابه ويلمح الناظر فيتحمل ويصمت، البهلول اعتادوا فراقه أما الابن فشبه مقيم بينهم، مشاعر كامنة تقطر ألمًا تتباين في ردود أفعالها ما بين طه وبين إبراهيم ونادر ونورا، زملاء يونس وأقرانه يتواجدون.

فنمر قاسم مشترك في حياتهم ولهوهم ومرحهم، اليوم كل منهم يرخي نقاب أحزانه فوق قلبه، تنطلق الرحلة بالبهلول ونمر وكل يحبس مشاعره ولا يفصح بها علانية.

وسط ذهولهم يأخذ الدكتور المفتاح من يد طه بعد أن يغلق باب منزل أم نمر... تتقابل عيونهم ولا يتكلمون.

***

ينصت الدكتور إبراهيم لأبي دراع وهو يتحدث:

كيف كان يخاف الليل والظلمة، كان صغيرًا لا يعي معنى كلمة الظلم وما تجرَّه خلفها من ظلال سوداء كثيفة، يعرف الظلم برؤيته بأنه ظلام عقل الإنسان، ينصت إبراهيم ويعقد مقارنات بين ما يقوله وأفعاله التي يحكي عنها.

كبير مطاريد الجبل وأبناء الليل يتحدث عن العدل:

«أين العدل؟؟؟ ولماذا الظلم؟».

يواصل أبو دراع فيصف ما حدث لأبيه، يتذكر ولم ولن ينسى مشهد رجل

السلطة الذي يُنزل العذاب بأبيه أمام عينيه، لا يصدق أن هذا الرجل يمثل العدل، فيقول إن العقل ذهب منه، يراه وهو يكيل الضربات لأبيه، وأبو دراع الطفل يخبِّئ وجهه بين يديه وينظر خلسة من بين أصابعه، تتقابل ساعتها عيناه الزائغة الهاربة بشعاع من عين أبيه الدامية، رغم كل تلك السنوات التي مضت ومرت فإن تلك النظرات تطارده، يصف ساعات اعتقال أبيه وكل المشاهد تتمثل أمام عينيه، حتى بعد أن وصل أبو دراع لمراتب الرجال ما زال يتذكر حبس أبيه لدموعه وآهاته في صمت وصبر قاتل، يتحدث والدكتور منصت لكل كلمة يتفوه بها ... رغم ملامحه الغاضبة القاسية كلماته تقول:

ما معنى أن تنطق العين بالذل أمام الابن؟

ما هي مشاعر الإنسان عندما تُمتهَن كرامته أمام ولده؟

الابن ينظر للأب وهو يتلقى الضربات في وقتها قد يصرخ للحظة ويتألم بألم أبيه، لكن لا يستطيع وتنام صرخاته داخله وتتوالد منها أحقاد وكراهية، عندما يشعر في طفولته بمدى الجور الذي يعانيه أبوه، مدى الظلم الواقع عليه، فعليه أن يصادق الظلم ويرافقه في رحلة حياته!!! يثأر وممن؟ وكيف؟

هل كل مَن يركبون رءوس الناس من فوق كراسي السلطة؟

مَن ينصِّبون أنفسهم مكان الله على الأرض ومرجعية كل الأمور إليهم، مَن يستأثرون بكل الخيرات لأنفسهم وذويهم، يعربدون وينافقون ويكذبون ويكسبون ويربحون، لا تهمهم دموع أو دماء يزرفها بسطاء القوم.

يحتد صوته ويتحشرج وتصدر تنهدات متتابعة ويشعر بضيق في صدره ويسعل بشدة، يناوله الدكتور كوب الماء، يتجرع بصوت مسموع، بعد صمت يغمرهما، ينظر أبو دراع فيجد عيون الدكتور إبراهيم مشجعة له للاسترسال والقص، يمسح بقايا المياه من فوق شفتيه وشاربه ويبتسم في مرارة وهو يستكمل وصف الحوادث وعلامات الاستنكار بادية على ملامحه،

فيصف ماذا يحدث من الطرف المضطهد المغلوب على أمره، يوم تنفجر جبال صبرهم وتفتح كل أبواب المياه الدنسة فتغرق الجميع ... ويعود ويطلق أسئلته فمَن يحاسبهم؟ في أسى بالغ يؤكد له؛ لأن الغرق نهاية حتمية للظلم القائم.

يصف له كيف توغل في شقوق الجبل ولم يخف، مشاعره تجمدت ومات قلبه، فكيف لهارب من حبل المشنقة يخاف ويهرب من الموت ... !

يضحك بقوة ويجاريه الدكتور في الضحك قائلًا:

- تخاف من العفريت!!

- ومن خاف من العفريت.

- يخرج له.

يختلس نظراته للدكتور ويطرح سؤاله عليه:

- عارف يا سيدنا الدكتور ... العفاريت خوافه ... ما تقدرش تواجه البني آدم وش لوش ... في يوم سمعت أن عفريت أو شيطان قتل بني آدم ... في ذمتك سمعت.

- لا..

يفيض أبو دراع في شرحه، فهو هارب ومات الخوف داخله، والعفاريت شعرت بأنه قريب الشبه بها فساعدته في أفعاله، فدخل الشقوق التي تنام فيها فأستقبلته، أما الأفاعي فيصفها بالشر فحمل عليها وأشعل النيران فهربت ولاذت بأماكن بعيدة، يصف نفسه بأنه حارب الشياطين والعقارب والثعابين وكلها أقامت له حسابًا، وحتى الخفافيش هربت، يصف له مميزات شق الجبل، فهذا المكان دون سائر الجبال الممتدة إلى ما لا نهاية، وهذا المكان الشرقي على مستوى كل محافظات الصعيد لا يوجد مثيل له، شقوق متتالية ومتشعبة لا تستطيع أن تدرك لها نهاية، هي متاهة وكم

حاولوا أن يصلوا لنهايته ولم يفلحوا، كيف استطاع هو ومَن معه كشف غموضها فخبروها واستأنسوا حتى بشياطينها، عرفوا بأسرار كهوفها، فمهدوها وجهزوها لحياة طويلة، في أسى بالغ يسأل الدكتور:

- بعد هذا العمروما أجريناه من إصلاحات يطالبنا سِيد الناس وعَم البشر معالي الناظر أن نتركها ... بأمانة يا دكتور ... يرضيك ... د أنا دايمًا زي الخاتم في صابعه ... شمال حاضر ... يمين حاضر ... طلباته أوامر بتتنفذ في ساعتها.

يقول إن الدكتور ومكانته كانت السبب الرئيسي أن الناظر سيفض علاقته به وبتابعيه، يشرح للدكتور ملامح الغد القادم وكيف الناظر ومَن يأتي بعده ويحتل مكانته ... بعد عمر طويل، يلمح بطرف خفي للدكتور إبراهيم، في خبث يصف كل القادمين الغرباء للجبل بمعداتهم المختلفة، أمنيةُ حياتهم أن يسيطروا على البلد وكل ما فيها، والاتحاد بيننا يقوينا ويجعلنا نستطيع أن نقف في مواجهاتهم وخاصة أنهم يستعينون برجال السلطة ويشركونهم في الأمر ويكسبون الملايين، يستطيع أبو دراع أن يستنبط من الأحاديث المختلفة بحنق الدكتور ناحية البلد وكل ما فيها وخاصة مَن يتقلدون مناصب قيادية، بلا روية يلعن الدكتور البلد وكبارها والقائمين عليها بل يفصح بأنه يتمنى حرقها، يقرأ في عينيه أشياء ولكنه لا يفصح عنها كلها، يكتفي بثقب صغير في ذاكرته فيلقي باللعنة ويشيد بآفاق الدكتور في آن واحد، الدكتور أمانيه تعربد وتنتشي معربة عن سعادة ومُشيدة بذكاء نفسه، يفكر كيفية استغلال جبروت وبطش هذا الرجل وعصابته في المستقبل، حسابات تُحسب وهو يتحدث فيواصل، هناك أفكار تطوف بخياله فهل يحققها بيد أبي دراع؟ يظل هو بعيدًا وفي الخفاء ويضرب ضرباته ويعدد مكاسبه، كل منهما يتعامل بآفاق ثعلبية، داخل كل منهما شيء خفي يفكر في كيفية الوصول إليه ببراعة ودقة متناهية، يطالع كل منهما وجه الآخر ويحاول قراءة ما تجود به ملامحه أو ما وراء كلماته، كلٌّ منهما مستحيل أن يُصرِّح للآخر بخبايا نفسه، الدكتور يتذكر كثيرًا

من الشائعات التي صنعت من رجل المطاريد الأول بطلًا أسطوريًّا مجدته حكايات المقهورين.

يغرق كل منهما في أفكاره للحظات ويعود منتشيًا ويواصل السرد والحكي، يظن كل منهما أنه يستطيع اختراق الثاني ويقرأ داخله. يسعى أي منهما أن يُدخل الآخر شبكته وأن يكون صيدَه القادم، كلٌّ يُغازل شيطانه وينتظر أن يزوِّده بأسلحة جديدة غير معتادة من قبل، كل منهما يتمتع بذكاء ومكر ودهاء، يقص أي منهما على الثاني أطرافًا من سيرة حياته، لا يكشف النقاب عن ماضيه الحقيقي، هل ماضي أي منهما مقبول؟؟!! يتناهى إلى سمعيهما عواء ذئب قدِم من بعيد، ينصتا وتبرق عيناهما وكلٌّ يتخيل أن العواء صادر من جليسه، تتقارب أفكارهما!!!

كانوا لا يتحركون إلا ليلًا كخفافيش، معالم المدنية القادمة التي حلت وبوادرها التي ظهرت، تحمل لهم انقلابًا كبيرًا، يبطشون ويتسللون، يتحاشون بعض الأماكن ويهربون من عيون أناس بعينهم، يتجاوزون أحيانًا الخطوط التي كانت يومًا موضوعة وفق اتفاق، يزحفون ربما يحاولون أن يزيحوا تلك الخطوط أو يمكنهم فى المستقبل محوها، هل أصبحت تلك الخطوط طباشيرية؟ بخرقة بالية يرفعونها، تلك كانت البوابة التي يعْبُرُون منها وأمنيتهم أن تظل مفتوحة على الدوام.

يواصل أبو دراع القص ويفهم ما كان خافيًا.

فكل المطاريد وساكني شقوق الجبل ليسوا مجرمين، ليسوا مرتكبي جرائم، وليست طبيعتهم المطلقة الشر، منهم الهارب من ثأر، لم يرتكب هو جرمًا ولكن أعداء أسرته أو المطالبين بالثأر منه وضعوه نصب أعينهم فهرب ويمكن أن يكون العكس، وآخر مالت عليه الدنيا وكان عزيزًا عند أهله ولكن جارت الدنيا عليه، وماذا يفعل العزيز عندما يُهان وممن؟ من أرذل البشر وأقلهم، ومن ثقلت عليه همومه في الدنيا ولم يستطع أن يوف أسرته مطالبهم وحاجياتهم فهرب مغصوبًا، منهم من خانته الدنيا أو المرأة، وآخر

فضَّل الهروب ففي الانتحارلجهنم يذهب مذمومًا، وإن عذاب الدنيا لأهون من عذاب الآخرة فيكفيه عذاب الدنيا، يقلب الدكتور كل الحكايات في رأسه، يسرح وأبو دراع يقص فينتهي الرجل ولا يشعر الكتور إلا وهو يسأله:

- سرحت يا دكتور؟

- سمعت كل حكاياتك.. وأنت من أيهم؟

يبتسم وهو يحرك يديه مقلدًا طائرًا بجناحيه:

- طول عمري بحب العصافير ... أحب أطير.

يصمت متأثرًا ويبلع ريقه متنهدًا ولكن يبتسم ويستطرد:

شنطة كتبي كانت مصنوعة من القماش الدَّمور، كنت أعلقها في كتفي وأطيروسط عيال البلد، كنت ... يصمت.

- ذهبتَ للمدرسة؟!

يحدثه عن أيامه الأولى وهو طفل غض وأحلامه التي تتعدى حدود قريته وبلده، وعن الضباب الأسود والظلمة التي حلت بأسرته وقذفت بكل أحلامه، يحدثه عن طفل يقتله الخوف فيغمض عينيه هروبًا من الدنيا، عن رعشة الجسد في الشتاء ومن يدفِّئ أطرافه التي تكاد تتجمد، عن لقمة العيش التي يستجديها وهو غير معتاد التسول، يرفض مد يده ويعمل في ظل قهروألم، كان يحلم بلمسة حنان، فمن يحنو على طفل كبرقبل أوانه، يحدِّثه عن قلب أكلته النيران وعن الأحشاء التي احترقت.

ينظر إليه وهو يتحدث، تشع من كلماته دلائل حقد وعلامات غضب، يتفاعل للحظات معه:

- كم كنت أتمنى ... يصمت وينتظره من جديد.

يحدثه عن أمانيه في التحرر، يستسلم لقدره ويجد نفسه رهينة في شقوق

الجبل ومتاهاته، تلك الممرات المتشابكة المرعبة، عالم تكتنفه الظلمة والخوف والرعب، عالم يتشح بالسواد والغموض، وهو مجبر على الولوج إليه فليس أمامه طريق آخر، فالخوف عندما يعتري الجسد أو يتفجر الرذاذ من شتى مناطقه فشيء عادي، عندما يجف عرق الرعب وتمتصه مسام الجلد الذي تبلَّد تخترق الإنسان قوة خفية، يقتل العجز ويكسر قيود الخوف ويصبح كل شيء مباحًا.

ينبش ذكريات وبدايات خروجه عن نهج الحياة السوية العادية، رغبته في التحرر تنتهي فقد فات الأوان.

يستمع إليه ... يطرح عليه عن مدى إمكانية أن يساعده في الهروب والعيش باسم جديد، فالدنيا أصبحت أكثر زحامًا، استخراج أوراق الهوية الجديدة أمر سهل وبمقدوره أن ينهيها بسهولة ويسر ... يقاطعه بضحكة عالية قائلًا:

- وهل تعود الحياة للموتى؟

- أنت على قيد الحياة.

- ربما تغرق الحية.

- مستحيل فهي تجيد السباحة.

يمضيان في الطريق بين أكوام الرمل والحجارة، صخور صغيرة مدببة وأخرى ملساء ناعمة، أحجار متنوعة مصقولة وغير مصقولة، في كلماته يقول ... أرحل ... إلى أين؟ بعد هذا العمر أيجاور بشرًا آخرين ويعرفهم، بعد عمره الذي سافر بلا رجعة، فالمكان هنا أولى به، فساعة أن تأتيه ساعة الموت سيجد من يدفنه والمدافن قريبة، يستبعد التفكير في التجربة الجديدة التي يطرحها الدكتور، فلا مجال للتجريب أمامه، يسأل نفسه في لحظات صمتهما القليلة عن مدى صدق كلمات الدكتور، إنه يشعر بصدق كلماته، لكن ربما يتلاعب به، أو يفكر في إبعاده بطريقة أخرى أكثر

ذكاء، لكنه اعتاد ألَّا يأمن بسهولة لأي إنسان، هو لا يخافه لكن يخاف منه أحيانًا، يشعر وكأن في كلماته مكرًا ودهاءً، في تردد يصفه بأنه يحاول أن يمد له يد المساعدة، يتفاعل مع حكاياته، هل هو طيب حقيقة؟ هل ابتعاده عن شق الجبل ومنابت الشر خلقت داخله إنسانًا من نوعٍ آخر؟ ربما ملاك يعيش على الأرض بلا أجنحة، بشر من طينة أخرى، فهو لا يشعر بأي ضغينة ناحيته، يقلب الأمر على كافة أوجهه، مبدأ مرفوض شكلًا وتفصيلًا، كيف يترك شق الجبل؟ لا توجد منطقة على طول شط النيل الشرقي من أسوان وحتى الجيزة بها وكر كشقوق الجبل في هذا المكان، بينها وفي مغاراتها وكهوفها أمانٌ، كيف يتركها وكان يقول على نفسه، إنه أصبح مثل الحطب الجاف، أي عود ثقاب يشعل النيران داخله، فتشتعل النيران ومن ثم الدخان وفي النهاية رماد، فأولى به أن يظل هنا، هنا يتقلد منصب الزعيم، يأمر وينهي، يطلب فيُلبَّى طلبه، حرية بلا حدود نهايتها آخر جوف الكهف إن وصل إليه إنسان، هنا أكثر سعادة من أي مكان في الدنيا، فهو في خريف العمر ولا يسحر عقله فيتوهم بأنه في ربيع العمر، في تردد يقر بأن الدكتور طيب القلب، يستشعر راحة غريبة في كلماته، كم يتمنى أن يصارحه بأشياء كثيرة ولكنه يتأنى وينتظر ما تفصح عنه الأيام القادمة.

يشملهما صمت الموتى فلا يتمادون رغم أنهما ما زالَا على قيد الحياة، عندما ذهب دكتور إبراهيم وجلس مع كبيرهم وتعامل مع بعضهم، وجدهم مثل كل البشر خارج نطاق المطاريد، يتحدثون عن آثامهم بزهو وفخر غريب، يفخرون بماضيهم الأسود فيفضون أحداث الماضي ويفصحون ويقصون في برود غريب وبروح تغلب عليها النشوة، ينفثون دخان سجائرهم وغيرها ويرسمون ابتسامة ولا يشعرون بخجل أو حرج.

***

في لقاءاته التي تعددت بأغلب الشباب من أقران يونس، يتحدث كثيرًا عن الحرية والإنسان، يتجول في عقولهم الشابة بمآثر الخالدين ويرصد

قدراتهم وأين تذهب أفكارهم، يتوهم بعضهم بأنه صاحب رسالة، يطرح سؤاله عليهم:

- أيهما أفضل أن تتأمل أم تتملك؟

يهب أكثر من واحد منهم فيدلي بدلوه وفق رؤيته وأفكاره الغضة ولكن هناك أفضلية، يشعر بأن كلماتهم وعباراتهم لا تفسح مجالًا كبيرًا للتفكر والتأمل، أمانيهم تعكس الصورة العامة القائمة، من يملك يتملك ما شاء، في حديثه إليهم تذبذب غريب ولعب بالكلمات والمعاني، فتارة محببًا باقتناء الكتب وملكيتها وقراءتها، فللكتب قدرة على خطف لب زائريها، ففي تصفح أوراقها نسمات عطر وكلماتها وإن كانت تحمل من حب وعنف أو حتى كراهية تسلب من الإنسان وقته ولكنها تهبه الحياة، ثم دوران للخلف مباشرة ووصفها بأنها مضيعة للوقت، يجاريهم ولكن يركب رءوسهم بتعبيراته الأكاديمية، يُثري فيهم نوازع ويُلهِب أحاسيس بثورة على وضع قائم، يصفهم بالذكاء ويرفع من شأنهم غير ما سمعوا عنه وعن كلماته المترفعة عن باقي البشر.

يخرج بهم من حيز لحيز، فيطوف بهم حتى في أقاصيص التراث وأهميتها، معروف عنه بأنه كان يكره زيارات النساء لشق الجبل طمعًا في الحمل، يسخر ويتهكم ودائمًا كان يردد بأنها «قلة أدب وجهل»، ماذا حدث لأفكاره وكأنه يطالب بإحياء الأفكار والمواريث الجاهلة تحت مسمى التراث، رغم أن تلك العادات قاربت على الاندثار ولكنه الآن لا يهاجمها، ماذا يدور بخلده؟

- هناك سؤال يحيرني.

بلا تردد تتوجه أنظارهم إليه فيقول:

لماذا تلقي النساء الأواني الفخارية أو الزجاجية وراء إنسان غير محبوب؟

فيسرع أحدهم قائلًا:

- غباء وجاهلية.

وآخر:

- لا أفهم لذلك سببًا.

يضحك وهو يتناول ويشرح الموضوع:

- يقولون بأن بقايا وشظايا تلك الأواني تحول دون رجوعه ثانية، فتجرح أو تدمي أقدامه ولا يستطيع العودة والدخول.

يضحك فيضحكون ... تلاقي تفسيراته قبولًا ويحاول أن يضفي عليها صفة عالمية مستعرضًا رحلاته وأسفاره المتعددة لبلاد أوروبية كثيرة، فيصف لهم ليلة عيد الميلاد وكيفية الاحتفال بها، كيف يُلقون كل ما هو قديم، نفس الأفكار ولكنها تتحور بصورة جديدة، فالقديم هناك من يجده فيستغله وينتفع به، أو قد ترفعه البلدية الخاصة بالمدينة وتتولى التخلص منه، وكأنه بين كلماته يشير أن تتحول شقوق الجبل لمزارات سياحية، يستغربون وترتسم معالم الدهشة فوق وجوههم وتتلاقى عيونهم فيبتسمون، الشيخ رضوان في بعض الأيام يكون متواجدًا في البيت فيدعوه الدكتور للجلوس معهم، يرفض ويتعلل بأنه قادم للجلوس مع الناظر، أما تلك المرة فالناظر سابح في النوم فلم يجد مناصًا من الجلوس مع الدكتور وصحبته من الشباب، يدور الحديث فيكون عاصفًا بكلمات يناور أصحابها من الشباب ولكن بلا تطاول، فلبيت الناظر حرمة وقيمة ومقام، لكنها مناوشات في محاولة لصق تهم متعلقة بخرافات ودجل، الشيخ يهمُّ بالمضي وهو يدرك ما ترمي إليه بعض العبارات، لكن يستطيع الدكتور بلباقة غريبة أن يفسر بعض أفعال الدجل بأنها علاج بالإيحاء أخذت به أرقى البلاد في الدنيا قاطبة، تنفرج أسارير الشيخ فيجلس، فيقول الشيخ:

- كثير من هؤلاء الشباب يحاولون أن يفرغوا الدِّين من روحانياته وعظمته وأسراره.

يطالبهم بالتقارب في محبة، أن يتواصلوا ويختلفوا، تجد كلماته آذانًا

صاغية وتتماسَّ مع آفاق الشيخ والشباب معًا رغم تناقض أفكارهما، يضحك الشيخ معجبًا وهو يقول:

- أمنيتي أقص ريش جنحاتك يا دكتور.

- نعم !!!

- يعني تقعد وسطينا وتعيش هنا.

- هنا ... !!! إعدام ...

بصوت يقترب من الهمس يقول أحدهم:

- بكره فاتح دراعاته والخير هلّ.

وآخر يؤيده في رأيه:

- كان يونس دايمًا بيحلم والحلم بوادره اتحققت.

وثالث:

- لا يتبقى إلا أن يكتمل بناء الكوبري.

ورابع:

- الله يرحمك يا يونس ... الفاتحة على روحه.

يقرأون ويسبلون أجفانهم ويمسحون بأيديهم فوق وجوههم، يتمنون أن تحل بركة الفاتحة على أجسادهم أيضًا.

راحوا يعددون أحلام يونس:

«يونس كان نفسًا أمارة بالعشق والحب والخير والجمال».

كلماتهم ذكريات رائعة لصداقة يشيد بها أمامهم، سريرته تشعر بأنهم مأسورين بالأمس يجترونه، فلا أحداث حقيقية منقوشة فوق حجارة الجبل، مجرد نقوش فوق ألواح طينية تندثر بسرعة وتتشقق ولا يبقى لها

أثر، كلهم يزحفون للثروة والجاه، يسعون لملابس زاهية فوق أجساد نتنة، حتى وإن أتت عصافير الفجر وبدلًا من أغاريدها صرخت وولولت، فلن يهبُّوا من سباتهم ولن يتركوا مخادعهم الطرية الحديثة ... يضحك ... ويقول أكلتهم الحياة الجديدة ... في الغد سيفكرون في التخلص من تلك القبور الخاصة بدفن الموتى ... يضحك ويجاريهم في اجترارهم.

***

أفعال الدكتور الغريبة، لم يتوقعها نادر مطلقًا، كلماته ينقلونها لنادر فيحاول أن يدرك المعاني والمقصود من ورائها ولا يفلح، ينتظر فتأتيه كلمات وأفعال أكثر، يسأل نفسه هل يريد المال؟ مؤكد هو في عوز مالي، أبي شفاه الله كان دائمًا يردد:

«أخوك إبراهيم عايز وراه عربية محملة فلوس».

كونه يأخذ ويسحب من يده مفتاح منزل أم نمر، ماذا يريد من وراء هذا البيت؟ هل في نيته أن يبيعه؟ أوراق الملكية التي يحتفظ بها الناظر تقول إن البيت حقٌّ شرعي لأم نمر وبالطبع من يرثها، المواقف الغريبة وكأنها دسَّت جمرة نيران ملتهبة داخل قلب نادر، إنه أخوه الأكبر، عليه أن يلتمس له العذر فهو لا يعرف ما يدور في هذا البلد، هل حقيقة يبحث عن سلام يجمع به شمل الجميع؟ هل يظن يومًا أن المطاريد يلقون سلاحهم؟ الشباب الصغار يهمس في آذانهم بكلمات الدِّين وإحياء تقاليد الدِّين، ومرة يقص عليهم حكايات غريبة تتناول السحر والشعوذة، مرة يتحدث كأحد الدراويش وتارة رجل متصلب بآرائه ومتمسك بأفكار معينة فلا يحب أفاعيل الدروشة، كان قديمًا يرفضها ويقول إنها قمة الجهل، ماذا يحدث؟؟

الناظر طريح الفراش، يونس ذهب ونمر يؤكد بأنه على قيد الحياة وأنا أحيانًا كثيرة أصدق جنونه، ونورا ما زالت دموعها لم تجف حتى اليوم، هل يبحث عن مواريث؟ أبونا ما زال على قيد الحياة وأكبر عيب أن يفكر بهذه

الصورة.

«إن المكانة الرفيعة يستهويها أن يكون صاحبها ذا قلب شجاع».

كيف يصنف أخاه ... هل أصبحت مشاعره باردة وقسى قلبه؟ هل عقله الحائروراء قراراته المترددة الغريبة؟

ليس أمامه سوى الشيخ رضوان، يتسلل بحديث يقترب من الهمس إليه، لا يفصح مباشرة، يتناول موضوعات بعيدة عما ينوي أن يطرقه، فيتحدث عن أبيه، وكأنه يفتح أمام الشيخ بابًا لينفث ما في صدره، فيدعو الشيخ على نفسه بأن أمنية عمره أن يتقبل الناظر فيه العزاء:

- لا أستطيع أن أرى الناظر طوال يومه نائمًا، أتمنى الابتعاد لكن كيف ومتى أستطيع؟

يصفه بالأخ والحبيب والصديق، تبدي كلماته مدى الحزن الذي يعانيه ساعة أن يذهب إليه، ينتظم في الحضور إلى الناظر شبه يوميًّا، يسرد عليه كل ما حدث، يسرِّي عنه ويضاحكه، يبكي عند خروجه ولكن يداري دموعه، ما زال يحمل خيالًا جامحًا فيتصور كثيرًا أن الناظر سيعود كما كان، يهدهد نفسه قائلًا:

«سبحانه يحيي العظام وهي رميم».

يتذكر نفسه وعدم قدرته على الوقوف على قدميه بدون الاستعانة بعصاه، خطواته التي تكاد تتعثر وهو ماض، يعرف أن شبح الشيخوخة يدب في أوصاله ولكنه يتحامل، فليس الناظر فقط هو من دبت الشيخوخة والوهن إلى جسده، يزم شفتيه وكأنه يتحسر على عمر مضى، الدكتور في كل جلسة يشيد بالشيخ رضوان وقدراته وعلومه، الشيخ كان في أمس الحاجة لهذا الدعم القوي، فعقول الشباب وكأنها تترصد كلماته فيعيدون صياغتها وتفنيدها وإلقاء الضوء على مثالبها وعدم إلمام صاحبها، يحاولون مجادلته أو يقللون من معارفه وكل تلك الأفاعيل ظهرت وكثرت بعد موت يونس، كاد

أن يداخله للحظات قليلة الشك في ذاته، ومن يوم أن جاء الدكتور كان سندًا له من همهمات الشباب، استمدَّ القوة وجاهر بأنهم غير ملمين بأمور الدِّين جيدًا، وكانت كلمته المشهورة:

«شقينا نحن وكسبتم أنتم من نزيف دمائنا ... أيها الملاعين».

عاد أدراجه خائبًا فقد طواه الدكتور تحت جناحيه، يطالبه بالحديث إلى الدكتور، كيف ذلك؟ منذ موت يونس وبعد أن ألم المرض بالناظر طالبوه أن يعتلي المنبر فرفض قائلًا:

«لا أستطيع وعليكم أن تتقبلوا عذري، فأنا لست أفضل من بلال مؤذن الرسول عليه الصلاة والسلام، لقد اعتذر سيدنا بلال عندما دعاه أبو بكر رضي الله عنه أن يؤذن ... سامحوني».

إلى من يتجه نادر ليساعده في همه، لم يتبق سوى طه، مَن يؤثر الصمت ولا يفارق الناظر، وباقي البشر تشغلهم الحياة الجديدة فلا يلقون بالًا بقديم، يتفننون في التمتع بمباهج الدنيا المستحدثة عليهم، يفكرون في المولد القادم، في المحجر الجديد، في القادمين لبناء أو شراء أو سمسرة، وحتى رفقاء طريقه يسألونه عن الجديد ومن سيستفيدون من ورائه أكثر فيسأل نفسه:

- متى يفكرون؟

يضحك من نفسه، فقد نصب نفسه قاضيًا وحاكمًا، بالأمس القريب كان مثل أقلهم شأنًا يفكر، يفكرون كفئران داخل مصيدة الحياة الزاخرة التي تطل عليهم بعد جوع وحرمان، دخلوا بمحض إرادتهم وراء طُعم جديد مغرٍ، يطالب نفسه بالتريث واليوم كلٌّ لا يرى إلا نفسه، في أسى بالغ يردد:

«هربت الملائكة يوم سافر يونس ... فهل أغلقوا رحمة السماء؟».

كثير من الوساوس والأوهام تدخل قلبه، يرى طوال يومه الدكتور ماثلًا

أمام عينيه، يقرأ الجرائد ويفتح الكتب ويعبث في العقول تحت مسميات الحرية ... والناس جميعًا أحرار فيما يفعلون لكن ما المراد من وراء أقواله؟ هو بنفسه مَن يقول إنهم سيظلون بآفاق فكرهم سجناء، هو مَن يقول إنهم لن يتحرروا يومًا وسيظلون أسرى نفوسهم المريضة، لن يستطيعوا أن يخترقوا قضبان سجن نفوسهم المحبوسة خلف أعمدة ذهبية، سيظل السجن متوهجًا كالشمس يسحب بصرهم وبصيرتهم قبل أن يتجه إلى عقولهم، يمكن أن يفيقوا ... متى؟ ... بعد أن يولي العمر!!!

كيف تلوذ نورا بالفرار من أفكارها؟ تتأمل الحادث أمام عينيها، كلام يقال وأحاديث تتردد ويحبس كل من أخويها أفكاره عن الآخر، تفسِّر ما يحدث حولها بأن كلًّا منهما أعماه الغضب فلا يسمع إلا صوته، ضلَّا الطريق إلى السبيل الصحيح، يتمادى كل منهما في غيه وتصوراته، مؤكد النتيجة ستكون وخيمة وندفع جميعنا ثمنها وسيكون باهظًا، تتخيل الغد ولو حدث لأبيها مكروه مجابهة مرعبة بين أخوين، هل تصمت؟ تحبس كلماتها داخلها فلا تبوح بخلجات قلبها، وإن باحت فلمَن؟ ومَن يستطيع السيطرة على عقلين ورثَا صفات العناد والمجابهة، في عَجَلٍ تقلب الأمور على كافة وجوهها، تبحث عن مخرج من مصيبة قادمة لا محال، منذ يوم سحب إبراهيم مفتاح منزل أم نمروتوجست شرورًا قادمة، بدت في العيون والنظرات بشائر الشر، اليوم يتناثر الكلام حولهما، تتناقل الأفواه أحاديث يتردد صداها رغم أنها هامسة، تحمد الله أنه حتى تلك اللحظة لم يرفع أي منهما السلاح في وجه الآخر، تشعر بأنها مسألة وقت والقادم يحمل ملامح ضبابية، تتنهد وهي تقول:

«نعم يستغرق البناء أعوامًا أما الهدم فمعاوله سريعة».

يوم واحد تنام قريرة العين، يأتيها حلم بثورة طاغية للنهر والجميع نيام، يأخذ القرية بمبانيها بمراكبها وقواربها ومعدياتها الجديدة حتى الكوبري الحديث الذي لم يكتمل بناؤه فيمسحها جميعًا من على وجه الأرض،

تترنح تحت وطأة الأحداث الجارية من حولها، علينا أن نكذِّب ونتحدث عن فضائلنا المزيفة ومقابل ذلك نكتم الحقائق القائمة.

كيف تجابه وتتصدى؟

عليها أن تطرح الحياء جانبًا ولتتكلم.

تقرر ألا تلجأ ثانية لهذا السكوت المتخاذل، فالانتظار إثم تتحمله دون سواها، غدًا يلطخها العار، لا مفر من المواجهة، مأزق وأي مأزق تقع فيه، هل هناك من يمد لها يد العون؟ تنقب وتبحث في ذاكرتها لا تجد.

نادر بدا مغلوبًا على أمره، يحاول أن يكظم غيظه، يتقي عيون البشر المتفحصة ولا يستطيع أن يصفها، يمكن أن تكون غاضبة أو حبلى بالسعادة، يجاهر بالعداء لمن؟ فوضى من الأفكار المتزاحمة تجتاحه، مخاوف من رد فعل لا يدري عواقبه، قد يفلت منه في صورة عمل أو كلمة ربما إشارة، كلام الناس سياط تلهبه وتكويه فيتردد صداها في أذنيه قبل أن تدمي جسده، بسهولة يوم يصل لمسامع الناس اختلافاتهم، أقل كلمة سيصفونهما بها أن يقولوا:

«أولاد حرام».

ماذا تعني تلك الكلمة؟

إنها وصمة عار في جبينهم جميعًا، هل يصفون أمه بالعهر والبغي؟ وكأنها زانية فأي مصيبة تلك؟ أي عقاب من السماء يسقط فوق رءوسهم، تأكله الحيرة، تستمع نورا لكلماته وتتفاعل معه، يشرح لها كيف ذهب الدكتور لأبي دراع حتى مقره في الجبل، كان سيستقبله هنا في البيت ولكن طه صرخ في وجهه وأقسم إن تخطت قدم أبي دراع عتبة الدار فإنه سيقتله ومن سيدافع عنه سيقتله أيضًا، الجميع يعرف بعقل طه الصامت، ولا يتوقف عند هذا الحد بل يتقابل مع مستثمرين ومشترين وسماسرة، يسهر الليل معهم ومن لا يأتي لمقابلته هنا يذهب إليه في المدينة، ربما يعقد صفقات

فما هي؟ لا يدري ماذا يفعل ولا يشاركه في أمر، لا يستعين بأحد ... تتنهد نورا قائلة:

- هل سنصوب أسلحتنا لصدورنا؟

يسرد على مسامعها صراعًا بين عائلتين على قطعة أرض لا يملكانها، يُقتل أحد المتشاجرين، من وراء عملية القتل؟ كل الدلائل تشير أن القاتل غريب، القاتل والمقتول أبناء عمومة، يقسم لها أنه يعرف الحقيقة، دفع أحدهم لأبناء الليل فقتلوا، واليوم أبناء العم الآخرين سيدفعون ...

نورا تعرف كلا العائلتين ومدى ارتباطهما، عندما يقص على نورا الحقائق التي كانت تجهلها تلطم خديها وتنوح:

لقد وصل الحال أن يثأروا من بعضهم على يد مطاريد الجبل، أي مصيبة وفي أي زمان نعيش؟ الحصار قائم حولنا ... تزحف المدنية والمدينة من فوق الكوبري والمطاريد من الجبل ويزحف الأموات من القبور ... تصمت فيسأل:

- هل قرُب موعد القيامة؟

يصف لنورا مدى خوفه وتخوفه، هل يصل بنا الحال أن نتقاتل؟ أبناء الناظر يتقاتلون؟ مَن سيصفه الناس بالشجاعة؟ قاتل أخيه ... أنا ... هو ...

نورا لا تذرف الدموع وكأن دموعها جفت، أم لم تسنح لها الفرصة لتبكي، ذهول ودهشة وألم يعتريها، تسأل عن الحب بين الإخوة، هما من صلب رجل بارٍّ بأهله وعشيرته لو شاء أن يعيش بمعزل عن أهله لعاش معززًا مكرمًا بما يملكه، رجل أعطى عمره وحياته للآخرين، من يتلاعب بهما؟ مغلوبة على أمرها مغلولة يدها بحكم أنوثتها في مجتمع ذكوري، ارتباك واختلاط مشاعر، هل يشقان عصا الطاعة للأب والأسرة والدم؟ أي فضيلة يجاهر بها منهما؟

-٩-

الشتات

في مجتمع يلتحف بعباءة العادات والتقاليد، على نورا أن تساير ركب الحياة، تظن أن حدادها لن ينتهي، ها هي عادت للجامعة إذعانًا لرغبة أبيها وأمها، ترتدي ملابسها السوداء، تعشق كل ما يمت بصلة لرائحة يونس، تعرف الكثير من أقرانه وهم ما زالوا في دراستهم الجامعية، وكأن بعضهم يتحاشى مقابلتها، وآخرون لا يجدون حرجًا فيتقدمون صوبها، في عيونهم حداد بادٍ وكل منهم يتمنى أن يُقدِّم لها أي خدمة تريدها أو تتمناها، تشكرهم وتمضي، تكتسي ملامح وجه أي منهم بعلامات الحزن، لا يرسمون العبوس والتجهم على وجوههم أمامها، ذكرياتهم ترسم معالمهم التي تظهر غالبًا، تبتعد، الوحيد الذي يأتي إلى البيت على فترات متباعدة نمر، يصمم أن يأتي للبيت، يضطر البهلول أن يوافقه، مجرد أن تطأ قدمه البيت هو والبهلول يجري مهرولًا للداخل، لا يستأذن أحدًا يشعر بأن المكان ملكه، يجلسان تحت قدمي الناظر، يقصان أحاديث يستوعبها ويفهمها الناظر جيدًا ولا يفتر ثغره عن ابتسامة، تظل ملامح الناظر مرحبة بمقدمهما، يأمر أن تأتي نورا ويهمس في أذنيها بكلمات، فعليها أن تحملِّهما بكل خيرات موجودة في المنزل، ودائمًا وكما هو معتاد يهب لكل منهما هبته، البهلول يتمنى أن يشكره فهو لا يحتاج لشيء ويشكر نادر على أفعاله، يصمت أمام نظرات الناظر وتغير معالم وجهه، يميل ويقبل يد الناظر الذي يسحبها بسرعة، أما نمر فيأخذ ما يجود به عليه الناظر ويقلبه بين يديه ويدعي بأنه يحسبه وهو لا يجيد الحساب ولا يعرف قيمة النقود، عندما تدخل نورا غالبًا وبمجرد أن تراهما تتسارع نبضات قلبها وترتعش الدموع في عينيها، يبتسمان، نمر ما زالت في رقبته مخلاته التي صنعها من القماش القديم، تحتوي على ملابس

يونس وحاجياته، تنام في حضنه ويقص عليها حكايات لا يعرفها سواه، ما زال ينتظر يونس، يسرد على مسامعهم بعض الحكايات السالفة التي كان يقصها عليه يونس أو الأفلام التي شاهدها يوم أخذه معه، يقص عليهما ضيقه وتذمره من الحذاء الذي يجبره يونس على ارتدائه، وإلا يحرمه من الذهاب معه، وماذا كان يفعل عندما يعودون من المدينة، فما أن تحط قدماه على شط القرية يخلعه ويلقيه ويفر هاربًا حافي القدمين يقفز قفزاته السعيدة الضاحكة المعتادة، وسط ضجيج يونس وأصحابه.

***

كثيرًا ما تمضي في شوارع المدينة بلا هدف محدد، تذهب للأماكن التي اعتادت أن ترتادها ويونس وبصحبتهما مريم، ذكريات تعشقها وتحمل بصمات لا تمحوها الأيام، حتى الأحياء القديمة، الدروب الضيقة بملامحها التراثية التي تعلو غالبًا عن الشارع الرئيسي والتي يصعدون درجاتها من أول الشارع، المنازل فيها مشيدة فيها روعة بناء، المساجد القديمة بأبوابها الضخمة المحلاة بالآيات القرآنية المحفورة فوق الخشب، مقامات الشيوخ والأولياء التي تكتظ بها، كان حريصًا على قراءة الفاتحة كلما مر بضريح أو مقام لشيخ وبالمثل تفعل.

عادت نورا للجامعة بملابس الحداد السوداء، أخفت عينيها خلف نظارة شمسية عريضة سوداء قاتمة تكاد تخفي أغلب وجهها، رجعت للجامعة بمفردها وقرينتها المعتادة ورفيقة طفولتها مريم، يقولون ذهبت لأقرباء لها في القاهرة، في ذهابها وإيابها تشعر بخجل غريب لا تدرك له سببًا، تخاف أن تقع أو تسقط على الأرض وكأن قدميها شبه مقيدتين، تحاول ألا تقرأ عيون الناس حولها، تشعر بتعاسة لا تعادلها تعاسة في الدنيا بأسرها، تلوذ بالصمت وتجاهد قلبها الحزين ألا يئن أمام أحد، تمضي نورا وكأن معالم الحياة انطمست من فوق محياها، تسبح في ملكوت الله وكثيرًا ما تتأمل ظلالها المتأرجحة المترنحة، مرة من سطوع الشمس وكثيرًا من وقع

ضوء المصباح، أكثر من مصباح متحرك فوقها، تكاد تفلت منها آهة ولكنها تحبسها، تطاردها صورة الناظر، فكم كان وسيمًا واليوم سقيمًا فتبتلع أحزانها عليه، الجميع وخاصة المقربون مهمومون، اعتادوا الحركة والفعل والقول في ظلال الناظر وتحت عباءته، متغيرات كثيرة تحدث ولكن من يجابه ومن يتصدى، تتسلل أفكار فتغوص وتتعمق في صدور الناس، الظاهر أنها شيء طبيعي يسير وفق المتغيرات المطلوبة في الحياة، رغم سعة الرزق يتباعدون ربما يتنافرون نظرات ريبة من كل منهم للآخر، ينفضون أيديهم ويشكرون الله على تلك النعمة التي رزقوا بها، الخوف والجبن يجعلهم يجثون ويطأطئون رءوسهم، يحسبون المكسب والخسارة وهو أهم ما يشغلهم اليوم، ينزع الشيخ رضوان وطه فتيل القنبلة الموقوتة التي يتصنع الجميع عدم معرفتهم بها، في كل مجلس يقولان:

«كل ما استجد من منازل حديثة شُيدت كلها فوق أرض تعود ملكيتها للناظر».

يطلق الشيخ رضوان تلك الصيحة ويرددها خلفه الصامت دائمًا طه، تتناقلها الأفواه وتغزو الآذان، وحيرة تركب رءوس الجميع فماذا يفعلون؟ لماذا يطلقونها في هذا الوقت بالذات؟ هل بسبب تمادي الناس في استغلال ما ليس ملكهم؟ أم بسب جحود كثير من أبناء البلد بما فعله الناظر سابقًا، هل يذكِّرونهم بأفضاله وخيره عليهم جميعًا؟ هل كلمات الشيخ تقلق منامهم؟ هل يعودون لحظيرة العائلة وكبيرها؟ هل يعود الزمان للوراء؟ يجلسان يحسبان كل الأمور، يشاركه طه الحديث، داخلهما بركان من الغضب وخاصة داخل قلوبهم على أبناء الناظر، نعم لم يفصح سواء الدكتور أو نادر عما بينهما من اختلافات، حكاية أن الدكتور ذهب لأبي دراع حتى عقر داره أثارت الكثير من علامات الاستفهام ولكن لم يجرؤ أحد على طرح السؤال، أغلب أناس البلد عرفت بأن ثمة علاقة قامت بين الدكتور وبين أبي دراع، ولم تلق تلك الحكاية اهتمامًا يذكر من الناس، الشيخ وطه

يدوِّرَان الحكاية ويفسرانها بأكثر من وجهة نظر، ما أثار حفيظتهما حقيقة موضوع أخذ مفتاح منزل أم نمر، لا أحد يدرك ما يرمي إليه الدكتور، يتكلم الشيخ كثيرًا وطه في كلماته المحدودة، يبدو متأثرًا كثيرًا بغياب البهلول ونمر، يجترّان أحزانهما معًا، لحظات بل ساعات وأيام، الأيام وما أسوأها في تاريخ حياتهما فتلك الأيام تبدو حبلى بالأسى والشجن والألم، يصف الشيخ ما حاق بالبلد كلها وخاصة بعد ذهاب يونس، فكل الدنيا من حولنا تغيّرت، حتى الأفكار تلونت وتلوثت، فالصغار لا يعلمون حقائق الأيام السالفة والفقر المدقع وما تحمله أهاليهم، لا يقلبون صفحات التاريخ وليس العيب فيهم، فالعيب في الكبار يكذبون ويدعون ولا يقصون الحقائق، الكبار عازفون عن الحكي غير راغبين في اجترار الذكريات - كما يقولون - السوداء، الجميع يأكلون بنهم ويلوكون أطعمة لم يتعودوها من قبل، الكبار رغم أن مذاق أطعمة الفقر في أفواههم يتناسون أو يحاولون النسيان.

آهة تشرخ قلب طه، ينظر إليه الشيخ متسائلًا فيقول:

- البهلول وولده نمر.

- هربَا ... قالها الشيخ بتذمر وهو يشيح بيده:

- ليه؟ بسألك يا شيخنا لو الناظر بصحته وعافيته كان مستحيل واحد منهم يفارق البلد ... العفرة والغبار عمت عِنين الخلق يا شيخنا وكل واحد شايف روحه بس ... بدا الضيق واضحًا على وجه الشيخ فاعتدل مواجهًا طه:

- ملعون أبو اللي خلفوهم ... مهابيل ومتخلفين ...

يعمهما صمت ويتمتم طه بكلمات هامسة لكنها تصل لأذن الشيخ:

- قلوبهم بكر ... والجزيرة أرضها بكر ...

يعمهما الصمت، يمد طه يده بكوب الشاي للشيخ، طه اعتاد طوال عمره

ثورة الشيخ ... الشيخ وكأنه يحدِّث نفسه وبين رشفات الشاي تخرج كلماته:

الحساب بعد الموت ... المدافن جنب مننا، كأننا بنتحاسب مرتين قبل الموت وبعد الموت، نتعذب قبل وبعد، آهة يخرجها من بين شفتيه متفجرة بالأسى والحزن، ينظر لطه ... من مات يسرع أهله بدفنه تحت مسمى «إكرام الميت دفنه»، وكثير منهم وكأنهم ينتظرون تلك اللحظة، يهيلون عليه التراب ويعودون مسرعين لاستكمال المراسم أمام بعضهم، وتقسيم الميراث إن وجد، تأتيهم الفرصة وعليهم استغلالها وبسرعة، يشرح لطه في تريث وهدوء وبأسى بالغ يقطر سخرية:

هل تتذكر كم عدد الأيام التي كنا نتقبل فيها العزاء؟

لا يرد طه ويترك الشيخ ليواصل:

كانت سبعة أيام ونحن نتقبل العزاء في موتانا وبعده تطفح وجوهنا بالحزن لأسابيع وشهور، يتنهد الشيخ وتخرج آهته طويلة وهو يقول وتهتز رأسه وكأنه يرتل آيات القرآن:

تقلصت المدة فأصبحت ثلاثة أيام وتقلصت ثانية ويكفي يوم واحد فحسب، اليوم خرج علينا أولادنا والمصيبة من خريجي الجامعات وطالبوا بأن يكتفى بتقبل العزاء على حافة القبر، حتى طريقة الدفن والمدافن التي بنيناها منذ مئات السنين قالوا عنها غير شرعية ولا تمت للأصل الشرعي بصلة، رفضوا كل شيوخنا وتمنوا هدم مقامات حتى أولياء الله وآل البيت رضوان الله عليهم، يخافون الأيام المتسارعة فيسرعون بخطاهم وأفعالهم وكأنهم ظنوا بأنهم سيهربون، يفكرون في بيع الأراضي للقادمين، نعم عروض يسيل لها لعاب البشر جميعًا، المستثمرون يشترون حتى في الجبل ويدفعون أموالًا طائلة، المصيبة أنهم يشترون من أناس لا تملك هذه الأرض وليس لديهم ما يثبت ملكيتهم وأرض الجبل مشاع وهي ملك لكل الناس ولكن في شرائها لا بد من الرجوع إلى الحكومة فهي صاحبة الشأن في ذلك ... يصمت

الشيخ قليلًا وكأنه يسترد أنفاسه، ويطرح سؤاله المباغت على طه:

- هل يفكرون يومًا في بيع المدافن؟

لا ينتظر إجابة من طه، ينظر بعيدًا وكأنه يقرأ في لوح مكتوب فوق الجدار المقابل له وفي تريث:

ستكون عمارات فارهة تطل على النيل، نعم تمتد أثاثاتها بين عظام ورفات الأموات، لكن ليس مهمًّا، المهم قدر المكسب العائد على الجميع، إنها ملايين يا طه، نقود متنوعة بأشكال غريبة عُمر ما تلمس إيدك مثلها ... يبتسم وهو يصفها بالخربشة ... ينعي الزمن الماضي، فيصف ماذا يفعل الناس عندما يدخلون حيز المدافن، كانوا يخلعون أحذيتهم أيًّا كانت ويمشون حفاة الأقدام، فعيب كبير أن نمشي بنعالٍ فوق أرض باطنها وجوفها مملوءة بجثث بشر سواء كانوا أهالينا أم غرباء عنا، ممكن يفكروا في البيع فهذه الأيام لا أستغرب شيئا، يقولون:

«شوية عظام لا تصد ولا ترد».

الحرب قائمة يا طه منذ خلق الله البشر، لكن يوم الحشر يوم يفر المرء من أخيه، يوم الحشر يوم ترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ستحاسبنا بقايا ورفات البشر الذين داست أقدامنا بقاياهم ورفاتهم، ستلعننا وتطالب بالثأر منَّا، الناس نسيت أن يوم الحشر قادم، وكأنهم نسوا الله ووعده وأن وعده الحق، طبيعتنا كبشر نلهث وراء تفاهات الدنيا، هل ترى هناك عدوًّا قادمًا ليحاربنا لا يوجد عدو نحاربه ونقف في مواجهته، لكن داخل صدورنا دعوة للحرب، كيف؟ هل كوننا بشرًا؟ أم ليرفع بعضنا شأنه ويقلل من شأن الآخر، فالمطلوب أن نحارب بعضنا اليوم. يضرب مثلًا بالأمس وما قبله، زمان كانت تبدو البلد أغلب الأيام ميتة، الموت هو السمة الأساسية لشق الجبل طوال السنة، لا فرق بين المدافن وبيوت الأحياء، الجميع هامدون لا صخب ولا ضوضاء حتى عواء الكلاب الضالة الجائعة قليل ولعب الصبية

ضنين، كانت الدروب شبه خاوية، تصحو من نومها والناس بتجري وراء جنازة قادمة، كانت الجنازة تعني الخير وكذلك أيام المواسم والزيارات، كل شيء تغير، ليس في الدنيا مَن في ثراء قارون، لقد خسف به الله الأرض، الرزق كثرونام الناس في العسل واتزرع داخل أجسادهم الكسل، فاض الله عليهم ففاضوا في أفعال بعيدة عن شرع الله، يحبس طه ضحكة فيسأله:

- ماذا؟

- قبضت.

- قبضت إيه؟

ابتسامة فوق وجه طه الصامت تقطر سخرية، الشيخ ليس جديدًا عليه وجه طه أو ابتسامته، يدرك أن وراء تلك الانفراجة في الشفاه سببًا، ينظر إليه فيحيد بوجهه للناحية الثانية ولا تفارقه الابتسامة، يغمرهما صمت، يقطعه الشيخ بتكرار سؤاله الأخير وترديده أكثر من مرة، يرفع طه رأسه:

- إيجار أرض المولد للسنة ديا.

يستعيذ الشيخ بالله من الشيطان الرجيم، يعنف طه ووجهه المبتسم ويحذره أن يكون ساخرًا منه في الحديث، يبتسم طه ويعلن أنه مستحيل في يوم من الأيام أن يسخر من شيخ البلد الأول والأوحد في نظره، ولكنها مجرد تذكِرة فحسب، تهتز رأس الشيخ وهو يسمع ثناء طه عليه ... ويقول:

«الفلوس عكاز للبني آدم، وكل إنسان من حقه يتسند على عكازه، وساعة الجد يضرب بعكازه، المهم عكازه يبقى قوي وصلب». يضرب الشيخ أكثر من مثال عن حاجة الإنسان للمال ويفيض في حكاياته وطه سابح في ملكوت آخر ويفكر في أشياء بعيدة كل البعد عما يقصه الشيخ، كل ما وعاه من الحديث بأن موضوع الإيجار لم يقرروه بعد، وأن كل هذه الأشياء يتحكم فيها نادر، والشيخ موافق من حيث المبدأ على المولد، يشير بطرف خفي بأن البلد في حاجة أن تخلع رداء الأحزان الذي حل بها، لا ينسى أن يشير أن أولى

الناس بالرعاية هو الناظر، يشرح أمنياته بأن يخرج الناظر من تلك المحنة القاتلة، يصف كيف يقلب في عقله وهو جالس معه عن حكاية أو موقف قديم فيه طرفة أو مزحة ليزيح عن كاهل الرجل الألم العالق به.

***

يصمت طه كعادته ويقلب كلام الشيخ في رأسه، يطرح أسئلته عن نفسه، تتزاحم الأسئلة وتتكاثر وهو يحبسها لا يريد البوح بها، الناس تشغلهم حياتهم ومطالب معيشتهم فلا وقت لديهم، يتنهد في صمت معتاد منه ... لو قُدِّر لي أن أكون حاكمًا، أحاسب كل أهل بلدنا قبل أن يحاسبوا في القبور، غالبيتهم لا يعرفون ماذا يفعلون بأنفسهم؟ الناس تجري وتلهث خلف ... يتوقف عن تأملاته التي يصفها بنوع من الجنون، يهم بأن يضحك من نفسه، ولكن تطارده الأسئلة من جديد، يستدرك ما ذهب إليه فكره، وكأنه يعود لما سلف ... كيف أحاسبهم وهم لا يدركون العواقب، يرمي بكل الأفكار التي تهاجمه جانبًا ويحاول أن يشغل نفسه بأي شيء حتى لو كان ليس في حاجة إليه، يجد أمامه ليف نخيل، يتحرك فيبله في الماء ويقطعه لأجزاء صغيرة يفركها بين كفي يديه الخشنتين، يبدأ في صناعة قيد أو رسن لحمار أو بهيمة لمن يحتاجه فهو لا يملك من حطام الدنيا شيئًا، يبتسم وهو يعقد مقارنة بين البشر والحيوانات ... فيسأل نفسه ... هل كلاب اليوم وفية مثل كلاب الأمس؟ يضحك، يحفظ كلمة المقدس سمعان التي يرددها كثيرًا باسم المسيح أو يسوع كما يقول:

«اغفر لهم لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون».

لكن البشر حولنا يدركون ويعلمون ويغمضون أعينهم.

***

نادر في رقبته قيدٌ، عاش يلقي بأحزانه فوق صدر مهجة التي تفننت في إرضائه، فتحت باب العشق والهوى على مصراعيه، نهل من نبع حيويتها

المتدفقة المشوبة بالرغبة العارمة اللاهثة، لا تشعره بذنب وترفع عن رأسه الأفكار السوداء التي كثيرًا ما تسيطر عليه، وكان عليه أن يفتح لها أبواب المكاسب المتدفقة وهكذا استثمرت حبه، أحيانًا تتمنع بذكاء فلا تنجرف ملبية نزواته مجرد أن يطلبها، جعلت باب قلبها شبه مفتوح بعض الشيء لتتأكد من استمرارية حبه وعشقه لها، في الفترة الأخيرة ترتاب في أفعاله وكلماته، يضربها فتقبل يده وكل إصبع فيها وتغرقه بسيل دموعها المنهارة.

ينتفض في بعض الأحيان تعتريه مشاعر غريبة متناقضة، فيشعر وكأن أنفاسه متلاحقة ويشعر باختناق غريب، يحاول الإفلات من هذا الغموض الذي يضغط بقوة على رقبته فلا يستطيع التنفس، مجرد السعال لا يستطيع، السواد والضباب يغمي عينيه، يتمنى الخروج للشارع للفضاء، تتسارع نبضات قلبه ورذاذ العرق يطفو فوق جبهته، رعشة غريبة وبرودة تسري في شتى أنحاء جسده، يحاول السيطرة على أطرافه حتى لا تلحظ مهجة ما حل به، يسرع الخطى للخروج، يمضي يتركها وقد أعدت له كل ما يشتهي وارتدت ما يلهب مشاعره وغرائزه، لا يهتم بكل ما فعلته فيمضي لا يلوي عن شيء.

***

حدثوه عن الزواج والأولاد، العمر يجري ووريث يحمل امتداد الأسرة مطلوب، لا يستطيع أحد أن يجبره على اتخاذ قرار لا يحبذه فرأيه دائمًا من رأسه، طالته أحلام كثيرة متباينة وشبح الموت كان ساكنًا داخله فألقى بظلاله عليه حتى في الأحلام، راودته أفكار بشأن الزواج، بدأ يشعر بالوحدة رغم التفاف أقرانه وتابعيه حوله، أصداء صرخات الحزن المكتومة تتردد داخله، عاد لاستحلاب الأفيون وتدخين المخدرات المعتادة وغيرها، ولكن الأصداء تتردد حتى في ساعات سكره وخاصة بالليل، عليه أن يجد ونيسًا يقتل وحشة الوحدة وآلامها، ونيس لا يتسلل إليه كما السارقين واللصوص، أخيرًا نزح بفكره لدنيا الزواج، تحدثه نورا في الأمر وأن رغبة أمه التي ترددها

دومًا أن يتزوج، تتمنى وتدعو من صميم قلبها أن ترى أحفادها منه، يعاند ظاهريًّا وتجتاحه الحاجة، مجبر أن يفكر برؤيتهم وفي ظل الامتداد الأسري الذي يرغبونه وبدأ يلح عليه، الشيخ رضوان وطه يحفزانه، المنزل في أمس الحاجة لبعث مظاهر الفرح من جديد، يمكن للأفراح أن تزيح وترفع بعضًا من ستائر الأحزان وخاصة عن وجه الناظر وربما عن قلبه وكذلك أمه.

ضجة وضوضاء وتوتر وصخب تجتاح رأسه فتحرمه من النوم، يقلب الأمر على كافة وجوهه، عليه أن يتحمل عبء الزواج المفروض عليه.

عندما جلست ضاربة الودع الغجرية تحت قدميه وهو بين أصحابه سألته ...

- اسمك يا زينة الرجال ...

لم يشأ أن يتحدث إليها، أمام إصرارهم أذعن وهمهم.

- نادر ... يا ستي

- سيد الناس وراكب قلبهم قبل راسهم، وحيد وليلك طويل وقلبك حزين وما ليك غير بنية ما بتشوفها ولا بتسأل عنها، أمها أصيله وحالفه ما تكون لغيرك من الناس، فاتت سنين حوالي عشرة، وليفك الأولاني قلبه زي اللبن الحليب ووليفك التاني عقرب السم بيخر من ذنابه في الرايحه والجايه، فتح عينيك وشوف بقلبك، عيالك في عين العدو خمسة غير بنيتك البكرية الوحيدة ...

تطالبه بأن يرمي بياضه، يتردد كثيرًا وشيء داخله يدفعه أن يسمع لمزيد من حكاويها، لم يدم تردده كثيرًا فناولها عشرة جنيهات قلبتها في يدها ومعالم على وجهها أنها رفضت المبلغ فزاده للضعف وهو يبتسم، راحت تعلي من قامته وقيمته في كل الدنيا وخاصة بين أهله وناسه.

- وشوش الدكر.

أخذ من يدها قواقعها الحجرية وسألها عن زواجه وما مدى وصدق وقوعه، وأعطاها الأحجار فألقت بها فوق منديلها المفرود ومن فوقه رمال حباتها كالتبر الذهبي اللامع.

تتأمل الأحجار وما تلبث أن تنظر إليه وتبتسم قائلة:

- خمسة في عين العدو من صلبك، ما يعدي عليك الحول وحداني، فرح وهيصه وقلب الغاليه مكسور هتفرحه والأصيل ربنا يبارك فيه بيدعيلك ... تصمت وتنظر إليه وكأنها تسأله أن تقول الباقي فيشير عليها أن تقول كل ما تريد ... تستطرد ... غريب مسافر من دمك جه ورجع بعد غياب طال، قلبه متغير وفكره متعكر وسواس الوساوس آكل مخه، طمعان ومنك غيران ...

يطالبها بأن تكتفي بما قالت، يخاف آذان أصدقائه لا يحب البوح بخلافاته مع أخيه لأي إنسان، يشعر بالحرج، تمضي ضاربة الودع، يشعر بأن شمعة تضاء داخله، رغم ضوئها الشاحب تحيل فؤاده الذي تتوغل فيه علامات اليأس والقتامة إلى نور يتسلل في يسر وهوادة.

يحاول أن يقتل تلك الأفكار الخاصة بالزواج، يذهب ليقتل وحشة الوحدة وينزح في دنيا العشق والغرام، تستقبله باشة الوجه وتطلق بخورًا فيمتلئ المكان بالعبق، ترتدي أجمل ما لديها وما تعشقه عيناه، تقوم على خدمته، ترقص وتفعل ما يريده، تدور حوله وتفيض في فضح مشاعرها عندما يهجرها ويتركها، تستعد وتسحبه لساعات لهوهما، صرخات وتأوهات مهجة لم يشعر بأنها نتاج شبق، اليوم يشعر بأنها تؤدي دورًا في تمثيلية تتلقى أجرها بعده، شيء غريب يسيطر عليه، هل فتر حماسه؟ أم قل احتياجه للمرأة عمومًا؟ أم أصابته ... شيخوخة مبكرة ... أم ضعف؟ حيرة تأخذ بلبِّه ولا يستطيع منها فرارًا.

عندما طوقته بذراعيها شعر وكأنها تشد حبل مقصلته حول عنقه، تحاول أن تجره لدنياها في وله شعر بأنه مصطنع وكاذب، تعيد الكرة ولكن مشاعره

شبه تجمدت، لا تلقي سلاحها بسهولة، هو يتمنى ألَّا يؤذي مشاعرها، يقسم لها بأن هذا غصبًا عنه، يحاول أن يختلق الأعذار ولكن لا تسعفه الكلمات فيغادر المخدع ويرتدي ملابسه على عجل وهي شبه خرساء، علامات الدهشة والانزعاج تحاول أن تمتصها وتصنع ابتسامة وبدا أنها صفراء بلا روح وتطالبه ألَّا يمشي وهو على هذه الحالة، يمضي لحال سبيله ولا ينظر خلفه.

يشعر بحنين غريب لابنته منذ ما يقارب عام ولم ير وجهها، بشرتها الناعمة كأوراق الورد وابتسامتها المتألقة بالفرح تداعبه أثناء مضيه في الطريق، كيف نسيها كل هذه الأيام؟ كيف كان يهرب أغلب أيامه السالفة؟ المكان الوحيد الذي يشعره بالخير هي الجزيرة وإليها غالبًا يذهب، يكلف النوبي بشراء كل طلبات البهلول ونمر ويأتي بها للجزيرة، طقوس اعتادها وواظب عليها مع البهلول ونمر، يظل نائمًا حتى ينتهيان من تجهيز طعام العشاء، يطهيان اللحوم والبقول، البهلول يجيد الطهي ونمر أصبح خبيرًا في الشاي وإيقاد النيران، للأكل بينهما مذاق خاص لا يشعر به في البيت أو في أي مطعم في المدينة، لا يمانع أن يأتي أي زائر، يتقاسمون الطعام، غالبًا يشير عليه نمر بأن يأتي في الغد فقد اعتاد نصب شباكه ويصيد الكثير من الأسماك التي يحبها، النوم في الجزيرة له مذاق خاص، هواء رائق غير محمل برائحة المدافن، هواء يحمل بين أتونه بخار النهر ورائحته الذكية، نعم هو يحب النهر ولكنه خطف أعز الناس إليه، يجلس في المساء ما دام كان في الجزيرة ويطرح أسئلته على النهر وأين يخفي يونس، طوال النهار يجلس نمر على حافة النهر وقد صنع مخلاة جديدة صغيرة ووضع بها ملابس يونس، كثير من أكوام الحطب والأغصان الجافة منتشرة على حافة النهر من مختلف الجهات، يعلم أن نمر يجمعها وينتظر لحظة قدوم يونس، يحتفظ على الدوام بعلبة الثقاب ليشعل النيران ليستدفئ صاحبه العائد من بطن الحوت أو التمساح كما يقول، حالة نمر هي الحالة الوحيدة التي ترجف جسده كلما أتى للجزيرة ولكنه لا يستطيع التخلي عن أرض الجزيرة ولا عن

البهلول ونمر، كثيرًا ما يوصيه الناظر عليهما وأن يقدم لهما ما يطلبان، لا يتأخر عنهما ويسعى جاهدًا لإرضائهما.

مجرد أن ترك منزل مهجة حَمَل الكثير من الطعام الجاهز والفاكهة واتصل من هاتفه النقال بالنوبي على أن ينتظره على شاطئ المدينة. الليل وسطح النهر ومداعبات أمواجه القليلة، يسبح في الدنيا والنوبي يقص عليه حكاية الفتى الذي نهشته ماكينة تقطيع الأحجار فمات على الفور، وأنه من قرية على الجانب الثاني من النهر، يفيق ويسأل النوبي عمَّا قال، يعيد سرد الحكاية من جديد، يشعر بالألم ويتذكر أقاصيص القدماء بأنهم قبل تشغيل الماكينة عليهم بتقديم نذر وإراقة دم بشري وخاصة بكر، أبوه كسر تلك المخاوف والتخاريف يوم بدأ تشغيل الطاحونة، يبتسم في مرارة وهو يقص على النوبي أن تلك الحكايات القديمة لا أساس لها من الصحة وكلها أكاذيب، يقسم النوبي بكل ما هو مقدس بأنها حقيقة وبأن الحال سيستمر وكل أسبوع سيراق دم إنسان في المحاجر، فيسأله نادر عن السبب في الطاحونة التي دارت بدون دم، ولا إراديًّا وبعفوية مطلقة ...

- أوووه يا سيد الناس ... الطاحونة كانت السبب إن النيل خطف زينة شباب البلد ... يو ... يتوقف قبل أن يكمل الاسم فيصمت ولكن يشعر بحرج بالغ، يحمد الله أن الأضواء غير جلية فيرى ما حدث من تغيرات فوق وجه نادر.

***

جمعت نادر ونورا جلسة المساء الصامتة قليلة الحدوث، تحاول دائمًا أن تكسر جدار الصمت بأي أحاديث، غالبًا هو سابح في دنيا أخرى ويتصنع الإنصات لها، يقلب الأمور على كافة وجوهها، فماذا يريد أخوه؟ إن كانت القضية حاجته للمال فسهل جدًّا، هو على أتم استعداد أن يعطيه ما يريد، أحاديث أخيه غريبة لا تبقي على الأخوة بينهما، أفعال يأتيها لا تتناسب ومكانته العلمية أو دوره ووضعه بصفته الأكبر في الأسرة. أفعال وأقوال لا

يشعر منها سوى بتفاهة مبتذلة وكأنه يتعمدها، يخلط الأمور ببعضها ولا يفرق بينها، أفكار كثيرة تنهش عقله، هل تصل اختلافاتهما لحد المواجهة؟ لا تحتل ذاكرته سوى أحاديث الناس التي ستتردد وستكون سلوى يتسلى بها أهالي البلد، كلمات كثيرة تفوح منها اللعنة وقلة الأصل، لن تتوقف ألسنة أقرب المقربين في ترديد أقاصيص وحكايات ويمكن أن يختلقوا الكثير في نفس السياق، من يدرك الحقيقة؟ هل يجابهه؟ عار كبير سيظل ملتصقًا به طوال حياته بل سينزل القبر معه يوم مماته، تحاول أن تدق باب ذكرياته بأفعال يونس الذي مضى، تختلق حوادث رغم أنها تشعر بتفاهتها ولكنها مجرد محاولة أن تستشف من خلال حوارهما ما يدور في خلده، تنتقل بالحديث لجهة أخرى، تحدثه عن ابنته وزوجته التي أقسمت لها وأمام أهلها بأنها لن تكون لإنسان آخر سواه حتى مماتها، تدق باب قلبه الذي تهزه كلماتها فيرتعش ويرتجف فؤاده، تتحدث عن زوجته بحب غريب وتصفها بصفات قليلًا ما تتوفر في أنثى، وتصف ابنته وساعة أن تلقي بجسدها بين ذراعيها وهي تهتف «حبيبتي عمتي» تتقطع الكلمات وتتناثر الحروف وتمتلئ عيناها بالدموع، تحاول أن تلقي باعتذار وتحاول أن تمضي، يطالبها أن تجلس، تختنق العبارات داخل حلقها، تمتد يده إليها بكوب الماء، تنظر إليه وتتقابل عيونهما الحبلى بالأخوة والمحبة، تأخذ منه كوب الماء، تميل على يده الممتدة إليها بالماء تقبلها فتتساقط دموعها، تنفر عروقه فيسحب يده ويقبل رأسها، تتجرع الماء بتريث ونظراتها تستأنس بأخيها وتتمنى أن يحدثها بما يرفع عن قلبها الكدر والخوف الذي يلازمها الليل قبل النهار، بداية كان يبدو ويغلب عليه مزاجه المتعكر، في حديثها المشحون بالمواساة والعطف يصفو رويدًا رويدًا، فترتد إلى وجهه ابتسامة أيا كانت من القلب أو مصطنعة تدخل شيئًا من السرور عليها، يحدثها عن هروبه المعتاد إلى الجزيرة وكيف تكون الساعات مع نمر ووالده البهلول، كم الطمأنينة والراحة التي يشعر بها، يستأنس بحكاياتها عن زوجته وابنته فيدفعها أن تقص عليه، يشعر بحنين غريب لابنته، يتذكر حكايات الغجرية ضاربة الودع، يرجع لوجهها

تألقه وابتسامته، فتصف أولاده التي تنبأت بهم ضاربة الودع وتقول:

«خمسة وخميسة في عين اللي ما يصلي على النبي».

تتوافد الأحاديث ترفع عن وجهيهما قناع الحزن للحظات، تتحدث نورا لنادر عن الحوادث شبه الإسبوعية التي تحدث في المحاجر، اليوم الحداقة قطعت ذراع شاب من قرية ومن ثلاثة أو أربعة أيام سير الماكينة بتر ساق رجل غريب، وسمعت عن فتى من قرية على الطرف الثاني للنهر جزت رقبته ومات في الحال، تصف بأن هذا جرم يرتكبه أصحاب المحاجر ومن يساعدونهم، تعرف أن أخاها هو الرأس الكبير لكل أصحاب المحاجر وأن كل من يعملون تحت إمرته هم من يستأجرون ويكرون العمال من البلاد البعيدة ويقاسمونهم في الرزق، لا يعمل أي إنسان إلا تحت إمرتهم ووفق الشروط التي يضعونها، يحاول أن يوقف سيل حديثها الثائر المتدفق بالحمية والإنسانية ولكنها لا تتوقف، وتطرح فكرة التأمين على العمال القادمين من خارج البلد أو من البلد، عدد قليل جدًّا من أبناء البلد الذين يعملون في رفع الأحجار أو نقلها أو رفعها فوق السيارات القديمة المتهالكة، سيارات نقل عفا عليها الزمن تنقل قوالب الحجر الجيري حتى المراكب، تلك السيارات تتسبب في الكثير من الحوادث بدورها، لا تحمل أي أرقام أو لوحات معدنية وعوادمها تزكم الأنوف والدخان الخارج منها يعمي البصر، يحاول أن يسكتها ويشرح لها أن السيارات المتهالكة ملك لأبناء البلد وأنها تفتح أبواب رزق على أصحابها، لا توافقه على رأيه، يبتسم ويربت على كتفها وهو يقول:

«في دورة مجلس النواب القادمة سأطالبك بالترشح إن شاء الله».

تقسم بأنها لا يهمها أن تكون عضوة في مجلس النواب أو غيره ولكن ما يهمها الإنسان، تطرح رؤيتها ولا تستسلم، تواجهه مباشرة وكأنه المسئول عما يحدث، فماذا يفعلون مع المتوفى؟ كم يدفعون لأهله؟ جنيهات معدودات وهناك من يكتب التقارير عن حالة الوفاة بأنه لا يعمل والحادث

قضاء وقدر، لماذا لا يبحثون لتأمين غدهم؟ يهدِّئ من أعصابها ويخبرها بأنهم غير مشاركين في التأمينات، العامل لا يعمل كل يوم، يرجو الحصول على مائة جنيه كاملة لا تنقص قرشًا واحدًا، لو طالبته بجنيه واحد للتأمين هو من يرفض ذلك؟ ولا نستطيع أن نجبر أصحاب ومستغلِّي المحاجر عن التأمين عن كل العمال القادمين للعمل، يقولونها سيخرب بيوتنا هذا الفعل، يمكن أن يتركوا المحاجر ويفروا، ولو انسحبوا من العمل وسحبوا معداتهم سيحل البلاء على البلد بأسرها، تسأله بأنها تعرف أن مقاولي الأنفار يدفعون للعامل يوميته نصف ما يحاسبون عليه أصحاب المحاجر، فقراء يستغلون فقراء جريمة كبيرة بكل المقاييس، تتهم نادر ولكن بصورة غير مباشرة بأنه مشارك في تلك الجريمة، وكل المقاولين يعملون تحت إمرته وبإشارة منه، يصمت ويتداول عقله حديث نورا، لا ينكر أن له دورًا، إنها مصيبة فيما تقول، لكن كيف يشرح لها أن ما يتم حجزه من المبالغ يُقسَّم بأجزاء متفاوتة على أكثر من شخص من داخل البلد، فللمخبرين والجنود والمحليات حتى قوة الشرطة مبالغ تقدم لهم في صورة خدمات، لا ينسى أن يخبرها بأن للمطاريد جزءًا من هذه المبالغ وخاصة أنهم يقومون بحراسة المحاجر المتطرفة في أغوار الجبل، لا توافقه في الرأي لكنها فتحت له باب التأمل في خطأ يشارك في صنعه، يصف لها كم الأعداد القادمة من أطراف المدينة أو القرى المتعددة على الجانب الغربي، تشعَّب الحديث.

طرقات خفيفة ويدخل الدكتور يحيهما وهما ما زالَا يتحدثان عن حق العمال، رغم عدم إلمامه بأطراف الحديث، يخوض الدكتور ويلقي بأفكار الدول الاشتراكية وكيف حافظت على حق العمال والفلاحين، يقول كلامًا غريبًا لا يؤمن به إطلاقًا، يهتز رأساهما إعجابًا بكلماته التي تروق لهما وخاصة نورا، بخَّ من فمه كلمات فأثارها بأنه ما المانع وهي جامعية وهذا من صميم عملها أن تخرج من قفص الحريم وتتكلم وترفع صوتها لكل المسئولين في البلد وليكن ما يكون، يسأل وكأن سؤاله متعمد وهو ينظر لنادر:

«هل تلك القرية جمهورية لها قانونها الخاص؟».

يحاول نادر أن يشرح له بأن هذا خير ساقه الله لتلك البلدة دون سائر البلاد، وأن البلد عانت كثيرًا من الفقر سابقًا، فهل يشاركهم رزقهم القادمون من الطرف الثاني للنهر؟ يتحدث عن حرية البشر ولماذا لا تمنح لكل الناس؟ تنتفض نورا وتطالب بحرية الجميع من ذكر أو أنثى، يدافع نادر عن كم الحرية الموجودة في القرية خاصة، اليوم أصبح كل الناس في حِلٍّ من ارتباطاتهم، سقطت حتى العلاقات العائلية بين الناس، الكل يسعى لمزيد ومزيد من الكسب والمال، فالجميع يغرقون في النعم لا يفكرون سوى في أنفسهم وحريتهم كما يسمونها، في صوت بالغ الأسى تقول نورا:

«الحرية ... طائر جميل منتوف ريشه في بلادنا عمومًا ... محبوس ومقيَّد على الأرض ... حرام أن ينبت له ريش ويكبر ويطير في السماء ... حرام يطير ... رغم إن ربنا سوَّاه وخلقه طائر عليه أن يرفرف بجناحيه ويطير».

في حوارهم لا تدري من القائل ومن المستمع:

- ناس بلدنا خلعوا ملابسهم القديمة.

- موضة.

- زهقوا من الفقر وأيامه.

- حقهم يمشوا ولو عرايا ... حرية.

- لأ ... اتغطوا بتوب جديد منسوج ومستورد من بلاد بره، حتى ألوانه مش راكبة على لون وشهم.

- حاجة بتلمع في ضلمة الدنيا.

- نسيوا حتى الموت.

- زمان الناس كانت تنتفض ساعة ما تيجي سيرة الموت.

- مش خوف من الموت ... خوف من ساعة الحساب وعذاب القبر.

يلقي الدكتور بتبعية أفكار وتناول البشر في بلدهم أو البلاد الأخرى على أجهزة الإعلام الفارغة، وكبار المثقفين والمفكرين ممن يتحدثون باسم الحرية وحق الحياة وهم أكثر البشر كذبًا ونفاقًا، يعيشون بعيدًا عن البشر، العيب ...

ضحكة نادر تكسر جمود الموقف وتوقف استطراد أخيه:

- طبعًا سيادتك محسوب على المثقفين.

يتهمه الدكتور بأن أفكاره سطحية، فهو لم يفارق شق الجبل ولم ينل حظًّا من التعليم، يصفه بأنه امتداد لأفكار أبيه، يثور نادر وتبدو نبرة كلماته رافضة وصف أخيه، يتمادى الدكتور وهو يصفه بأنه أكبر المسيطرين على قدر تلك البلدة بأفكاره الباهتة التي لا تتعدى ... يقاطعه نادر، يرجوه عدم التمادي في كلماته وأنه يستطيع الرد، توقف نورا سيل حديثهما الغاضب وهي تتوسل إليهما بأن يتذكرَا أبيهما وأمهما وبرحمة يونس أن لا يصل بهما الاختلاف والحوار لتلك الدرجة، تستعطفهما.

يطفح على وجه الدكتور التوتر وهو يخطو بخطواته ناحية الباب متوجهًا للخروج، يقف وهو يقول:

- فرحان إن أباك كان بيأكل الناس من خيره، كان كل همه ما يبقاش في الصورة حد غيره ... هو الكبير ... راعي الغلابة ... مالنا احنا ومال الناس إن شالله يغوروا في ستين داهية، حقنا وثروتنا منهوبة وناس بتاكل ولا تحمد ولا تشكر ... ليه؟ ملعون أبوهم ... الدنيا اتغيرت لازم نشوف حالنا ...

يخرج ويغلق الباب خلفه بقوة.

يتبادلان النظرات، كيف يترجمان ويفسران كلمات الدكتور المثقف الواعي والأستاذ الجامعي، إنه ينتقد سلوكيات أبيه، يفكر بصورة يغلب

عليها الأنانية وحب الذات.

***

يتجرع رشفات من الخمر، يفتح النافذة التي تطل على حديقة القبر القصر الذي لم يكتمل ويتساءل:

هل تسير الدنيا إلى حتفها؟ البشر خلفاء الله في تلك الدنيا!!! قُتل الملايين هل توقفت مسيرة الدنيا؟ هل توقفت الشمس؟ الدنيا ما زالت على حالها، الرذيلة تجر أذيال نجاسة البشر خلفها بلا حياء، وفي العلن ... نهم غريب ... وعمر قصير ... علينا أن نبتعد عن الأرض بقدر الإمكان، يضحك ... يقولون منها خلقنا وإليها نعود وما بين البداية والنهاية تربطنا فلا نفارقها!!! تجذبنا بقيودها وعلينا أن نجد وسيلة نرتفع بها عن الأرض ونحن على قيد الحياة، قال أحدهم يومًا إن الأرض تمتص رحيق أفكارنا وحياتنا، أمنا تخاف علينا تحتضننا وتحتوينا وتقبرنا وتنهينا، أنا لا أحب الموت، أعشق الحياة بلا هدف، على كل الطيور المحملة بآمال الحرية أن تفلت من قفص العقل والقلب، على الإنسان أن يتوحش ليعيش، وعلى العشاق البلهاء أن يدفنوا رءوسهم حيث هم في رمال في المياه أو في التراب وربما الثلج، ستأتي عاصفة زاحفة فوق سطح الأرض فتأخذ كل الأجساد وتقذفها بعيدًا وتتبقى الرءوس تحت السطح، تمضي الأجساد بلا رءوس ... كم أتمنى أن أرى هذا المنظر، إنه حادث حقيقة فكثير من البشر يعيش بآفاق مَن ماتوا، يلتمسون منهم المعرفة في تلك الحياة الحديثة بكل مفارقاتها.

عيناه تحدقان بثبات غريب في السقف وكأنه يستجير أو يبحث عن حل، وتعاوده ذكرياته

يتذكر لحظات شبقه وجنونه، عشيقاته لا يستطيع حصر تعدادهن، لم تفلت من بين براثنه حتى خادمة منزله الخمسينية العمر، لا يوجد فيها ما يغري الذئب على افتراسها، التهمها يومًا وصرخت في البداية وبعدها

استكانت، يومها شبَّه نفسه بأنه باعث الحياة إليها، ففي المرة التالية، كانت تعمل في المنزل بعد أن أرخت ستائره وكانت شبه عارية وتغني بصوت يقترب من النواح، يضحك ولا يكسر بخاطرها ويمارس من جديد، ساعتها قالت له ووصفته بأنه أعاد إليها عشق الحياة، صارت تحبه وقالت له إنها تعبده، يضحك من حديثها، في المرة التالية يصفعها ويطردها من المنزل.

ليس في أفكاره ما يبشر بملامح غد وردية، ابن اللحظة والنشوة في أغلب الأحيان، لم يلم نفسه على فعلٍ، فالحياة هي مرة واحدة فحسب، ينحِّي الحب جانبًا من حياته ويرفض أن تتملكه امرأة واحدة أيًّا كانت ... يدعي ذلك.

يسميها لحظة حب مدفوعة الثمن، كثير الشراء لساعات العشق، يضحك وهو يدفع الحساب بالساعة أحيانًا، يسألها:

«كانت هناك استراحات المفروض أنها خارج الحساب».

يضحك بشدة وهو يتذكر كيف شخرت له وصفقت بكفيها وتلك الإشارة المميزة بأصبعها الأوسط، وهي تقول:

«أحسبها من ساعة ما دخلت برجلي باب بيتك».

وفي النهاية تأخذ حسابها ويزيد، يضحك من ذكريات القطط الشاردة كما يسمونهم.

يلقي باللوم على بدائية أفكاره المتولدة من حنايا شقوق الجبل ومقابره، يرجع بالسبب الرئيسي لبلده التي أورثته هذه الأفكار المجردة من معاني الحب أو حتى الإفصاح عنها، هل خوف تولد لديه من النساء أم حب؟ هو قليل الدخول إلى حجرة أمه، قليلًا ما يتحدث معها، مرسوم داخل عينيها ذكريات نزوته الأولى وتحرشه بناعسة التي كانت تساعد أمه يوم كانت تنظف حظيرة الطيور، يوم سحبها كثور هائج ولم ينقذ الفتاة من بين براثنه سوى صفعات أمه فوق وجهه بكل ما آتاها الله من قوة، فر هاربًا ولأسبوع

كامل يتحاشى لقاء أمه رغم وجوده في البيت، لم تأت ناعسة للبيت ثانية وتزوجت ووهبتها أمه الكثير.

كثيرات ممن عاشرهن كن مثيرات للقرف، رائحة النتانة تفوح من أعضائهن المخفية، لكنها لحظة الشبق والجنون فتذهب حاسة شمه وتتملكه شهوة اللحظة وبعدها تعود إليه حاسته من جديد، عندما تسيطر عليه الحاجة للجنس يشعر باضطراب غريب يتملكه فلا يستطيع النوم، رغم ما يحتسيه من شراب مسكر لا تغفل عيناه، يبحث وينقب ويمكن أن يظل طريح الفراش بلا نوم لثلاثة أيام متتالية، ساعة أن تأتيه إحداهن وما أن يقضي حاجته منها يطالبها بالرحيل، فقد ذهب عنه ما يعكر مزاجه، ينام بعدها ملء جفنيه، كان يحتفظ بأكثر من رقم لهواتف القطط الضالة، لكن ليست كل الأوقات مناسبة لهن، ينتظر وينتظر.

كان يبرر لنفسه عدم زواجه لحالة الجنون والهوس التي تعتريه، رغبة جامحة يعقبها في الغالب قرف شديد ولا يلبث على حاله ويذهب في سبات عميق جدًّا، هل يستطيع أن يتزوج وبعد أن يقضي مرامه يطلب من زوجته الخروج من الحجرة وترك المخدع له لينام!!! يحاول أن يجد لنفسه المبررات والأعذار فيفسرها بأنها حالة مرضية وبالتالي فجرم يرتكب يوم يفكر في الزواج، هو لا ينكر برودة مشاعره وبالذات قلبه، فلا يتألم بألم الآخرين، فإن تمسحت بقدمه هرة صغيرة أو استجارت لا يبالي وبسهولة بالغة يمكن أن يركلها بعيدًا، ويقول:

«على الإنسان ألَّا ينتظر الرياح لتحرك شراع مركبه فأين ذهب عقله، عليه استنفار قدراته ويحدد طريقه ... نعم اخترع الإنسان آلة بدت بخارية وتطورت واستخدمها وتخير طريق مركبه، دفعت الآلة مركبه عكس الرياح، هذا هو الإنسان».

الغد مبهم والمصير يكتنفه الغموض، يقلب الأمور على كافة وجوهها، يشعر بأن له الحق في أي فعل يأتيه، الغد قادم ويحمل بين ذراعيه الأمل

والكفن، فلم يأت بعد موعد الكفن، الأمل هو الوليد القادم مع الانتهاء من بناء الكوبري وهجوم سكان المدينة إلى شق الجبل ابتغاءً للراحة والبعد عن الصخب والضوضاء، القادمون سيكونون من كبراء وأثرياء القوم ويطمعون في قصور حديثة يدارون بها حقيقتهم، أغلبهم بلا إرث عائلي، أغلبهم نتاج لعمليات السرقة والفساد والنهب الذي أصبح سمة أساسية في الحياة، الوصول دائمًا أهم أسلحته في هذا الزمان الكذب والفساد، هكذا يصور الدنيا من حوله، هو يؤنب نفسه أيضًا لكنه لا يجاهر أمام الآخرين، هو معترف بأنه شخصيًّا منظومة فساد قائمة بذاتها، يقلب في أوراق الآخرين من حوله، أبو دراع مثلًا، عندما يقص عليه ...

ذكرياته عن بيتهم الصغير في قريتهم البعيدة عن موطئ قدميه اليوم، منزل مشيد بالطوب اللبن، أمامه أكثر من شجرة صفصاف، مجرى الترعة أمام البيت مباشرة، أسراب من الوز والبط الكبير والصغير ذي اللونين الأصفر والأسود المحلى بالأخضر، كيف تتهادى وتمشي وتنطلق وتلقي بنفسها في مياه الترعة، صيحاتها وضوضاؤها تعيش داخل أذنيه وكأنها موسيقات تُعزف، يحكي عن لحظات عشقه وجلوسه على حافة الترعة وعلى صنارته التي يصطاد بها الأسماك، صغيرة كانت أم كبيرة، يسأله ساعتها هل هناك فرق بين غذاء الإنسان المعتاد وما يصيده أو يقتنصه بيده؟ لا يعطيه فرصة للإجابة ولكنه يتولى الحديث، أيًّا كان نوع الصيد فقمة الجمال أن يشعر الإنسان بصيده، عندما تهتز الصنارة في يده ويسحبها بصيدها، فرح غامر يرجف الجسد كله، تلك الأسماك الصغيرة لها طعم جميل في تناولها، يصف له الفخاخ التي كان يجيد نصبها لليمام والعصافير، وكم كان شهيًّا طعمها وهو يشويها بعد دفسها بالكامل داخل فرن النيران المتوهج، ويطرح سؤاله من جديد ولا يبغي إجابة من ورائه، هل يصطاد الأطفالُ اليوم العصافير؟ هل يأكلونها أم يرمونها أو يطعمون بها قططهم وكلابهم؟ آهاته المصاحبة لكلماته لا تعكس تلك الابتسامة الواسعة المصطنعة، يواصل:

آآآآآه ... هم نائم في أحشاء القلب، مجرد أن ترفع الغطاء تتصاعد المآسي ويغرق الدنيا ضباب أسود كثيف، دخان لا يظهر من بينه سوى أشباح الماضي مكللة بالسواد، يدهسوننا متى أرادوا، يعاملوننا كديدان صغيرة تعيش في الطين وتتغذى على الطين ... يضحك بشدة وهو يصف له أن الديدان كنا نعلقها في الصنارة لنصطاد بها السمك الصغير، أما بالنسبة لهم فنحن ديدان وكثيرًا ما نكون طعمًا معلقًا في صنارة السادة والكبراء، تكون أجسادنا وحياتنا غالبًا طعمًا يصطادون به سمكًا متوحشًا كبيرًا، لا حول لنا ولا قوة، علينا أن نستسلم لأقدارنا وسادتنا ... مَن المظلوم؟ أنا قتلت، لكن ما هي دوافعي للقتل؟ هم من ضغطوا على الزناد وأطلقوا الرصاص، الحقد الذي صنعوه داخلي هو صاحب الفعل فمَن المجرم؟ أنا أم الزناد؟ هرب أبي خوفًا، اتهموه بالسرقة ومهما دافع عن نفسه ستركب الجريمة رأسه؟ لهم عذرهم كان عليهم أن يلقوا التهمة على إنسان، على شخص محدد أمام أعين القضاة العارفين بالحقيقة ولكن يغمضون عيونهم عنها، يقولون ها هي أوراق تؤكد صدق الدعوى، لا جُرم عليه يحكم بأوراق أمام يديه أو بينها، أوراق يصيغها الكبار وفق رؤيتهم ولا دخل للصغار والضعفاء إلا التسليم بحكم القضاء، يجب أن يكون هناك مجرم، ليس هناك من هو أقل أو أدنى منزلة ومرتبة في البلد كلها من والدي، جرُّوه وسحبوه، هرب ولم يعد، كانت الضربات قاسية موجعة، كان من الممكن أن يعترف بالجريمة التي لم يرتكبها، لكن قسوتهم وتجبرهم على إنسان فقير وأعزل كانت رهيبة فلم يتحمل، هرب وكان يأتينا في ظلمة الليل، رغم هروبه كان حريصًا أن يأتينا بقوتنا في تلك الأيام السوداء، قد يغيب لشهر كامل ويعود، اعتاد أفعالًا كانت عليه غريبة، تهاجمنا دورية الليل، ضابط لا أنساه ما حييت يطلقون عليه لقب «الدباح» وبعد أن يقلب البيت رأسًا على عقب، كنت أعي جيدًا، نظر الضابط لأمي الحامل، وسألها عن موعد حضور أبي فأنكرت، سألها ثانية فأجابت إنها لا تعرف له طريقًا ولا مكانًا، بسخرية لاذعة وهو ينظر لبطنها المتكور الحامل لأخي الأصغر، ضحك

ضحكة شيطانية وامتدت يده إلى بطنها المنفوخ، وسألها:

ومَن والد هذا الطفل المتكوم في بطنك؟

لم تتمالك نفسها ولا إراديًّا بصقت على وجهه وهو بين جنوده. عندما يواصل أبو دراع الحكي يشعر هو براحة غريبة. يشعر بضآلة كل البشر وخاصة من يتقلدون كرسي السلطة، يدفع أبو دراع لاستكمال حكاياته:

... رأيته وهو يمسح بها أرضية بيتنا الترابية، تصرخ ولا مجيب والعمدة يقف قريبًا من الباب يسمع ويرى ما يحدث، الصرخات تشرخ صمت الليل والجميع أصابهم الصمم، خرجت من مخبأي، حاولت أن أهجم عليه، لم أدرك بقدرته وقوة زبانيته، كمموا فمي وألقى بي بعد أن قيدوني في داخل الحوش الداخلي، صرخات أمي ذهبت، لم يذهبوا بها للمستشفى أو يفكروا في علاجها، في سخرية يمجد العمدة ورجال بلدهم الشرفاء، بعد أن فعل الضابط ما بدا له بواحدة منهم، بعد أن فاض بحديث يتهمها في شرفها وعرضها، أخذتهم الحمية فأرسلوا لها القابلة.

تهاجمه كلمات شاعر شهيد فترن في أذنيه.

القدس عروس عروبتكم ... فلماذا تركتم كل زناة الليل يفضون بكارتها؟ ووقفتم خلف الأبواب تسترقون السمع ... لا يستطيع أن يجمع في ذهنه كلمات القصيدة جيدًا، كلمات كانت ثائرة عندما تركب رأسه الثورة فيدعي، لا ثمة تعاطف مع أبي دراع فهو يتعاطف مع أفكاره، يصمت وينظر لأبي دراع الصامت بدوره، ينظر إليه فيجده يئد الدموع التي تملأ عينيه، ويصنع ابتسامة تقطر ألمًا وحقدًا، لا يواصل الحكي إلا بعد أن تجرَّع من زجاجة شرابه المسكر الخاص جرعات، كأنه يستمد منها القوة ليواصل ...

حكايات يقصها كثير منها تحكي عن شجاعته النادرة، يحاول من بين ثناياها أن يجد لنفسه العذر والمبرر في أفعاله التي تخرج عن الحق والعدل، لقد صاغ قانونًا ينهجه هو ومن تبعه، قانون القوة والعنف، يفعلون ما بدا

لهم تحت ذريعة أنهم يستردون الحقوق للضعفاء والمظلومين، تلاقي تلك الحكايات هوى في قلوب كثير من البشر فيتعاطفون بل كثيرًا ما يصفونهم بالشجاعة والرجولة، لا ينكر في حكايته للدكتور ساعات جبنه وخوفه، في أيام سجنه الأولى وكان يومها طفلًا لم يتعد السادسة عشرة من عمره، تحرش الأكبر منه سنًّا، كيف يتحرشون ببعضهم وكيف يتركونهم فذئاب تتقاتل مع بعضها، المشرفون على الأحداث لم يكونوا أقل جبروتًا من أرباب السلطة في الخارج، لا يجد حرجًا وهو يقول للدكتور أنهم اغتصبوه عنوة.

هناك أحداث كثيرة غير حقيقية ولكنه يصنعها عله يحظى بتعاطف الدكتور ... ويتعاطف معه الدكتور ويقسم له بأن سبب البلاء الفساد والظلم، يعاهده بأن يساعده بكل طاقته وقدراته.

لا تبرح الذكريات مخيلته ويتمنى في نفس اللحظة أن يجد من يقضي وطره معها، أين؟ وكيف؟ يتجرع مزيدًا من الخمر.

***

لماذا يفجر الشيخ وطه الحكاية عن أملاك البلد وأحقية الناظر في أغلب أراضيها؟ هل ينبهون الناس بأنهم يبيعون الوهم للقادمين الجدد؟ والقادمون لا يصغون لحديث، يصنعون آمال لغد مرتقب، أموال جاءت بسهولة ويسر، طه الصامت غالبًا ينظر حوله ويتأمل، ماذا كان يحدث في الماضي؟ ظروفهم الحياتية، كان الناظر يعطيهم ويهبهم، يوم كانت تُقام مأدبة في بيته جميعهم يتقاسمون طعامه، كان يجود بما يملك، تسكن السعادة عينيه وهو يقوم على خدمتهم وإطعامهم، اليوم لا ينتظرون مائدة الناظر، شبعوا وامتلأت بطونهم، الأطعمة التي لم يلوكوها من قبل رهن أيديهم وجيوبهم تمتلك، كان الرجل يعيش كواحد منهم، لم يطالبهم بعبادته، وقف في صف المصلين خلف الإمام عبدًا مثله مثلهم، لم ينصب تمثالًا لذاته، أطماعهم أعمت قلوبهم، بمرارة يقص طه على الشيخ بعد امتناع طال عما تجيش به نفسه، يحاول الشيخ أن يروِّح عنه فيصف أن طبيعة الناس تغيرت، منذ

دخلت الكهرباء البلدة ومن بعدها المحاجر بخيراتها ومكاسبها، فيصفهم الشيخ بأنهم حرقوا كل كتب تراثهم وماضيهم، يحاول أن يدور بحديثه لجهة مغايرة، يصف وقع الحديث على الناظر فيما لحق الناس من خير، فالناظر لا يتمنى أن يظلوا تحت مظلة الفقر نائمين، لا يحب أن يمدوا أيديهم يتسولون، ولم يحدث يومًا أن وقف حجرًا عثرة أمام خير قادم لأي منهم، فلم يبخل، كانت يده دائمًا ممدودة، وكأنهم يسعون للتحرر من الماضي وعبوديته.

آهة عميقة يتوقف الشيخ ويطرح طه سؤاله:

- أصبح الناظر ماضيًا!!

- كل إنسان يظن نفسه سيعمَّر ألف عام.

- يلتفون حول الدكتور ... لماذا؟

- الدكتور كل يوم بحال، زمان كان له كلام غير ما يقوله اليوم، عشَّم أغلب ناس البلد إنه هيبيع لهم الأرض ويكتب لهم عقود ملكية، كلام لو وصل للناظر يطب فيها ساكت.

الناس في البلد لا ينتظرون في حياء أن تأتيهم الفرصة ولكن يحاربون من أجل الوصول إليها، الجميع غارقون حتى آذانهم في تعداد مكاسبهم، كل يظن أنه سيعمر وسيخلد في الدنيا، كل يفكر في سحب البساط من تحت قدمي الآخر، كرسي عرش البلدة مرهون بوجود الناظر، وكرسي العرش ملكية وهناك مواريث، في نيتهم تجيش الثورة، الناظر رهين الفراش أغلب الوقت، جميعهم يسعون للتحرر من الماضي وعبوديته، الشيخ وطه الصامت يقلبان أوراق وذكريات الماضي، فهل تذوب الأحزان وتنزوي الذكريات؟ كل منهما سواء الأحزان أو ذكرياتها تختلف درجتها عن الأخرى فمنها كألواح ثلج قليل من وهج الشمس يذيبها ومنها الصلب وتقترب درجة صعوبته من الحديد يحتاج المزيد من النيران لينصهر، كلها تنتهي ونهاية مطافها موت

قـادم ولا مفـر ... يستسـلمان.

***

تطارد مهجة نادر حتى في أحلامه، تجلس بجواره في فستان عرس أبيض جميل، يراقصها أمام كل الناس وأصدقائه يطلقون أعيرتهم النارية ابتهاجًا بيوم عرسه، سعادة غريبة يشعرها وهي تطوقه بذراعيها، تبحث عيناه عن الناظر لا تجده وليس هناك أحد من أهله وذويه، طه الصامت لا وجود له والشيخ رضوان مختفٍ، يونس موجود ولكنه لا ينظر ناحيتهما، يوليهما ظهره، ينادي عليه بصوت عالٍ ولكن تذهب دعواته في ضجيج الفرح وضحكات السكارى من صحبته، يشارك أبو دراع في العرس وأكثر من خمسة من المطاريد يعرفهم جيدًا، ابتساماتهم تشجعه وترفع من شأنه ولكنهم لا يشربون خمرًا ولا يدخنون مخدرًا بل يرتدون أجمل الملابس ويلقون بالعباءات فوق أكتافهم، يترك عروسه ويبحث عن يونس الذي اختفى ولا أثر له، يصطدم بأحدهم، ينظر إليه.

- أنت الشيخ رضوان؟

- بشحمه ولحمه.

- يونس ... هل رأيته؟

لا يهتم بسؤاله ولكن يتجه بحديثه لجهة مغايرة:

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس».

رؤى وأحلام مشوشة تترك أثرًا فوق العقل، عندما تتسلل أشعة الشمس وتغرق الحجرة بنورها، يتمطى ويتثاءب ويتذكر ما سبحت فيه أفكاره وأحلامه، يحاول أن يلقي بعيدًا عن رأسه فكرة الزواج ولكنها ها هي تطارده حتى في نومه، عليه أن يتخذ قرارًا، مستحيل أن يفكر يومًا في مهجة زوجة،

تطوف بذاكرته ما سمعه من حكايات عنها يوم حاول أن يفض مسيرة حياتها السابقة ويتعرف على جذورها، سمع حكايات من محروس المكوجي كثيرة، اعتادوا كي ملابسهم عنده، للناظر مكانة كبيرة عند الرجل وتقلد نادر نفس المكانة، الرجل كانت مهنته التي عمل بها لأعوام طالت، كان يمتهن كي الملابس كما نسميها «مكواة الرجل» تركت مهنته آثارها على عوده الذي انحنى للأمام، لا يستطيع أن يقيمه، يجلس طوال اليوم أمام دكانه ويكري فتى يعمل بمهنته القديمة، أغلب الوقت يترك المحل فلا عمل لديه، العجوز يستمع أحيانًا لجهاز الراديو الذي يبث إذاعة القرآن الكريم طوال اليوم، عندما ينحرف بحديثه لذكريات سيئة السمعة فيتحامل على نفسه ويغلق الراديو، أراد نادر أن يذكره بمعالم هذا الحي العتيق، خاصة أنه كثيرًا ما تطرق بالحديث عنه، مجرد أن بدأ حديثه مع نادر بادر بإغلاق جهاز الراديو، وراح يقول:

حتى خمسينات القرن الماضي كان للبغاء بيوت وتشرف عليها الصحة في مختلف مديريات المملكة المصرية، وهنا في المنيا كانت موجودة أيضًا، ما زالت تعلق في الذاكرة اسم صاحبة أشهر البيوت وكانتا أختين.

يضحك الرجل وهو يسرد الحكاية ويتوقف، يسعل وينظر بعيدًا وكأنه يستجمع أطراف حكايته، يستحثه نادر على استكمال الحكاية فيشعل له سيجارة ملفوفة حديثًا مخلوط بدخانها حشيش مما يعبق الأجواء من حول مَن ينفثها، تمهَّل الرجل وسحب أكثر من مرة بقوة وتلذذ واضح وراح يقول:

كانت هاتان الأختان جمالهما يخطف الأبصار، فالأعمى من ضحكتهما تنفر عروق رجولته.

يموج بضحك صاخب رغم شيخوخته وهو يقول:

أقسم لك إنها الحقيقة، في ليلة لا أنساها قبضنا يومًا بجوار بيتهما على شحاذ أعمى ...

يتوقف ثانية يضحك بشدة ولا يمتلك نادر إلا مجاراته في الضحك لجمال سرده وهو يزفر دخان سيجارته:

قبضنا عليه وهو في حالة فعل فاضح بجوار ... منزل فاضل ... تركناه حتى أنهى استمنائه وقبضنا عليه، ووجهنا إليه التهم تباعًا وصمم خادمهما وفتاهما المخنث أن يذهب به لنقطة الشرطة، والأعمى يقسم إنه لم يفعل ما يستوجب ذلك ويستجير، كان جلبابه المرتق مبللًا بآثار منيه الذي أطلقه لتوه، دفعنا لصبي البغيتين قرشين ومضى واستمتعنا بقصة الأعمى، فيصف ما يعانيه بصورة تغرقنا في الضحك الذي نحبسه ونتركه يقص على مسامعنا، كيف يأتي كلما تستصرخه الحاجة، وبجوار الجدار يتصنع النوم، المهم أن يكون في أقرب مكان للنافذة، تخترق مسامعه أصوات ضحكاتهما ومن معهما، فتثور ثورته ويقضي حاجته الملحة، ويطالبنا ألَّا نحرمه من متعته الوحيدة في الدنيا، بالفعل استطعنا إقناع فتوة الحارة وحامي حماها أن يتركه، ووافق، أسرع يومها الشحاذ متجهًا ناحية الموردة وألقى بنفسه بملابسه في الماء، بعد خروجه سألناه وبلا تردد يقول:

كان علي أن أتطهر من جنابة.

يتذكر الرجل اسم البغيتين «سماهروزوزو»، يصف الرجل تلك المنطقة والشوارع التي تصل إليها بسلم متعدد الدرجات، يأخذ الحياء نادر وكأنه لا يسأل عن بيوت البغاء ولكنه يتحدث عن تاريخ المنطقة عمومًا، يفتح الرجل عينيه المنتفختين بصعوبة ويشير على نادر بمزيد من الكيف، لا يتوانى عنه، الغريب أن الرجل يصف المكان وكأنه أمام عينيه، فيبدأ بشاطئ النيل، كانت البلد محدودة فالنيل هو الحد الشرقي للمدينة، على «الموردة» وهو المكان الذي ترسو فيه المراكب الشراعية وقوارب الصيادين، وكثيرًا ما كان حوض غسيل يغسلون فيه الحيوانات، فالخراف قبل جزِّها يتم غسلها جيدًا حتى يسهل على مَن يجزُّها القيام بعمله، وأحيانًا مورد يأخذ منه بعض الناس حاجتهم من الماء، وسيدات كثيرًا ما يقمن بغسل

ملابسهن وملابس أسرهن على الشاطئ، وأهم الحيوانات التي يغسلونها في منطقة الموردة الحمير والبغال ولكن الخيل صاحبة النصيب الأكبر، فمعروف عن الحمار عشقه للتمرغ في التراب، وكذلك البغال، أما الخيل فمن يومها تتباهى بنفسها، ولكن حتى للخيل درجات، خيل للعربات الكارو وهي الأقل حظًّا وتقترب في تصنيفها من البغال، في الدرجة التالية خيول الحناطير، فقد كانت وسيلة الانتقال للسادة وأصحاب الشأن، فلا يدخل الحي الحنطور إلا وتجد الأطفال يتسارعون خلفه، وقد يتعلق أكثر من طفل بحاجزه الخلفي، يطرقع سوط سائقه في الهواء. محذرًا ... يصمت:

ينتظر نادر ما يجود به من حديث، يتململ الرجل ويقول:

«هـ هـ ... شد حيلك يا حصان».

يضحك نادر ويلقفه سيجارة جديدة ويشعلها له، صارت بينهما ألفة غريبة وكأن الرجل لا يتمنى أن ينهي أقاصيصه عليه، فداوم على الذهاب إليه، كان قريبًا من مسجد سيدي علي المصري، فيطوف به ويصف مقام هذا البطل الشهيد ابن إمام الأربعين الشيخ محمد أبو طاقية الريدي، ومعه في نفس مقامه وضريحه سبعة أطفال شهداء استشهدوا بجواره وكان لحظتها يحفظهم القرآن، ودفنوا معه في نفس المكان، يواصل العجوز الحكي ونادر ينصت له بكل اهتمام لا يقاطعه إلا لحظة أن تمتد يده إليه بسيجارة جديدة، فيقول عن مآثر الشيخ علي المصري، ساعة شرعوا في بناء الكوبري وبدأ المهندسون في الرسم، كان في تصميماتهم أن يرحِّلوا مقام سيدي علي المصري من مكانه، ساعة أن همُّوا بذلك، توقفت الحفارات والآلات عن العمل تمامًا، انفجرت من داخل المقام روائح ذكية عطرة، لم يتمالك الناس أنفسهم فهاجوا وكبروا وفي لحظات كان الآلاف حول المكان، يقسم أن الكل شاهد بعينيه وتنسم عبق البخور، فابتعدوا عن المقام وها هو ما زال قائمًا في مكانه، يحكي عن كرامات أولياء الله الصالحين في تلك المنطقة، تتمايل رأس العجوز وهو يزفر دخان السيجارة العبقة بالحشيش

مرددًا:

«ومن يفز بالوصل ... كان بعد الموت حيًّا».

كان دائمًا يداخله الشك في تلك الأفعال المتباينة التي يأتيها الناس من حوله، لكنه يجاري العجوز فقد كانت أمنيته أن يعرف أصل وفصل مهجة، ولكنه يستحي أن يذكر ذلك مباشرة، يترك المكوجي العجوز يفيض ومن بين ثنايا حديثه يستخلص ويعرف ...

يتحدث العجوز عن المنطقة كلها، يشعر بسعادة أن يجتر ذكرياته وخاصة إن وجد مستمعًا يهيم بحديثه ويطالبه بالمزيد، وبامتداد هذا الشارع مجموعة كبيرة من الأضرحة والمقامات، ضريح سيدي محمد الفارس شقيق سيدي أبي العباس المرسي حامي الإسكندرية وأحد الأربعين حاملي العهد في ربوع مصر كلها، وسيدي حبيب ويشير للشارع المتفرع من الشارع الكبير وأن الشارع يسمى باسمه، ويذكر الشيخ الكردي والشيخ عبد القادر، ومقام سيدي حامد، والسيدة نميلة، وضريح الشيخ سعد داخل مسجد اللمطي، ولا ينسى الشيخ محمد المغربي وسيدي الحبشي رضوان الله عليهم جميعًا وعلى آل البيت، فيشيد بمآثرهم ويقص أقاصيص تناولها العديد من قاصِّي السير الشعبية، حكايات كثيرة منها تتسم بالخرافات، وما تزال المطرانية الكبرى تأخذ مكانها من الناحية المقابلة لشارع التجارة ومن خلفها أيضًا العديد من الأضرحة لأولياء فارقوا الدنيا، ما يُستغرب له أن هذا المكان بالذات رغم ما يزخر به من مساجد متعددة وأضرحة لأولياء الله كان ملاذًا ومستقرًّا لبيوت بغاء!!! يصف العجوز الشوارع في زمانها وكيف انتشرت العشوائيات في تلك المنطقة بصورة مستفزة، فأصبحت تلك الشوارع مهمشة، عندما سأل بذكاء أحد العارفين والمتعلمين القدامى على حقيقة ووجود البغاء، أكد له بأن البغاء كان موجودًا في أماكن كثيرة وكانت معروفة وله رعاية خاصة، ويقول له إنه في الأربعينيات من القرن العشرين وبداية الخمسينيات، طالب أكثر من إنسان بوقف وإلغاء تلك

البيوت، يشير إلى أن صاحب الفضل الأول في إغلاقها ينتمي لمحافظة المنيا ومدينة أبي قرقاص تحديدًا، كان اسمه عبد الحميد باشا عبد الحق وتقلَّد أكثر من وزارة منها وزارة الحقانية أو ما يعرف اليوم بوزارة العدل، في حياء يسأل المكوجي العجوز:

- أين ذهبن؟

- مَن؟

- هُنَّ ...

العجوز يتعمد استظهار عدم درايته بما يسأل عنه:

يمد يده بسيجارة مشتعلة فيبتسم:

- آه ... تقصد الست سماهر والست زوزو.

- بالضبط.

- الله يرحمهما ... لا تجوز عليهما سوى الرحمة

- لهما أولاد وبنات؟!

- طبعًا.

يؤكد العجوز بأنهما تركتا هذا المكان وباعتا بيتهما، يتذكر بأنهما كانتا تمتلكان أكثر من بيت، يقول إن أحد البلطجية والقوادين حاول أن يبتزهما وأن يستولي على أموالهما، احتمتا برجل كان معروفًا ومن أسرة ذات شأن، ويقول بعض الناس إنه تزوج إحداهما وأنجب منها لكن قطع وصل أهله وذويه بسبب تلك الزيجة، يقولون لهما بيت كبير في الحي الجديد الراقي قريبًا من الجامعة ولهما أبناء ومنهم من يقيمون هنا ومنهم من سافروا بعيدًا. كل الأدلة التي جمعها يومًا تؤكد أن مهجة هي ابنة لإحدى هاتين السيدتين، تدور كلمات العجوز في رأسه:

«هي الدنيا ... ضفيرة مجدولة بالحلو والمر بالفضيلة والرذيلة ... لا تستغرب وجود هذا الكم من أولياء الله الصالحين ومقاماتهم وقريبًا منهم كانت بيوت الرذيلة سيئة السمعة التي يحميها القوادون ... سبحان من له الدوام».

الفكرة في عقل إنسان كوليد في بطن أمه، فإن كان يأمل أن تخرج لحيز الفعل والدنيا، عليه مد أفكاره بمزيد من العطاء، نادر يقلب أمورًا كثيرة في رأسه، ليس هو بالرجل المنقاد لأفكار الآخرين، اعتاد أن يأخذ قراره، كثير من حوله يحملون سلاحًا، هناك فرق كبير بين رجل يدفعه سلاحه لفعل، ورجل يملك زمام سلاحه وهو رهن رد فعل الرجل نفسه.

تغمره سعادة غريبة، أصوات المجاديف وهي تلاطم الأمواج تعزف موسيقى هادئة شجية، تميل رأسه وتطرب وجده، تتناغم وأصوات الطيور العائدة لأوكارها وقت الغروب، ساعة وداع الشمس للأرض وإغراقها بردائها البرتقالي الهادئ.

هفت نفسه للاستقرار وعاوده أمل رؤية ابنته كل ساعة، همس لنورا بما عزم عليه، تهللت أساريرها، كادت أن تطلق زغرودة في الفضاء ولكنها توقفت، في حب أخوي بالغ ألقت بنفسها بين ذراعيه، سعادة تكاد تنفجر من عينيها، نشوة فرح تغلب عليها وتتمناها، كان عليه أن يزف بالبشرى للناظر، هكذا أشارت عليه وكذلك أمهما، راحت نورا تلقي بحبات الملح وسط جمرات النيران المتقدة لتبعد الحسد، فتتفجر ذرات الملح وتتفتت الجمرات الملتهبة وينطلق منها شرر متتابع بلون ذهبي وهَّاج، ترفع الإناء الفخاري وتدور به في جنبات المنزل الكبير، تأخذه من يدها إحدى السيدات ممن يقمن بالعمل في المنزل وتدور به كما ترشدها، أخيرًا قرر نادر أن يعود للحياة الزوجية التي لا مفر منها كما تقول وهي تضحك، لم يتوان في سرعة إعادة زوجته لعصمته، شعر كل من الشيخ رضوان وطه الصامت بسعادة الناظر فشاركاه سعادته والجلوس معه، راحوا يتبادلون ويجترون ذكريات الأيام السابقة بحلوها ومرها الذي كان كثيرًا، يضحك الناظر الذي خاصمه

الضحك كثيرًا فيتألق وجهه ببِشر، يفرحان وتأخذ قلبيهما نشوة السعادة والحب لهذا الرجل، يتحرك طه من مكمنه الجالس فيه، تجذب أنظارهما حركته فيتتبعانه، كان قريبًا من الباب ثمة حذاء مقلوب على وجهه، فقام طه الصامت بإعادته لوضعه الطبيعي، وهو عائد لجلسته وجد عيونهما تتطلعان إليه وفوق وجهما ابتسامة فقال:

- فأل شؤم.

ضحكوا جميعًا ...

قص عليهم الناظر في كلمات يقطعها السعال ولا تكتمل، لكنهما يعرفان الحكاية جيدًا، يوم كان طه في مقتبل عمره، يوم عقره في قدمه كلب شنودة الفخراني صانع القدر والقلل والمواجير، كيف جاء الرجل معتذرًا مبديًا استعداده لكل طلبات طه، باديًا على وجهه خوف لا يحاول أن يتحدث عنه بلسانه، مستعدًّا أن يقتل الكلب أمام عيني طه والناظر والشيخ، أظهر طه يومها تسامحه وتقبل عذره وعرف أن لا ذنب له، أمرت يومها العمة وهيبة رحمها الله بأن يذهب ويأتي ببضع شعيرات من ذيل الكلب فقط، فأسرع يومها شنودة وأتى بما طلبت، وفي موقد طيني يومها أشعلت نيران وكان الشرط أن تُحرق تلك الشعيرات ويتنسم طه دخانها، وما يتبقى منها من رماد يُخلط ببصلة تشوى في نفس الموقد ويتم ربط الجرح بهذا المزيج لمدة ثلاثة أيام، ويوم يفك الرباط عليه أن يبكر في الصباح ويغسل موضع الجرح بندى الصباح، لم يعترض أحد يومها، الغريب أنه في خلال أسبوع واحد شفي طه تمامًا. يضحكون:

وكأن الناظر نسي شيئًا فيسأل الشيخ:

- هل أي شيء يتم حرقه؟

يتذكرون معًا بأن الوقود يجب أن يكون من «الوقيد» المصنع من روث البهائم والحمير، يعجنونه ويتركونه لتجففه الشمس، بعد ذلك يستخدمونه

في وقت عوزهم في إشعال النيران لمختلف المواقد والأفران الخاصة بصناعة خبزهم الجاف وخلافه، أكاذيب هشة لا أساس لها، كثيرون منهم لا يقنعون بها لكنهم يجارون عموم الناس حولهم، أفكار غريبة ينسجونها من عادات وتقاليد سابقة عليهم، عُرف قائم يتتبعونه، يستلهمون الكثير من تلك الأفكار من حوادث سابقة، ربما يأخذونها ويتعلمونها من أفعال طائر أو حيوان يستأنسونه أو غير، فينظرون للعنكبوت كيف يكون حريصًا على صناعة شبكته بعيدًا عن منافذ الرياح القوية.

يخوضون في أقاصيص وحكايات خبا بريقها وما زالت تعج بها ذاكرتهم، لا إراديًّا يخرج من بين شفاه طه صفير طويل، يصمتون وينتظرون ثم يضحكون.

فالصفير الطويل كانوا يدعون به الحمير ساعة أن يوردوها للماء لتشرب المزيد، لم ينسوا أنها كانت مثار استثارة الديوك الرومية وهياجها فتنفخ ريشها كطاووس وتتحرك، أحيانًا يكون اللون الأحمر مثار هياج الديوك الرومية ولكنها تهاجم من يرتدي أو يحمل هذا اللون ... . طافوا.

يتدثر الناظر بعباءته ولا يلبث أن يذهب في النوم، يتأملان الناظر وصوت شهيقه وزفيره علا عن المعتاد وأحيانًا يتحول لشخير، يتسللان خارجين في هدوء، تنحدر الدموع من عيني طه فيمسحها بكم جلبابه، ينظر إليه مودعًا وخارجًا في إثر الشيخ، يتبادلان حديثًا قصيرًا لكنه مشحون بالخوف على الناظر، يصمتان وكما هو معتاد أن يقوم طه بتوصيل الشيخ حتى منزله.

طه عائد بمفرده فيقلب في أوراق ذاكرته وتأتيه صورة الناظر.

لم ينعزل هذا الرجل يومًا عن الناس، كانت سلواه عيادة المريض ورفع الكرب، كان يشعر بألم الفقر ويشارك الناس متاعبهم وأحزانهم، زياراته لم تنقطع يومًا لكل الناس وخاصة المحتاجين، كان طه رفيق رحلاته الليلية، زياراته لمن يقطنون الحجرات الضيقة ذات الهواء الفاسد غالبًا، ابتسامته

وكلماته ومساعداته كانت تضيء هذا المنزل الكئيب بلا نوافذ، تنهيدة عميقة تخرج من صدرطه وهو يتذكر يوم قام الناظر بنفسه بغسل قدمي العجوز البائس بيديه، حاول طه أن يقوم بالدور ولكنه صمم وكان له ما أراد، بعد أن غسل قدمي الرجل قام بتطهير جرحه ولفه، لا ينسى ابتسامة العجوز وقوله:

«ملك يغسل قدم متسول ... الله».

علقت العبارة بفؤاده ولم ينسها.

-١٠-

المواجهة

ينظر الناظر لنادر مبتسمًا، يشعر الرجل بأنه جراب قديم لسيف منتصب القامة أمامه، تلمع عيناه وتزداد ابتسامته اتساعًا وهو يتأمل ابنة نادر القادمة، يتماسك وقد ألقت الفتاة بجسدها بين ذراعيه، ومن خلفها تتقدم زوجة نادر، تميل الزوجة فتطبع على وجنتي الناظر قبلاتها وكذلك على يديه، كالمعتاد يسحب يده ويحتضنها وابنتها بين ذراعيه، يكاد يتحرك قلب نادر من موضعه فيهتز وتنساب دموعه فيخرج مسرعًا، تنظر إليه أمه الواقفة خلفه تمامًا، يميل على يديها مقبلًا ويخرج.

كان يقتل هموم الليل بالصحبة والسهر، مفتونًا بشبابه وحيويته يستظهرها إن تطلبت اللحظة ذلك، في مجالسة أصحابه ورواد جلسته المعتادة، يجلس ملكًا متوجًا، كثيرون يقومون على خدمته، يسحب من الجوزة بعمق وقوة فيشتعل الفحم فوق الحجر، تتصاعد رائحة الدخان الناتج من المعسل المخلوط، يكتم أنفاسه وكأنه يدفعها أن تصل لرأسه المهموم لتطيح بعقله، ساعتها ينشر شراع مراكب الهوى الكاذب، يغرق في الضحك لأقل دعابة يطلقها هو أو مريدوه، يسخر من أي شيء حتى من نفسه، يذهب في غيبوبته المحببة بعد تعميرة جديدة ...

وقبل أن يخمد اللهب وتكون بقايا الجمرات في طريقها للنهاية، ينظر لقشورها الرمادية السوداء الهشة ويخاف النهاية، تصدر أوامره في صورة إشارة من يده، ينفخون في تلك البقايا، تطير القشور الهشة ويصارع اللهب الموت، ينفخون بقوة من جديد يرتفع اللهب وتستعر الجمرات، يواصل ليلته ودائمًا يبغي المزيد من النيران المتأججة، يأمرهم فيلقون بعيدان

الحطب والأغصان الجافة ويتأمل ذوائب النيران، تسري داخله سعادة مصطنعة يستغرق في نومه.

لا تضيع الصورة الماثلة في قلبه، ما زال يونس يظهر كشهاب يضيء آفاق نفسه، وميض يخترق سكونه، ينير السماء فيسحب العيون إليه ولكنه يختفي بسرعة غريبة، بين جموع المحيطين بالناظر يختلس النظرات، يتأمل كل الجالسين، هل يشعر كل الزائرين بالأسى على هذا الرجل، تلك القامة التي تحت عباءتها مخزون حب لكل البشر، كم غلبت الظنون عقله فظنه رجلًا لا تطوله الأحزان، ظنه من طينة غير طينة البشر، يتأمل تلك الشيخوخة التي زحفت إلى وجهه في الأيام الأخيرة، يتأمله وهو يحاول أن يقيم طوله، أن يقف بدون أن يستعين بأحد، طه الصامت يقترب منه أكثر متخوفًا عليه، القاعة تمتلئ يوميًا بالمريدين والمحبين، هل كلهم على درجة واحدة؟ الجميع يتساءل في خبث غالبًا:

هل حقيقةً الدكتور ينوي أن يهب صكوك ملكية للناس؟

ينقل إليه مريدوه تلك الشائعات المنتشرة في البلد بأسرها، لا يجيب ولا يعرف مدى صدق كلمات الدكتور، يشك أن يصدر هذا الحديث على لسانه، الناظر ما زال على قيد الحياة!!! فكيف يهب مواثيق الملكية وهو ونورا ويونس هم من يعلمون بمكان الأوراق، خبَّأ الناظر الأوراق كلها في مكان أمين واليوم لا يعلم ذلك إلا هو ونورا، هل الناس تنتظر موت الناظر ليهبهم الدكتور؟ هل قادمون للزيارة والدعاء للناظر أم الدعوة أن يُعجِّل الله له بالموت؟ تنتابه هواجس كثيرة، دكتور إبراهيم أخوه الأكبر يتقرب إلى الناس بصورة غريبة، يتقرب لأبي دراع وللسماسرة الغرباء وللشباب، كلماته جميلة ينتقيها فتبدو برَّاقة تخطف الأبصار وخلفها يعلم الله بصدقها، هو مَن كان يصيبه القرف والضيق من مجرد أحاديثهم أو أسلوب حياتهم، هو من كان يقول:

«الناس في بلدنا دفنوا عقولهم في المقابر القريبة، عاشوا يتناسلون مثل البهائم، استظهار قدراتهم الحيوانية هو شاغلهم الأكبر، شخصيات هشة

مهزوزة لا تقدم ولا تؤخر، أمثالهم لا يُنتظَر من ورائهم خير».

هو نفس الإنسان الذي يتحدث بالخرافات ويوافق على ترديدها!!! هو مَن كان يقول إن سبب تأخرنا جهلنا والخرافات التي تعشش داخل عقولنا، في مجلس الشباب وعندما سأله كيف اليوم يسمع لبعض الحكايات الخرافية، يضحك ولا يثور ويقدم مبررات غريبة فيقول:

«في مختلف بلاد الدنيا وليس عندنا فحسب، أناس وصلوا لأقصى مراحل الرفاهية وكل شيء أصبح ملك أيديهم وعقولهم استطاعت أن تصل لأرفع مراكز العلم والمعرفة كثيرًا ما يشعرون بالملل والرغبة في شيء جديد ومختلف، الخرافة في هذه الحالة والبحث عنها مجرد قضاء وقت فراغ وليست حياة».

ما زالت تطرق أذنيه مرثيات أمه التي ترددها كلما كانت بمفردها، يسترق السمع، يسمعها، عدودة بتنزف دم، عدودة ملتاعة من قلب مجروح من غير دموع سايلة، وجع نايم في صدرها، صرخة مكتومة لو يسمعها أي راجل غريب يتشل ولسانه يصيبه الخرس، تصمت يوم يخترق وحدتها إنسان، بريق عينيها انطفأ يشبهها بأشجار الصحاري شحيحة الظل ونحيلة العود.

***

ها هو موعد المولد حلَّ عليهم، في حياء ذهبوا لنادر، في المولد المكاسب كثيرة والجميع يحظى بخيروفير، بعد تردد ومشاركة الشيخ رضوان في الأمر، بلا تردد وافق الشيخ فسيأخذ هذا العام ضعف إيجار العام السابق ويزيد كما اتفقوا معه، بارك الشيخ وشجعه أن يقف بجانبه وهو يعرض الأمر على الناظر، ابتعدًا بالفكرة عن طه فمعروف بأنه سيرفض وبسهولة من الممكن أن يكون له تأثيرعلى الناظر، ليت الدكتور يكون موجودًا فيلقي بتبعية الأمر عليه بصفته الأكبر وهذا حقه، لكن هو الموجود فنقل مطالب القادمين وأهالي البلد إلى الناظر، أشار الرجل بالموافقة وهو يقول إن الدنيا

لم تتوقف أبدًا بموت أو رحيل إنسان وديمومتها وفقًا لقدرة الله سبحانه، وعلينا ألَّا نتوقف أمام مسيرة القدر والمصير. فرك الشيخ يديه سعادة بنجاح مسعاه والمكسب العائد عليه أيضًا. طه عرف بما تم فلم تخرج منه كلمة ولكن بدا حزينًا. الشيخ يدرك مشاعر طه الصامت جيدًا فيحاول أن يلتمس لنفسه العذر في موافقته. البلد كلها في حاجة أن تخرج من أحزانها، عندما يجيبه طه في أسى:

- الناس كلها خلعت توب الحزن ... البوم ما بيصرخش غير نواحي دوار الناظر وما بيسمعش صراخه غير حبايب الناظر.

يدور الشيخ بالحديث لجهة أخرى، فيصف عودة نادر إلى زوجته بأنه نجاح لمسعاهما، لقد رضخ أخيرًا نادر لأحاديثهما المتكررة واستجاب، والسبب الرئيسي كان محاولة بالخروج ببيت الناظر وأهله من الأحزان، يصف حالة الناظر اليوم بأنها أفضل كثيرًا من الأيام السابقة. يوافقه طه في رؤيته، يلمح فوق وجه طه شبه ابتسامة خفيفة، يواصل حديثه إليه في كيفية اختلاق موضوعات جديده تحفز وتدفع الناظر للمشاركة في الحياة، يشير طه إلى حالة الناس اليوم، فالدنيا شغلتهم عن الناظر، يلعنهم ويلعن أيامهم ويجتر ذكريات الماضي وأفعال هذا الرجل طوال حياته، يحبس كل منهما حديثًا متداولًا من الناس مضمونه بأن الدكتور سيحرر عقود ملكية لكل الناس، يعلم كل منهما بأن هذا لن يحدث ما دام الناظر على قيد الحياة، السؤال الخفي والنائم في صدريهما: هل أعطى الناظر حقًّا للدكتور في هذا؟!!! كل منهما لا يستطيع أن ينطق بكلمة في هذا الشأن، ربما تمنى الناس موت الناظر. يصمت كل منهما ورأسه تدور في فلك هذا الموضوع، يتكلم الصامت غالبًا:

- ناس البلد أكترهم بقى لسانهم بيلدغ زي العقرب، الناس كأن الرحمة ماتت جوه قلوبهم، كل واحد بيخبي عن التاني حتى الأخ وأخوه، زمان وجبر ... يضحك ويصمت ويواصل ساخرًا:

الحمار يقدر يعرف نوعية راكبه، غصب عنه بيمشي طوع أمره، لو اتجرأ ورفس رفسة أو نهق تنهيقة بصوت عالي عارف النتيجة هتكون إيه؟ ...

آهة تقطر سخرية لا حزنًا يصدرها الشيخ القائل:

- الحمار حيوان ممكن بكل سهولة حمارة تزغلل عنيه، حركة من حنكها ينهق ويضرب برجليه ويمكر وما يتحركش، يجري عليها ويرمي صاحبه من فوق ضهره ...

يعمهما صمت وفوق وجههما ابتسامة حائرة فيقول طه:

- ناس بلدنا ما تفرقش عن الحمير محتاجه في ايد اللي يركبها خرزانة ولا كرباج.

وكأن الشيخ يفيق من أحاديثه:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ... ربنا سبحانه كرم البني آدم ورفع من شأنه ... هو الشيطان لعب بدماغ الناس ... الناس اتسعرت ... الشباب عايزين يلموا الدنيا جوه صدرهم ...

- والله يا شيخ العيال اشترت موتسيكلات وهات يا جري ... لا لها رخصة ولا يحزنون ... طايرين طير.

يقلبان في أوراق ذاكرتهما ويعقدان المقارنات، فاليوم أكثر من جزار يذبح يوميًّا كل أنواع الذبائح من ماعز وخراف وأبقار ولحوم أيضًا مجمدة، يضحكان وهما يذكران رائحة الطعام التي كانت تغزو الأنوف قديمًا، تلهفهم على مجرد مرق اللحوم، ويقسمان بأن اللحوم اليوم لا طعم لها ...

***

«أنتم أولاد الغد وما بعد الغد».

يردد الدكتور هذه الكلمة أمام الشباب، يتيهون فرحًا ويتذكرون كلمات

يونس ... أفكاره الرائعة الحالمة بالغد والسلام والحب والإنسانية، وكان يطالب بأن يسعى أصحاب تلك الأفكار لتحقيقها وتثبيتها، وكان يصف الخاملين والصامتين بأنهم مثل جذوع النخيل الخاوية ... لا ماء للحياة فيها، يستمع إليهم وهم يرددون كلمات يونس، يحاول أن يقلب صفحة الماضي بسرعة وكأنه يتمنى أن ترسخ صورته وكلماته فحسب في عقول الشباب، يحفز أفكارهم وأمانيهم ويردد:

«عليكم أن ترتقوا الدرجات للوصول والبلوغ للقمة ... ليس هناك من هو أفضل منكم».

الغريب أنه كثيرًا ما يذكر ويضرب أمثالًا من درجات الوصول في الصوفية، يقبلون على كلماته وإن كان كثير منهم يضرب التوجس والريبة في عقله فلا يفصح، الدكتور يواصل ويبذر بذوره، يطالبهم بأن يفكروا في حيادية وعدم تعصب، يقرأ أفكارهم، الغريب أنه يقول:

«علينا أن نتصالح مع أنفسنا أولًا ... ثم نتجه إلى الله بقلوب خاشعة تبغي مرضاته».

تنتقل أفكاره وكلماته، تستمع الآذان بشغف للثائر الجديد، هناك من يفكر منهم، ماذا يريد بهذا التبسط والتقرب؟ هل يطالبهم بثورة على مَن ولأجل مَن؟ إنه يتقرب للجميع حتى مطاريد الجبل!!! هل يريد أن يركب رءوس الناس بدلًا من أبيه؟ يخاف أخاه نادر أن له سطوة وقوة ويجاهر ولا يهاب أحدًا، هل يحفزهم للخروج من عباءة الرجل الذي صاغ حياتهم وتحمل في سبيلهم الكثير؟ لكن هذا الرجل هو أبوه، أبوه من وهبهم الأرض التي شيد أغلب أهلهم فوقها بيوتهم، نعم اليوم كثيرون لا يجهرون بتلك الكلمات ويحاولون طمس معالم الماضي، يوخز نقاط ضعفهم فيوغر صدورهم أحبًّا أم كرهًا؟ تخرج آهات تمردهم غاضبة متألمة في صمت، كلماته ناعمة معجونة بسر لا يجاهر به، يطالبهم أن يتكلموا، تأخذهم أحيانًا الحيرة هل يجأرون بالشكوى من أفعال نادر؟ كلمات كثيرة يحجمون

عن الإفصاح عنها، يتذكرون:

«الكتمان والخوف يطيلان العمر».

يلملم أفكارهم المعلن عنها، خاصة تلك التي كانوا يتداولونها عن لسان يونس، هم سعداء أن يفسح لهم صدره ويتحدث إليهم، يغرس نصل أفكاره في كومة آمالهم.

مع الكبار لا يختلف الحال كثيرًا في حديثه إليهم، يصفهم بأنهم موتى على قيد الحياة إن لم يكسروا حاجز الخوف، يبرهن على صدق كلماته بأنهم اكتسبوا صفات الموت نظرًا لقربهم من المدافن، أصبحوا لا يهابون الموت إلى حد أنهم استهانوا بالحياة فتساوت الكفتان، دبيب يسري في عروقهم، يثير نزعات ظلت خامدة، ما زال شبح الناظر ماثلًا أمامهم، وقديمًا كان لا يجرؤ أحد على الخروج عن منظومة الجماعة، تغير كبير ركب رأس الدكتور، عبارة يرددونها، كانوا يعلمون أنه كتاب مغلق ويعلمون أن هذا الكتاب لا عنوان له، وما يحتويه مجهول وبلغة لا يعرفونها، فعلاقته بالبلد كانت دائمًا شبه مقطوعة، كانت كلماته قليلة وغير مألوفة، كانت نغمة التعالي واضحة، كان يبخُّ كلماته العنيفة الهازئة الساخرة فتخرج من بين شفتيه وكأنها سم الثعابين، يتقرب اليوم أو ماذا؟ عليهم أن يجارونه، هو الغد وهو الوارث للناظر ومؤكد سيكون من ورائه نفع في المستقبل، أشادوا بكلماته ونسوا ما قال قديمًا، في البداية كانوا يبتلعون كلماته على مضض ولا تسكن قلوبهم، تخرج مع أول زفرة وكأنها ضباب أو دخان سيجارة أو نفس معسل، لا تعلق بذاكرتهم، لا يشعرون فيها مودة حقيقية، ما زال السياج القديم قائمًا، السياج الذي كان يشعرهم بدونيتهم بالنسبة له، كثيرًا أضحى يردد كلمة حقوق البشر ومعنى كلمة الديمقراطية، هو مؤمن أن من الفوضى يتساوى البشر ويحاول أن يستمد قوة لكلماته بالرجوع أن الله فضَّل بعضهم على بعض، هل يبحث عن فوضى من نوع جديد ليعيد ترتيب المكان.

***

تنوعت الملابس، استحدثت وسائل الرفاهية في أغلب البيوت التي بُنيت حديثًا خاصة، قارب الكوبري على الانتهاء، قدوم الغرباء وكأنه هجوم، القادمون من أهل البر الثاني للنهر يعرضون ويثمنون الأرض بمبالغ باهظة لم يسمع عنها أحد من قبل، بالغوا في الأسعار فامتص الأهالي لعابهم وسالت أمانيهم، أكثرهم يكذبون ويدعون أن الأرض ملكهم، العارفون بالحقيقة يصمتون وكأنهم يخافون أن يتحدثوا في هذا الشأن، كثير تداخلهم ثورة على الناظر وأولاده، يحصون المبالغ التي يمكن أن تعود عليهم لو فكروا في البيع، يسيرون في ركب كلمات الدكتور إبراهيم الذي وعد بتوثيق عقود ملكيتهم حتى للبيوت الجديدة التي بنوها، باب الخير مفتوح على مصراعيه في نواحٍ شتى، رغم هذا هناك ما يشبه الثورة الخامدة في بعض النفوس على الناظر وأهله، بدت تظهر آثار النعمة جلية على الكثيرين، تعددت الأعمال التجارية ونشطت حركة البيع والشراء، خاصة أدوات ومواد البناء بمختلف متطلباتها، الغرباء يبشرون بمشروعات وأكثر الصفقات التي تُعقد في الظلام، تكالبوا وتكاثروا على أفكار لم تخرج بعد لحيز النور، صراعات خفية ودوافع تثيرها الأموال الطائلة التي تتناقلها الأيدي، انفتاح ومَن يتوقف تدهسه الأفكار المتعجلة النهمة للثراء.

***

هل أزف ميعاد القيامة؟

قلب نورا مقبوض، ترسم ابتسامتها وخاصة أمام أبيها وأمها، تداري مشاعرها، تتألم في صمت، تشعر أن عجلة الحياة المتسارعة داست فوق القلوب فقتلتها، لا تشعر أن هناك أملًا في غد قادم، وتسأل نفسها في استحالة:

«من يعيد لمن شابت صباها، هل يعيدون للفتاة القحبة بكارتها؟ هل يستطيعون أن يعيدوا للأرض والبشر عذرية العطاء».

أشياء مستحيلة، في ظل الأحاديث المرددة في حياء التي تهمس بها شفاه مَن حولها، إنهما أخواها، عليها أن تكون على الحياد، ألَّا تبدي رأيًا أو تميل إلى أحدهما، حتى ولو إلى جانب الحق!!!!

تلقي بعينيها بعيدًا، تتأمل النخيل السامق، هل تسقط أشجار النخيل أوراقها؟ إنها أحد الأشجار المكرمة في القرآن لم يحدث هذا من قبل، هل قرب أشجار النخيل من المدافن يعجل بموتها أم يخنقونها؟ حتى في الخريف تحتفظ أشجار النخيل بأوراقها، ربما يحرقونها ليستريحوا من عناء عظمتها، تشعر بحجم المصيبة التي يمكن أن تقع، أخواها يأكلان ويشربان معًا، في عينيهما صراع وترقب، كبشان يتصارعان، من يحكم بينهما الخوف أن يحتكما في صراعهما لذئب، هل يصيران أعميَين؟ يمكن أن يحدث هذا، أي وصمة عار تلحق بكل الأسرة، لا تلقي باللائمة على أحد، هم من تركوا كل الغرباء يستبيحون أرضهم أو عرضهم سيان فالأمر واحد، أغراب احتلوا عقول الناس لا الأرض، أستذأبت الكلاب ودخل أصحاب الحق الجحور، هل باع كل البشر ضمائرهم؟ ما يظهر مجرد أقنعة فوق الوجوه، شكوك تراود مخيلتها، كيف تدفعها بعيدًا؟ كيف تستأصلها؟ كل الأمور تتضح معالمها أمام عينيها، تتربص المخاوف بصدرها، لكن ما يبدو أمامها أصبح حقيقة لا شك فيها، هل تنشب حرب بين الإخوة؟ كيف يحتفل المنتصر منهما؟ يفرح بإراقة دم أخيه، كيف؟

عندما تجلس إلى الدكتور إبراهيم تشعر أن أفكاره شبه مشوشة، لا تستقر على فكرة بذاتها، يتحدث عن الحياة بصخبها وضوضائها كأمواج بحر هادر فيشعر بالحياة، لا يستهويه الصمت والهدوء فيشبهه بالبحيرة الساكنة مياهها، لا يتوقف عند حاجز بلدهم فحسب، تبدو مستترة نظرة التعالي والنرجسية الغالبة في حديثه مع الآخرين، فيحدثها عن الصفوة المثقفة في البلاد بأسرها فيقول عنهم إنهم يلهثون خلف الأكاذيب والشائعات وحتى نظرياتهم التي يكتبونها لا يستطيعون إثباتها والبرهنة بصحتها، فهم أبواق

للسلطة، كلماتهم غريبة عجيبة ويبحثون عن المزيد من الثراء ودائمًا أيديهم ممدودة تستجدي، لا تعرف في أي جانب يقف، هل يسخر من كل الدنيا وما فيها؟ هل يبحث عن منظومة جديدة للحياة؟ لقد كانت دائمًا شق الجبل في نظره ماضيًا، كان خيط خفيف يربطه بهذا الماضي، هجرها وطلقها ثلاثًا كما يقول ويدعي، ما الذي يحفزه ويدفعه اليوم، هل يعيد توثيق علاقاته بأصله، ليت تلك كانت الحقيقة، تنكشف الحقيقة وتسقط الأقنعة وتشعر أنه بأفكاره يركض خلف فكرة معينة تستأثر بلبه، المال ... المال ... فيصفه بأنه الباعث للحياة، يقول إنه يستطيع أن يصيغ الدنيا الجديدة كما يحلو له، يكاد يُشَّل تفكيرها وهو يتحدث عن المقابر، يقول إنها تشغل حيزًا كبيرًا من المساحة المحدودة للبلد، لماذا لا يفكر الناس في نقل رفات موتاهم بعيدًا؟ إنهم سيكسبون الكثير ببيعهم لتلك الأراضي، ستدر عليهم ذهبًا، تقام فوق تلك الأراضي العمارات التي تطل على النيل، يخوض في وصف المستقبل وما يتصوره للغد، لا تسمع باقي أمانيه وأفكاره للغد وللبشر في بلدهم، كأن الصمم أصاب أذنيها، فلا تستمع ولا تستوعب وتذهب في دنيا بعيدة، تسمع أماني حالمة كانت تشاركها آمال الغد، يخترقها فكرُ يونس، تحدث كثيرًا فما عرفت فيما سبح، عادت لحيز حكاياته، يسخر من كل الناس، عندما تسأله:

- هل يبيع الناس موتاهم؟

يضحك وهو يصف حال الناس وضاحكًا:

- إنهم يغلقون القبر بأكبر حجر ... حجر صلب.

يصمت وكأن عينيها تطالبه أن يفصح أكثر:

حتى لا يستطيع الميت الرجوع ... إنهم يخافون عودة الأموات، إنهم يحكون ويقصون القصص عنهم ... حكايات كاذبة غالبًا ما داموا موتى فما الضير من رفع قدرهم ... مجرد كلمات يطلقونها لا تفرق كثيرًا عن غازات من جوف أو من معدة الإنسان تخرج.

يداخلها الشك والخوف من كلمات الدكتور، يردد أكثر من مرة عن ماهية الحياة، الحياة مرة واحدة وعلى كل إنسان اقتناص لحظات السعادة كلما سنحت له الفرصة، لا يجعل تلك اللحظات تفلت أو تفوت من بين يديه، العمر قصير، على الإنسان أن يمتلك الشجاعة ليخوض غمار تلك الحياة البائسة، الأيام كدخان سيجارة لا يدوم، في وجودها لا يستحيي أن يخرج زجاجة خمره ويتجرع منها أكثر من كأس، كم تتمنى أن تسأله لماذا لا يشرب أمام الناس؛ أخوفًا أم؟ تبلع سؤالها وتصمت.

يرتجف قلبها وينقبض، يشملها الحزن وتخاف ما هو قادم من أحداث بين أخويها، هل يتنمر كل منهما للآخر؟ كل منهما لا يبدي ما يختمر داخله من مشاعر، ثوراتهما مكبوتة لم تخرج حممها حتى الآن، تبحث وتقلب في عقلها علَّها تجد وسيلة تقرب بها بين أخويها، لا تحظى إلا بخيبات متتالية، تعاندها الأفكار ولا تجد ما تسوقه من أحاديث، في نومها ترى أحلامًا رهيبة، تستيقظ ويملأ قلبها الفزع، جف ريقها وشحب لونها، تسرع فتعبُّ من الماء الكثير علَّه يطفئ ظمأ قلبها الملتاع.

تطالب نورا نادر أن يكون هادئًا وهو يبسط أمام أخيهما ما وصل إليهما من أخبار، يبتسم لها ويقسم بأنه لا يستطيع أن يخرج عن عرف معتاد، الدكتور أخوهما الأكبر بكل ما يحمله من أفكار، تطالبه بأن يكون حاسمًا وأن يواجهه بالأحاديث المرددة، يهز رأسه موافقًا، يعتصر الألم قلبه وهو يتذكر كلام الناس عن بيع منزل أم نمر للغرباء، كم يتمنى من كل قلبه أن يكون كذبًا، بريق عينيه فيه توتر مصحوب بنقمة، يسأل من يعطيه الحق في ذلك؟ يحدثها بأنهما ويونس رحمة الله عليه هم من رأوا بأعينهم أن هناك صكًّا للملكية خاصًّا بأم نمر، عقد بيع وشراء وشهود عليه كل من الشيخ رضوان وطه الصامت، يستغربان هذا الفعل ولا يصدقان، من هو أخوهما؟ إنه يحمل أكبر الشهادات العلمية، أستاذ في أكبر الجامعات، ومَن المجنون الذي يشتري؟ أضعف الإيمان أن يرى حقيقة ملكيته للأرض، من

يدفع مليون جنيه مقدمًا لتلك الأرض؟ ويقول إنها مجرد عربون للبيع أو كما يسمونه ربط كلام، تركب رأسيهما الوساوس، يتمنيان أن يكون ما سمعاه لغطًا وكذبًا ولا أساس له من الصحة، رغم أنهما يشعران بأن أخيهما أفكاره شبه مشوشة وسلوكياته زادت فظاظة في الأيام الأخيرة.

يواجهانه فيتذرع بحجج واهية، يحاول أن يدور بالحديث لجهة مغايرة، واضح بفجور وجلي باستهانة منهما، أمامها ألَّا يأبه بأفكارهما ولا يهمه، يتذرع بأسباب لا يقبلها عقل واعٍ، يشير كثيرًا بأنه الأكبر وعليهما طاعته والامتثال لأوامره ونواهيه، نغمة التعالي والعظمة تقطر وتغلف كل كلماته، نادر يمتص غضبه ويحاول أن يصنع ابتسامة كاذبة وحديثه يغلب عليه رنة حزن وأسى، كلمات نورا تخرج متوسلة، الدكتور الابتسامة الساخرة لا تفارق محياه، يتحدث في صلف وجنون غريب، عندما يسألونه عن حقيقة بيع منزل أم نمر تزداد ضحكاته ويشعل سيجارته، يصفهما بالجنون، فمن يشتري منه وهو لا يملك أي صكوك لملكية هذا المكان، ردٌّ مقنع جميل يرفع عنهما ضباب الشك، يسألونه ثانية وكأنهما يبغيان مزيدًا من التأكيد، ينظر إليهما ويصمت عن الحديث، كأنهما يريدان إجباره على مواصلة الكلام، يختلس النظرات إليهما، ينتشر دخان سيجارته حولهما، نادر حريص أن لا تسيطر عليه لحظات غضب وضيق، يخفي توتره، يحاول أن يحيد بعينيه بعيدًا، فيصوب شعاع بصره ناحية الأرض، بدت كلمات الدكتور عدائية ولكنها باردة لا تشع منها معاني التسلط، بعد صمت لم يدم كثيرًا سألهما:

- وإذا فكرت في البيع فمن يمنعني؟

يغمر الجميع صمت، تنظر نورا إليهما، تنتظر ما سيكون رد فعل نادر، نادر يهز رأسه وبدت فوق ملامح وجهه الجامدة دلائل تحدٍّ تعرفها جيدًا، الدكتور ابتسامته لا تفارقه.

تنسحب من مجلسهما منهزمة، حوارات قائمة تعصف برأسها، رعشة تأخذ بجسدها، تنتفض دموعها المحبوسة ولا تستطيع الخروج، تستسلم

أخيرًا لمخدعها.

***

انجرف نادر في تيار حسابات كثيرة معقدة وقديمة أيضًا، أشياء كثيرة تحدث يستشعرها أو تصل إليه أخبارها في حياء، أوضاع كثيرة في ظاهرها خير، نفوس البشر من أهل شق الجبل اختلفت عن أيام سالفة، هل كانوا مثل بالون منفوخ والدكتور بسن فكره الشارد طعنها فانفجرت، لا يلقي بتبعية كل تلك الحوادث على الدكتور، يتردد في حديثه لنفسه، فوضع البشر متذبذب وغريب من قبل أن يحضر منذ وقت طويل، ربما ساعد وطرق أفكارهم فتجاسروا وأفصحوا، هل منهم من يقلل من شأن الناظر؟ كل القرائن تثبت عكس ذلك، فالرجل لم يعش يومًا لنفسه وهذا معروف للجميع، كان الحصان الذي يقود عربة حياتهم رغم صرخات الأموات من حوله، هل نحن في زمن السقوط؟ انقلب هرم الحياة القائمة، هل دارت ساقية الأيام؟ هل اعتلى القمة جاهل بتاريخ الناس؟ شهوة الحياة وعشق المال قد يجعلهم يقدمون قرابينهم ذبيحًا من أهلهم، تخبط في جهل غريب.

يتطلع لوجه أبيه، عيناه شاردتان سابحتان وكأنهما تطالعان مجهولًا في السقف، لا يشعر الرجل بوجوده، ثابتة عينا الرجل لا تبوحان بأي خلجات، ما لبث أن ذهب في سبات، كان يضع الله دائمًا نصب عينيه، لم يتذكر طوال مسيرته أن شاهده في حالة تذمر أو ضيق أو دلائل خوف، يصفه الشيخ رضوان بأنه رجل مسلم حقيقي يسكن الله في قلبه كما قالوا في الحديث القدسي، فالدنيا عند الله لا تساوي جناح بعوضة، وعند الناظر أيضًا لا تستحق، كلنا حول الناظر كأدوات في يده، يتذكر ضحكات الشيخ في وصفه الغريب:

قالوا الناس معادن، المعادن تتشكل حسب مزاج ومراد الحداد، وإلى الحداد الذي يصقل ويشكل الحديد نذهب، فينظر ويتأملنا ويشكل، هذا مطرقة وهذا يمكن أن يتحول إلى سيف أو خنجر مهمته أن ينحر ويسيل

الدماء أو ربما يقطع الرقاب، أما هذا فمسمار وعلى رأسه يُدَّق، كان علينا جميعًا أن نتشكل وفق صاحب المقام الرفيع، كنا نتحمل الدق، فهو رجل يجيد صياغة الرجال ونتشكل بما يبغي أن نكون ...

***

جمعت نادر ونورا جلسة بلا موعد، كانت جلسة صامتة قليلة الحدوث، يحتسيان الشاي في صمت، لا يختلسان مجرد النظرات وكأن كل منهما مسحوب لدنيا أخرى.

اعتاد الجميع استخدام الهاتف النقال، نادر قليلًا ما يستخدمه، رنين الهاتف لا ينقطع، فاقت نورا من غفوتها وأشارت إلى نادر فاهتزت رأسه، في تذمر بدا جليًّا فوق وجهه رد على الهاتف، شعرت بأن محدثه أخوهما الدكتور إبراهيم، كلمات قليلة وصمت غمر وجه نادر واعترته دهشة كانت ملامحها جلية فوق وجهه، استقام واقفًا من موضع جلوسه، تهتز رأسه وتتوه عيناه في أرجاء المكان يسارًا ويمينًا، شعرت بأن أسنانه تصطك، زفر زفرة عميقة وانفجر صائحًا:

«مؤكد انت اتجنيت يا دكتور ... مستحيل ... أنت انكرت الحكاية ... أنا بحذرك ... يوم ما يحصل الكلام ده هيكون على جثتي».

جلس نادر في ذهول، نورا تنظر إليه ولا تستطيع إخراجه من صمته، لا تعرف كيف تطرح سؤالها المُلح، في أثناء الحوار ركزت انتباهها علَّها تستلهم وتعرف، جبين نادر المقطب ووجهه الذي تبدَّل، عيناها تستطلعان وجهه تنتظر أن تنفرج شفتاه ويتكلم، انتظرت كما هُيِّئ لها كثيرًا، سيطر عليها شعور بالملل والضيق وكادت تنفجر بالسؤال، تماسكت وصمتت، تختلس إليه النظر أكثر من مرة علامات انزعاج واكتئاب واضحة، أخيرًا تقابلت عيونهما فطرحت سؤالها بلا حركة للشفاة، زفر زفرة عميقة، أخبرها في انفعال مكتوم وهو يوجز في كلماته التي تخرج متعثرة بدورها ...

أخونا المحترم باع بيت أم نمر.

لا إراديًّا وفي حركة هي موروث معتاد ضربت صدرها بقوة وواكبتها شهقة عالية، في نفس اللحظة يخترق أذنيهما طه الصامت مناديًا نادر، غير معتاد أن يصيح بالنداء بتلك الطريقة، يشعر نادر أن في الأمر شيئًا فيسرع ملبيًا، ساقاها لا تحتملان فتخشبتا وتجمدتا فاستسلمت لجلستها، أصاب الجمود كل أعضاء جسدها، صخب وضوضاء داخل رأسها، لا إراديًّا امتدت يدها إلى علبة السجائر الموضوعة على المنضدة الصغيرة أمامها، سحبت سيجارة وأشعلتها وراحت تنفث دخانها في هدوء مميت، جربتها أكثر من مرة ولكنها كانت تتخوف أن يضبطها أحد ما، في تلك اللحظة تفعلها ولا يشغلها كائن مَن كان، تدخن بلا سعال، ترقب دخان سيجارتها الكثيف وراحت تنفخ فيه وتطارده بزفير متتابع من فِيها، يتشكل الدخان في دوائر حائمة مترددة مثل عقلها، دبت الحركة في أطرافها، تحركت من مكانها في بطء يغلب عليه معالم شيخوخة في غير موعدها، اكتسب وجهها جمود غريب وقسمات وجهها أصبحت أكثر حدة، آلام مبرحة داخلية تفتك بها، ما يحدث بين أخويها لا يبشر بخير مطلقًا، تجاهد أن يكون لها دور وتتمنى أن تتخلص من قيود الصمت وتكسرها، كيف؟ تفكر ويعجز تفكيرها عن إيجاد الحلول المناسبة، هشت الذبابة التي حطت فوق وجهها أكثر من مرة، الذبابة مصممة ألا تبرح مكانها تنطلق وتعود من جديد، تشعر بطول جسر أحزانها، يبدأ بفقدان الأخ ومن بعده أمها البائسة التي لا تفارق مخدعها إلا نادرًا، وأبوها القلب النابض بالخير وكيف يتحامل ويحاول الظهور أمام الناس ولكن هيهات بين الأمس واليوم، ويعود أدراجه مستسلمًا راضيًا، آهات تمزق قلبها وتحاول أن تتماسك.

يعود نادر وما زال الضجر والضيق فوق ملامح وجهه، تمتد يده إليها فيجذبها بقوة وهو لا يدري بما يفعل، تستسلم له فيقودها إلى مكمن الأوراق وصكوك الملكية، كلمات يتفوه بها غريبة لا تستطيع أن تجمع

معانيها، بصعوبة أدركت بأنه متخوف ربما الدكتور حظي بتلك الأوراق بطريقة أو بأخرى، وعرفت أيضًا بأن طه الصامت بصراخه غير المعتاد وندائه عليه أخبره، لا تدري عن أي شيء أخبره ولكن الموضوع ليس بحاجة إلى تفكير كثير، يترك يدها فتمضي خلفه حتى يصلا لمبتغاهما، يقلب الأوراق الموجودة كلها، لا أثر ليد عبثت بها، يجد وثيقة الملكية الخاصة بأم نمر، يسلمها لنورا التي اهتزت رأسها ولم تنبس بكلمة واحدة وتتمنى أن تنثال دموعها لتخفف من وقع الآلام على صدرها، لا تستجيب الدموع، تتمنى أن تطرح على نادر سؤالًا عما سيفعل، تتخوف أن تأتيها الإجابة بما تتهرب منه، يضع الأوراق مكانها ويولي خارجًا.

***

كلمات الدكتور تطن في أذنيه وصداها يتردد في كل الأرجاء حوله «بعت وانتهى الأمر».

كيف؟ ولِمَن؟

متى ترتفع الأقنعة عن وجوهنا؟ كيف نعيش حياة واحدة حقيقية؟ ندعي أمام الناس بتقوى كاذبة، نتكلم ونفيض في الحكايات الجميلة ونغلف أحاديثنا بالدِّين رغم أن النجاسة عالقة بأجسادنا ولم نتطهر منها، متى نغتسل من أفعالنا الكاذبة المارقة؟ لا نتحرج من عيوبنا ولا نداري أمانينا بذبح الآخرين، ترتد كلماته إلى صدره فتوجعه، يقلب أوراقه وأفعاله يشعر بحسرة وندم، في داخله صراع وأحاديث متباينة تتدفق من أعماقه كنيران محبوسة تبحث عن ثقب صغير لتنطلق هادرة، يعود إليه التريث فيفكر في أمر الناظر؟ ماذا سيحدث له؟ كل أفكاره تصب في زاوية واحدة سيقف لأخيه بالمرصاد وكما قال سيكون فعله وبيعه فوق جثمانه، لن يصمت ويتركه يعبث والناظر على قيد الحياة، هل في تهوره خير أم شر؟ هل تُعجل هذه الأفعال بموت الناظر؟ ألا يكفي ما هو فيه من آلام ومعاناة ... آآآآه، لصالح مَن يحدث هذا؟!! وقع كلمات الدكتور كان قاسيًا، لم يشعر

في كلماته بتردد أو تخوف أو مجرد جس نبض، كانت كلماته موجزة ونبرتها كلها الثقة والعزم، في تردد نادرورد فعله هل تتخلى عنه الشجاعة، ما هي الشجاعة في هذا الموقف؟ هل يلتمس لأخيه الأعذار؟ فأفكاره المشوشة نتيجة للخمر التي يحتسيها أغلب الأوقات، أيغمض عينيه ويسد أنفه ويتركه يفعل ما يريد؟ يحسب النواتج التي سيجنيها رد فعله ومن سيتحمل تبعاتها، لقد تحمل الكثير من كلماته الزاخرة بالسخرية والاستهزاء وكان يقابلها متصنعًا عدم الفهم، يمتص الكلمات ويبتعد، الحب يشله عن الثورة التي تعتريه، يهم بالحديث إلى أبيه، مجرد أن اقترب من مخدعه، مال قبَّل يده ووأد الدموع التي همت أن تهبط، يطبع قبلته فوق يد أصابها الجفاف وبرزت عروقها الزرقاء وانكمش جلدها، ينظر لوجه أبيه فيمتص كلماته ويتأمل تلك العينين الغائرتين وتلك التجاعيد التي احتلت مساحات كثيرة في الوجه والرقبة حتى أطراف الأقدام، كل هذا حدث في فترة وجيزة وبعد وفاة يونس، يضغط الناظر على يد نادر بكل قوة، يشعرها نادر وكأنه يشجعه على حمل أمانة العائلة كلها، بل البلد كلها من وجهة نظره، في هزيده دلائل بإلقاء المهام فوق عاتقه وعليه ألا ينوء بحمل، يدور حديث هامس، يقترب نادر أكثر والرجل يقلده مهام منصبه الجديد ويتوجه بتاج كان فوق رأسه، يكاد يقول له: انس أمر التاج ويكفي أن نسمع بعضنا نحن الإخوة، لقد انتهى زمن الحوارات الصادقة النابضة بالحب، أزهقها بل دفنها الدكتور، يخرس لسانه عن حديث قادم بشأنه، كان سيطرح ما فعله أخوه وبيع منزل أم نمر، يشعر براحة غريبة وهو بجوار مخدع أبيه، يحدثه ويفيض عليه بأحاديث ويشجعه ... يصمت ويهز رأسه موافقًا.

يقلب الأمور على كافة وجوهها، الدكتور يعي ما يفعل جيدًا، فيحسب ردود الأفعال واحتمالاتها، سيصبح أمر البيع واقعًا، رد فعل الجميع بدءًا من الناظر وبناته وخاصة نورا وأخيرًا نادر، سيكون مجرد ضيق وسحابة صيف تائهة وتصفو سماء الإخوة، سيشير الناظر بأن يدون صكًّا آخر باسم النمر أو البهلول فكل الأراضي تعتبر ملكًا لهم، نادر يحاول أن يخفف من وقع

الصدمة ولكن لا يستطيع أن يلتمس الأعذار لأخيه، كثيرون شيدوا بيوتًا لهم تحت سمع وبصر الناظر، فوق أراض ملكيتها موثقة باسمه ولم يبد اعتراضًا فما أكثر الأرض، يوم حاول نادر أن يناقش الأمر معه ضحك الرجل قائلًا ...

«إنما يرث الأرض عباد الله الصالحون ... ها هي صحراء أمامك امتداد بلا نهاية ... ليعمروها ويعيشوا».

نادر لا تقنعه تلك الكلمات أو مدلولاتها، هل يخاف أن تهتز صورته أمام الناس؟ يتخوف أن يحوز الدكتور رضا البشر كلهم ويتربع مكان أبيه؟!! عندما يجابه نفسه بتلك الأسئلة ... يقسم لنفسه بأن هذا ليس مربط الفرس، الدكتور لا يهمه البشر بقدر ما تهمه مكاسبه وما يحوزه من مال، الدكتور يتقرب بصورة مباشرة لكل البشر، هذا لا يشغل باله كثيرًا، أما أن تمتد يده لمصافحة أبي دراع والسماسرة القادمين فهذا يثير الريبة والشكوك في أفعاله وما يدور في مخيلته، لماذا يبيع بدون العودة لرأي أبيه أو إخوته؟ هل صار وصيًّا؟ الناظر حي يرزق وما زال على قيد الحياة!!! طمع وجشع ينام في صدره، أشياء كثيرة وأحاديث تتفجر داخله فإلى من يلقي بمشاعره المتخوفة؟ يستسلم ويترك الأمور، ها هو طه الصامت يثور بصورة غريبة مجرد أن عرف بقصة بيت أم نمر وعليه أن يقيس أبعاد الموقف بصورة جديدة.

***

صخب وضحك وإثارة واستثارة لمتعة غائبة، تفجير لأمانٍ محبوسة في أطر قديمة من العادات والتقاليد البالية، هكذا اليوم يفسرون أفعالهم، يستحدثون كل الأشياء حتى كأن مخارج الحروف المعتادة تبدلت، اللهجة رائقة تحسبها ناعمة كجلد ثعبان يسعى، لا يلقون بالًا لدعاة التخلف والرجعية، عليهم أن ينهلوا من كل جديد وأن يثملوا، إنها خيرات كثيرة تتفجر بها أرضهم، البلد أكثر لمعانًا من كثرة المصابيح المضاءة، لأول مرة في تاريخ

البلدة ألعاب نارية ذات ألوان تخطف الأبصار بتنوعها وجمالها تنير سماء البلد كلها، عهد جديد ومشاهد زاهية، ترتفع العيون لأعلى ملبية نداءات الجمال المتفجر في السماء، ابتسامات زاخرة بآفاق متنوعة وبحسابات تختلف من إنسان لآخر، الجميع ذاهبون مشدُودُون للجديد، مدفوعون ليوم جاذبيته تفوق قدراتهم المعتادة، يمارس الجميع اللهو المباح وغير المباح في كل جنبات البلد.

باعة الحلويات الجوالون ترتفع عقيرتهم بالصياح، نداءاتهم تختلف عما ألفته البلد، نُحرت الكثير من الذبائح في ذكرى مولد الشيخ الغريب الذي صنعوا تاريخه بكذبتهم، غرباء قادمون يلتمسون أخذ البركة من تلك الأرض الطيبة الزاخرة برفات الأولياء الصالحين، يأكلون وينعمون بالطعام، صواني مملوءة بالفتة والأرز واللحوم، مجاورون يلهجون بالشكر ويقيمون طقوس حفلاتهم المُشِيدة بأولياء الله، نفحات متعددة الأغراض والأشكال، هناك النفحة الأهم للجوعى تتمثل في أرغفة الخبز المحشوة أيضًا باللحوم.

نشَّالون يتمتعون بخفة يد لا مثيل لها، يمكن وصفهم بمن يسرقون الكحل من العين، قادمون وراء أمانٍ، يتسللون ويذوبون بين خلق الله، أغلبهم يبدو من ملابسهم بأنهم من الأثرياء وغير المعوزين، تجوس أعينهم وتترقب أياديهم الغوص في جيوب الآخرين، ينقضون بسرعة الصقر.

مقامرون ينتظرون ربما تسنح لهم الفرصة، تتعدد أنواع المقامرة ما بين لعب الثلاث ورقات بأوراق اللعب المعروفة، أو ما يشابه لعبة الروليت باختيار كرة ذات لون محدد، تنطلق الكرات ويكون الفوز من نصيب صاحب الكرة التي تنزلق في الحفرة المتوسطة، الرابح دائمًا صاحب اللعبة، يدفع لصاحب الكرة ثلاثة أضعاف ما دفعه ويحصد هو في الدور الواحد ما يزيد عن أربعة أضعاف، كلٌّ يجرب حظه وتأكلهم روح المغامرة والمقامرة ويسعون لمزيد من الكسب، أما عمليات السمسرة في البيع والشراء فهي التي تدر أرباحًا بالملايين، ينصبون شباكهم يشترون ويبيعون ولا يدفعون

من جيوبهم شيئًا، يكسبون فقط من البائع وأيضًا من المشتري، أصحاب قدرات خاصة، مقامرون تعددت أنواعهم.

أفراح متعددة ولا يخلو الأمر من معارك جانبية، صحبة نادر وكأن نجمهم أفل، يأتي بين الغرباء سحرة وحواة يباشرون ألعابهم في سيرك كبير يرتاده الجميع، تعددت الألعاب، بائعات هوى للطبقة الدنيا بلا بيوت، اتخذوا من شقوق الجبل بيوتًا ومآوي وملاذ لممارسة أفعالهم في الخفاء، هناك قائمون على حمايتهم لهم نصيب محفوظ مما يكسبون، لصوص ومتسولون في آن واحد ينتشرون ويبحثون بدورهم.

مهجة لم تتوقف عن العمل، تشعر بأن كنزها الذهبي خارج نطاق سيطرتها الآن، فقدت الأمل في رجوع نادر إليها ولكن تشعر بأنها فترة مؤقتة لن تطول كثيرًا، ولنفسها تقول ... كل الرجال متزوجون ويكذبون ويأتون ويدفعون ... تضحك وهي تحدد لفتياتها طرق اللهو غير المباح، من يولونه العناية والاهتمام، عليهن الاستفادة بالمولد وعليهن أيضًا نقل البضاعة من أبي دراع ورجاله، أغلبهن أصبحن على دراية كبيرة بأغلب شقوق الجبل ومتاهاته ورجاله.

ألعاب للأطفال، مراجيح متعددة الأشكال والألوان يُقبِل عليها الأطفال وربما يشاركهم الشباب، استعراض القوة يلهب حماس الشباب فيتبارون ويتنافسون وضحكاتهم تغزو سماء المولد، تصويب على أهداف وسباق أملًا في الفوز بلعبة أو هدية، يصوبون ببنادق رش أو بكرات صغيرة ككرات التنس.

مشردون وغجر رُحَّل، فتيات يضربن الودع ويكشفن عن الغد لكل مريدٍ وسائلٍ، يدغدغن مشاعر الشباب والرجال بنظرات تقطر ودًّا وهيامًا، يغمزن فيدفع المريد ويكاد يلتصق بها.

تصفيق ومديح لمن يمشي على الحبل، إعجاب ودهشة من أفعال يأتيها

الساحر وحيله البديعة، نافخو اللهب يتبارون فينفثون لهبهم وهم يبخون البنزين من أفواههم، حواة الثعابين ومن يدعون أنفسهم بأبناء الطريقة الرفاعية يتبارون ويقبضون بأيديهم على ثعابينهم، وعلى من يريد اتقاء لدغة الثعبان يتقدم ويدفع، وعلى ابن الطريقة أن يجعل الثعبان يلدغه في أذنه، بتلك الطريقة صار لجسمه مناعة ضد لدغات الثعابين أيًّا كانت أنواعها، حتى أكلة الزجاج وتكسيره بأسنانهم لهم نصيب في هذا المولد الذي اتسعت أركانه.

متسولون كالصراصير يتنقلون من مكان لآخر، حريصون على جمع أكبر قدر ممكن من الخيرات في تلك الأيام المباركة، يخافون من أيام البرد والشتاء القادمة، يحل الجفاف عليهم في أيام كثيرة من السنة ولا يجدون، فعليهم استغلال الفرصة المتاحة

البلد تنبض بالحياة ولم يتبق سوى الأموات لم يشاركوا في الفرحة بالمولد، جموع متباينة من البشر.

الشيخ رضوان يصف ويجيد في وصفه، حب فضول الناظر يطالبه بالمزيد، يتأوه الشيخ وهو يقول:

نصبوا سيركًا كبيرًا في البلد.

تزينت الدنيا وظن الناس أن الدنيا دائمة لهم.

هل قرب الموعد؟ متى يأتي أمر الله؟

يعبث بجيبه ويخرج قطعة من الحلوى، يفضها من ورقتها المحصنة بها، يمدها للناظر، يضحك طه الصامت، يرفضها الناظر، يقسمها الشيخ ثلاثة، يتناول كل منهم نصيبه، يستحلبون مذاقها الجميل ورائحتها الطيبة.

يتمنى الناظر أن يطوف بالبلد، أعجبتهما الفكرة، لكن لا بد من اختيار مسار بعيد عن العيون ليتأمل الرجل عجائب ما سمع من فم الشيخ

رضوان، كان هذا هو الشرط الأساسي الذي اشترطه الناظر للموافقة على الرحلة، اختلفَا في تحديد المسار الذي يمضون فيه، حددوا المركبة وهي عبارة عن حنطور خاصٍّ بأحد أبناء البلد المحدثين بنعمة الثراء، وافقوا أخيرًا على الطريق ومن يتتبعون المسيرة من رجال الناظر.

على غير توقع مسبق توجه الناظر بالسؤال:

أين البهلول وأين نمر؟

لم يحضرا ولم يأتيَا للمنزل كالمعتاد منهما، هل حضرَا المولد ولم يأتيَا للسلام على الناظر، هذا مستحيل، ألقى الناظر أمرًا بأن يسرع طه في الحال ليستكشف ما حل بهما، شعر كل من الشيخ وطه بتلك الغيبة غير المعتادة، أسرع طه بالخروج.

***

قبيل العصر بقليل، همس أحدهم في أذن نادر بكلمات، تبدلت ملامح وجهه، انطلق ومن خلفه مريدوه، كلما مضى في الطريق تكاثر عددهم خلفه، الناس كلها في المولد تائهون في أفراحهم وسعادتهم، وصل نادر للمكان، نظر بعينيه وتأمل ما يحدث، رافعة ضخمة مثل التي يستخدمونها في المحاجر تسوي منزل أم نمر بالأرض، نمر واقع على الأرض مضرجًا في دمائه والبهلول مجموعة من العسكر حوله وقد قيدوا يديه بأغلال حديدية، وما أن لمح نادر صرخ به مستنجدًا، لم يشعر بما حدث له، انفجر نادر صارخًا لاعنًا كل من فعل ذلك، التفوا حوله كمموا فاه أمرهم كبيرهم أن يعاملوه بصورة أفضل، طالبه مأمور الشرطة الذي يرتبط به بعلاقات متبادلة أن يلتزم الصمت، أشار عليه بالتريث والهدوء، لم يفر أتباعه ومريدوه، نظر إلى القادمين معه ستكون معركة غير متكافئة بين طرفين، الغلبة لرجال الشرطة لعددهم وتعدادهم ولن يتوقف الأمر عند هذا الحد، هناك أكثر من سيارة من سيارات الشرطة محملة بالجنود، تلقوا الأمر فهبطوا مسرعين

وقد شهروا أسلحتهم، يأمرهم نادربالهروب، وقفوا في تردد تلمح عينا نادر أحد رجال أبي دراع، في ثقة يتقدم الدكتور إبراهيم ناحية نادر، بأعصاب هادئة وبكلمات آمرة يطالب أخاه بالعودة مباشرة وترك هذا المكان، يشير بأن هناك أوامر عليا من قيادات معروفة بتمكين المشتري من أرضه، في برود غريب يهمس في أذن نادر:

- مسألة البيع مسألة عائلية نحلها في البيت.

نادر يكاد ينفجر ساخطًا لاعنًا ولكن يحبس كل مشاعره ويرد عليه وهو يشير لطريد العدالة الذي يعرفه:

- أنت تعرف الشخص ده؟!

- المشتري.

- إنه أحد مطاريد الجبل!

لم يمهله أن يكمل كلماته:

- هتاخد رجالتك وتمشي ... اعتبر كلامي أمر.

- يعني بكره أبو دراع هيشاركنا في البلد.

في كلمات تقطر سخرية يقول الدكتور:

- ليس أبو دراع هو المشتري ... إنها سيدة أعمال من البر الثاني.

يتصنع بأنه يحاول أن يتذكر اسمها:

افتكرت ... أظن اسمها ... اسمها ... مهجة.

تتعثر مخارج الكلمات على شفتي نادر، ينظر للدكتور وكأنه يطالبه بالتوضيح أكثر، لا يستجيب لسؤاله المطروح من قِبل عينيه، في سؤال بدا متذللًا يسأل نادر:

- وما دخل الشرطة؟

- الشرطة بتنفذ القانون ... والقانون

يكاد يصرخ في وجهه:

- هيبقى قانون.

لم يدم الحوار كثيرًا، نادر يخاف أن يُورَّط هو وأصحابه في صراع ضد الشرطة، مليون سؤال يدور في رأسه عن مدى علاقة الدكتور ومعرفته بمهجة، عليه أن يأخذ قراره في ظل المتغيرات الحادثة حوله في البلد كلها، عليه أيضًا أن يهم وبسرعة بإطلاق سراح البهلول الذي يصرخ باسمه، أن يُسرع بحمل نمر إلى مستشفى البندر، يشير الدكتور إليه بالرحيل، يومئ برأسه مستجيبًا ويرسم ابتسامة مغتصبة فوق وجهه، يتركونه يحمل البهلول ونمر ويمضي ورفاقه معه جميعهم يشعر بالهزيمة والعار.

الرجل المشتري كما يقول الضابط:

«صاغ سليم وليس عليه أي شبهة جنائية».

***

طه الصامت في أحد الأركان حزينًا كئيبًا، كان أول العارفين بما حدث لنمر والبهلول، كتم في صدره ولم يبح بما حدث للناظر، اقتصرت كلماته بأنهما في المولد وسيأتيان، الشيخ رضوان كلماته مترددة يعيدها أكثر من مرة وكأنه غير راضٍ عن الصيغة التي سيتحدث بها للناظر، كان يعرف أن هناك مشروعًا كبيرًا سيدر على البلد الكثير، مشروع خاص بأحد الأثرياء ويسميها مدينة ترفيهية، هكذا أخبره الدكتور ولوح له بفائدة خاصة به دون سائر الناس في البلد، يعدون العدة للخروج بالناظر ليروح عن نفسه ويتنزه في أرجاء البلد ويجلس على حافة النيل، هل يمنعونه؟ كيف؟ الناظر كلمته لا ترد، ما الأسباب التي سيتذرعون بها، هل يغيرون مسار رحلته، الطريق الذي كان مقترحًا يمر بمنزل أم نمر، فماذا سيرى؟ وماذا سيكون رد فعله؟

استعد الأتباع للمسيرة وجُهِّز الحنطور الخاص بالناظر ليكون أكثر راحة له، طه يغرق رأسه ووجهه بالماء ويحاول أن يرفع عن عينيه آثار بكائه، تنطلق المسيرة، تنفرج شفاه الناظر، منذ فترة طويلة لم تُسعد عيناه بالنظر لصفحة النيل، همَّ الركب أن يغير مسار طريقه، بوكزة حانية للسائق طالبه أن يمضي في الطريق المعتاد، نظر الفتى وكأنه يستمد من الشيخ رضوان أمرًا، عاد الناظر يطالبه، كلمات لا يستبين معناها لا الناظر ولا الفتى تخرج متحشرجة من فم الشيخ، ينصاع الفتى لرؤية وأمر الناظر، يهتز قلب الشيخ بعنف وطه الصامت يجلس على الأرض منتحبًا، ينظرون جميعًا لبقايا منزل أم نمر، يدفع صبي الحنطور حصانه أن يسرع بالضغط على لجامه، يأتي أمر الناظر بالتوقف، يتوقف الركب ويسرع طه بأخذ موقعه بجوار الناظر، عينا الناظر تتأمل بقايا المنزل المتناثرة على الأرض، سياج من الأحجار البيضاء لم يكتمل فيه سوى القليل، يسأل ولا يستطيع أي إنسان حوله أن يجيب، يمضي متقدمًا للأمام يحاولون منعه، لا يستعين بأحد إلا بعصاه، تسقط عباءته ولا يهتم، يتحرك في صعوبة بالغة، صرخة قادمة من حارس غريب تمنعه من التقدم، لا يأبه الرجل بصرخات الحارس ويتقدم، تنطلق رصاصة وحيدة ويسقط طه الصامت مضرجًا في دمائه، يسرعون ويقبضون على الحارس، الحارس لم يكن غريبًا، إنه واحد من أبناء البلد يعمل بالحراسة مقابل مبلغ كبير لم يحلم به، ينظر الحارس لطه الصامت الذي ترتسم فوق شفتيه ابتسامة غريبة، يصرخ الحارس ويلطم وجهه ويهيل التراب الممزوج بالرمال فوق وجهه، تصعد روح الصامت لبارئها وهو بين يدي الناظر والشيخ رضوان، تسقط دموع الناظر، لا يستطيع أن ينصب عوده.. لا يتحرك من مكانه ...

استسلم ورضخ نادر للأمر الواقع، كل ما يهمه في تلك اللحظة أن يعرف سببًا لعملية البيع والشراء، أو مَن وراءها، يُجزم أنه أبو دراع.

الأقاويل تتناثر في البلد، لكن الجميع يقومون بعمليات البيع والشراء

والسمسرة، القادمون يعرضون ألعابهم، عدد غير قليل يترصد ويسترق السمع ويقوم بفعلته، يضع يده على قطعة أرض أو ما شابه ذلك، الدكتور يطالب نادر ألَّا تقتصر رؤيته تحت قدميه فحسب، المستقبل رهن يديه، سيأتي أكثر من مشترٍ وبأسعار تفوق الخيال، عليهم استغلال الفرصة السانحة، يشير إلى المتغيرات، فالزمن لا يصلح اليوم لأفكار الناظر.

الفهرس

١-قصرٌ ومقبرةٌ ومنزلٌ ٧

٢-مُبصرٌ في بلادِ العِميان ٣١

٣-ذكريات جافـة ٤٩

٤-الخير القادم ٧١

٥-كم جميلة الحياة؟ ١٠١

٦-المــولد١٤ .... ٥

٧-المســافر ١٧٧

٨-الضباب يغمر البلدة ٢٠٩

٩-الشتات ٢٤٧

١٠-المواجهـة ٢٨٣

في **كيان للنشر والتوزيع**، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتَّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب **تراسلنا**، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش.

ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235611772 -0235688678**

هاتف محمول: **01000405450 / 01005248794 /01001872290**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصدراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpublishing

+KayanPublishing

KayanPublishing